أمير تاج السر

إسعافات أوليَّة

قراءات عن الثقافة والحياة

مكتبة ١٣٥٢

أمير تاج السر

إسعافات أوليّة

قراءات عن الثقافة والحياة

مكتبة | ١٣٥٢

منشورات الربيع

إسعافات أولية،

قراءات
تاج السر، أمير

منشورات الربيع، القاهرة
الطبعة الأولى يناير 2022

رقم الإيداع 13585 / 2021
ردمك 978-977-6765-36-7

الغلاف والتصميم الداخلي
scriptus.abimam.com
آب إمام

صورة الغلاف
Quinten de Graaf

منشورات الربيع
المحرر العام
أحمد سعيد عبد المنعم

alrabiepublications.com
info@alrabiepublications.com
+2 0100 7552 598

مكتبة
t.me/soramnqraa
٢٠٢٣ ٩ ١٤

5
1

لا شك في أن كتابة الرواية، تطورت بشدة منذ عهد الروايات الأولى التي كتبت في القرون الماضية، وحتى التي كتبت في القرن العشرين، وبداية الألفية الجديدة، وظهرت تجارب عديدة، لا تتبع النهج الكلاسيكي المعروف، ولا حتى تتبع بواكير الحداثة، وإنما هي تجارب وحدها، شيدت بمعمار خاص، وطرحت نفسها للتذوق.

هذا بالطبع يشمل الرواية الغربية والعربية أيضا، ونحن كما هو معروف، بدأنا متأخرين، غالبا في ثلاثينيات القرن الماضي، كما يؤرخ نقاد الأدب، وبالتحديد برواية زينب لمحمد حسين هيكل، وإن كان هناك من لا يرضى بتلك النتيجة، ويذكر أعمالا أخرى كتبت في الشام، بوصفها بدايات الكتابة الروائية العربية.

وفي هذا الوقت بالذات، أي وقتنا الذي نعيشه، نجد كتابات روائية بأعداد كبيرة، لكن دائما ما نشير إلى أن النجاح، وسط هذا الكم الهائل من الكتابات، يحتاج إلى صوت خاص يملكه الكاتب، أو يسعى لامتلاكه بكثرة القراءة والتجريب، والحذف والإضافة، والسؤال واكتساب المعرفة، ويمكن أن أضيف ورش التدريب على الكتابة، رغم اعتراض البعض، أن الورش لا تصنع كتابة. لا يهم أن يكون الأسلوب مقبولا لدى كل الناس، وهذا لن يحدث أبدا، بسبب اختلاف الأذواق، لكن فقط أسلوب

خاص بالكاتب، والأسلوب هنا ليس أيضا بالضرورة يعتمد على اللغة، أو الوصف الخاص بالشخصيات، وإنما العالم الذي يتم تشييده، ويظل عالما فسيحا جدا، تسرح فيه مخيلة الكاتب، ويأتي إلينا منه بالدرر.

وفي زياراتي الدائمة للمكتبات الكبرى، التي ما زالت تهتم بكتب الإبداع مثل مكتبة جرير، وتضع لها قسما ضخما، لا يقل وجاهة عن أقسام القرطاسية والكومبيوتر، وأجهزة الاتصالات، أعثر دائما على كتب مذيلة بأسماء لم أسمع بها أبدا، ينتابني الفضول، وأقلب الكتب، أحيانا تلفتني الصفحة التي فتحتها، وأشتري الكتاب لأكتشف وراءه كاتب موهوب، لكن كثرة ما يعرض، ويلهي المتسوق، لا يتيح له أن يتعرف إليه.

أيضا أعثر أحيانا على تجارب فيها محاكاة، وأعني هنا العناوين، التي يتوهم الكاتب أو الكتاب أنها ستلفت النظر لأنها صيغت على وزن عناوين أخرى مشهورة، أنا لا ألتفت لتلك المحاكاة، أحسها شيئا متكلفا ومقصودا، أن تسمى عملا لك مثلا: موسم الهجرة إلى الجنوب، أو اللص والثعالب، أو في بيتنا طفل، من دون أن تجيد رسم عالم يخصك، ويمثلك أنت، القارئ الجيد في رأيي لا يبحث عن عناوين تذكره بعناوين أخرى، قرأها مرارا وتكرارا، لكن عن عناوين حديثة وجذابة، وتقدم محتوى دسما ومشبعا.

أحيانا تأتي المحاكاة بشكل مبدع، وهنا لا يكتب المؤلف شيئا شبيها بالأعمال القديمة، لكن معارضا لها، أو امتدادا لها وقد

ذكرت مرة، أن أي نص روائي يحتمل مده في أجزاء كثيرة، لكن الكاتب يكتفي بما يراه مناسبا، وقد يأتي كاتب حديث يمد النص في رواية جديدة، تذكر بالقديمة، وفي الوقت نفسه، تجددها بشخصيات أخرى، وعالم آخر، وفي بداياتي كانت لديّ رغبة كبيرة أن أكتب امتدادا لرواية «الحب في زمن الكوليرا» لماركيز، التي انتهت بالسفينة تشق النهر وسط مخاطر الكوليرا، وهي تحمل فرنادو داثا وحبيبته التي غدت مجرد هيكل رفيع، وعجوز، وكان ينتظرها كل تلك السنوات، إنها نهاية عظيمة، ومبهرة، وتتوافق مع النص بالتأكيد، لكن ماذا لو عثر الحبيبان العجوزان وسط غابة من غابات الأمازون على إكسير عشبي يعيد شيئا من الشباب، لتبدأ رحلة أخرى من الحب وسط صفاء بعيد عن الكوليرا؟ لقد كنت أتخيل شيئا كهذا، وبالطبع لم أكتبه، إنه مجرد خيال لم يجرؤ على الخروج من الذهن إلى الورق، خاصة أنه كان لماركيز في ذلك الوقت رهبة كبيرة، ومجرد مجاراته تجلب القشعريرة.

من التجارب الجيدة التي مدت من رواية قديمة وأعادتها للأذهان، تجربة الجزائري كمال داوود في محاورته لرواية «الغريب» لألبير كامو. كلنا قرأنا «الغريب» وقد نكون سخطنا على عنف المستعمر، وحادثة القتل في الجزائر، لكن الرواية عادت للأذهان بشدة حين كتب داوود روايته، «معارضة الغريب» وحصل بها على شهرة كبيرة، وعدد من الجوائز، وأظن أن التجربة كانت ناجحة.

هو سمى الرجل القتيل: موسى، صنع له أما وأخا وجيرانا وحبيبات، وعملا وعالما كبيرا كان يمكن أن يورق بشدة، لولا مقتله، ونجد هنا أن أخا موسى هو الذي يحكي، ويهدد، ويشتعل غضبا، هكذا. رواية كمال صغيرة لكنها تشعرك بلذة الكتابة، وتتابع بنشوة ذلك العالم المميز الذي خطه، وهو يتحدى «الغريب».

أعود لمسألة الصوت الخاص في الكتابة، ذلك الذي يقدم الكاتب بصورة مشرقة، وقد يضعه في الصف الأول من الكتاب، من العمل الأول فقط، وأمامي رواية: «لينكولن في الباردو» التي كتبها الأمريكي جورج سوندرز، وحصل بها على جائزة مان بوكر البريطانية، ونقلتها دار أثر العظيمة، بترجمة جميلة جدا من أحمد حسن المعيني.

الرواية ليست تقليدية أبدا، ولا هي أيضا تتبع آخر صيحات الحداثة، إنها رواية مبتكرة، أرواح كثيرة هائمة، تتحاور في البرزخ، وتبدي وجهات نظر في الحياة والموت ومعطيات العالم، ويمكن أن تمدح وتذم، وتنتقد، وتشتكي، وتصف الجمال النسائي والأناقة أيضا، ويأتي الاسم من وفاة ابن الرئيس إبراهام لينكولن، وانضمامه لتلك الأرواح. الحوار بين الأرواح يمكن قراءته كحوار، ويمكن قراءته كسرد متصل من دون التركيز على الشخصيات، لنجد قصيدة ملحمية عظيمة.

إذن لنتعلم كيفية الحصول على الصوت المتفرد، الصوت الجهوري الذي ستصرخ به حروفنا، فيسمعها القاصي والداني،

ولا يهم، كما قلت، أن تعجب أحدا، المقصود ليس إبهار الناس كلهم، لكن إبهار من يكون مستعدا لينبهر.

منذ سنوات، وأنا أشير في كل سانحة، إلى ضرورة تشجيع القراءة، وذلك باستخدام كل وسيلة ممكنة، لأن القراءة كما هو معروف، هي وسيلتنا لاكتساب المعرفة، والخروج من ظلام قد نكون نصنعه بأنفسنا، بسبب عدم إدراكنا لكثير من الأمور.

ومن متابعة موضوع مثل التطرف الديني، الذي لاحظناه عند كثير من الشباب، في السنوات الماضية، واستعدادهم المطلق للموت بلا معنى حقيقي لذلك الاستعداد، ندرك أكثر ضرورة محاربة الجهل بالمعرفة، أي بالقراءة الجيدة.

بالطبع لا أعني قراءة الروايات والقصص والأعمال الإبداعية عموما، لكن كل ما يقود إلى المعرفة الحقيقية، التي تنظف المخ من الشوائب، وتكسب الروح نشاطا جيدا، نعم فالقراءة الجيدة، رياضة جيدة للذهن والروح ومكسب حقيقي لا بد من السعي إليه.

من المبادرات الجيدة لتشجيع القراءة، الانخراط في مجموعات شبابية، بدأت تنتشر مؤخرا، حيث يتفق الأعضاء على قراءة كتاب معين، ومناقشته بعد ذلك، وأحيانا يستضيفون المؤلف نفسه، ليرى ويسمع ما استخلصه الآخرون من مؤلفه، ويدلي برأيه معهم. إنه نشاط مميز لم يكن متوفرا قديما، حيث كانت

مناقشة الكتب أكثر غرورا، حين يأتي المؤلف ومعه نقاد يعرفهم، ليجلس على منصة وسط حضور معين، قد لا يكون معظمهم قرأ الكتاب موضوع المناقشة، تتلى الدراسات النقدية، ويتحدث المؤلف قليلا عن كتابه، كيف استوحاه، وكيف كتبه، وإن كان يرى أنه مهم في تجربته أم لا؟ وينتهي كل شيء.

أرى أن مناقشة القراء للكتاب، أكثر جدوى من وجود نقاد يتحدثون ومستمعين، ربما كان فيهم قراء، لكن في الغالب، مجرد متابعين سطحيين للثقافة، يقضون بالوجود في تلك الندوات، بعض الوقت، هذا بالطبع لا يعني أن نترك تلك المنصات، ونتبعثر في مجموعات القراءة، لكن نحاول تقريبها من واقع اليوم، حيث لا بد من مشاركة القارئ بصورة أكثر جدية في الحياة الإبداعية، ولن أبالغ إن قلت لا بد من وجود القارئ حتى في لجان الجوائز، التي انتشرت أيضا في السنوات الأخيرة.

أذكر في الثمانينيات، أن حضرت ندوة في «أتيليه القاهرة» لكاتب عربي كبير، كان يزور القاهرة في تلك الفترة، كنت في البدايات، وحضرت الأمسية مصادفة حين أقيمت، وأنا موجود في الأتيليه، وكانت مصادفة أيضا أنني قرأت الرواية التي تمت مناقشتها، وللحقيقة لم أحس بأنها كانت ندوة مثمرة، جاء الكاتب بصحبة ثلاثة نقاد، جلسوا على المنصة، وتحدثوا حوالي الساعة ونصف الساعة، وانتهت الندوة وكانت في حلقي أسئلة كثيرة بشأن الرواية، لم أستطع طرحها، وأصلا لم تكن ثمة فرصة لطرحها، بعد سنوات من ذلك التقيت بالكاتب في أحد

المهرجانات العربية، وطرحت أسئلتي عليه، وكان أن رد عليّ بأنه تجاوز ذلك الطرح كثيرا، وعليّ أن أقرأ نصوصه الجديدة.

من المبادرات المهمة أيضا لتشجيع القراءة، إنشاء مكتبات في الأحياء، والأماكن العامة، والمقاهي التي يرتادها الشباب، وهذه مبادرة موجودة، لكن بصوت خافت، حيث نجد بعض المقاهي الحديثة، في عدد من الدول، تضم مكتبة في أحد الأركان، يمكن للجالس أن يستعير منها كتابا، ويرده بعد نهاية جلوسه، هنا ليس ثمة عمق كبير في تناول القراءة أو المعرفة، بسبب قصر الوقت الذي قد يقضيه الشخص مع الكتب، لكن مجرد تعويد اليد على تناول كتاب، والعين على تسلق الصفحات، مهم جدا للاستمرار، ومشجع لاقتناء الكتب في ما بعد، وقد عمل بعض المثقفين على ربط مقاه افتتحوها خاصة، بالإبداع، حيث توجد القهوة، وتوجد المكتبة، وتوجد قاعة للندوات، مثلما فعل الزميل جمال فايز في الدوحة، بإنشاء مقهى كهذا، سماه «المقهى الثقافي» لكن مثل تلك المشاريع، تحتاج بلا شك إلى دعم كبير من أجل الاستمرارية، خاصة أن أصحاب المباني التي تؤجر لتلك الأغراض، لا يفرقون بين استثمار تجاري، واستثمار ثقافي.

أعتقد، وبعد أن أزعجنا كوفيد 19، كل هذا الإزعاج، وزرع في النفوس التي يتحاوم حولها، ويتغلغل فيها، إما الموت، وإما كل أنواع الإحباط، لا بد أن ننتبه إلى ضرورة حماية القراءة، وحماية منابع المعرفة من الجفاف، هناك كثيرون ماتوا، كثيرون فقدوا

وظائفهم، وكثيرون انخفض دخلهم، بحيث أصبح وجود كتاب جديد في البيت، نوعا من الترف الذي لن يقدر عليه كثيرون.

وحتى في أكثر الدول احتراما للكتاب، انخفضت المبيعات، وانخفض عدد الراغبين في قراءة الكتب، وشخصيا ألاحظ ذلك من الأسئلة التي ترد للكاتب بمجرد أن يعلن عن قرب صدور كتاب، أو صدور كتاب بالفعل، حيث أن معظم الناس يسألون إن كانت توجد نسخة مجانية في الإنترنت؟

هذا السؤال يلغي مجهود الكاتب ومجهود الناشر، الذي تكفل بطباعة الكتاب، ويؤكد عدم الرغبة في اقتناء الكتاب في ظل هذه الظروف، ما لم يكن مجانيا، وحقيقة لا تستطيع أن تلوم أحدا على تفكير كهذا، هو صادق على الأقل في سؤاله.

الشيء المطلوب في رأيي للرد على سؤال كهذا، هو توفير نسخة ورقية شعبية بسعر زهيد، يتناسب مع الجميع في أي بلد غزته حمى الشظف، وتعثرت موارده الاقتصادية إما بسبب الجائحة، وإما بسبب الحكومات الفاسدة، كما حدث في السودان قبل الثورة المجيدة، نسخة لا تحتاج إلى ورق فاخر، ولا غلاف مزركش، ولا ملمس حريري، نسخة تحوي نصا فقط، يقرأ للمتعة أو المعرفة، وأظن أن هذا ممكن، وتوجد دور نشر أعرفها مثل «دار البشير» في مصر، و»دار الفرجاني» في لندن، مستعدة للتعاون في هذا الشأن.

نريد حماية القراءة، وأتمنى أن ننجح.

منذ فترة عثرت مصادفة على أحد المواقع غير المعروفة، في الإنترنت، على حوار مطول قيل أنه أجري معي، فيه كل ما يمكن أن يقال وما يمكن أن لا يقال أيضا. هناك أسئلة عامة عن الكتابة، والقراءة، واقتناء الكتب، وأسئلة خاصة بعوالم تخصني، ربما كتبتها في نصوصي، وتلك الأسئلة الكلاسيكية التي ترافق أي حوار، يمكن أن يجرى مع كاتب أو شاعر، في أي وقت وأي مكان، مثل سؤال المهنة، وسؤال الأسرة، وهل هناك من يكتب من أبنائك، ومن هو قارئك الأول، وبمن تأثرت، إلى آخر تلك الأسئلة التي تحس بمرور الزمن، أنها تجيب على نفسها بنفسها من دون أي تدخل منك.

حقيقة لم أتذكر ذلك الحوار، الذي خلا من إسم المحاور، ولم أذكر أبدا أنني أجريته لذلك الموقع الذي يقول بأنه حوار حصري وخاص، واكتشفت بعد تفكير عميق، ومراجعة للذاكرة التي ابتدأت تعتل من كثرة ما دخلها من صالح وطالح، وأيضا من العمر الذي لا بد تقدم، وجاء بمواصفات ذاكرة بديلة للتي كانت سائدة من قبل، اكتشفت أنه حوار لم يجر قط، لكن تم تجميعه من مقالات، وتصريحات، واستطلاعات رأي، وحوارات قديمة سابقة، ووضع على أنه حوار شامل جديد.

المسألة لم تكن مفزعة لي أبدا، في الحقيقة، فهو ليس تجميعا

لكلام عالم ذرة يمكن أن يؤثر في شيء من مجريات الحياة، ولا حديثا عن جائحة كورونا مثلا، يمكن أن يوقعني في حرج إن شابته بعض الأخطاء العلمية. ومعروف أن الكاتب أو المبدع عموما عندنا في أي زمان ومكان، ليس بتلك الأهمية التي تضفي على عمله مسحة جادة، وتبعده عن العبث. فذلك التجميع اجتهاد من شخص ما، ربما أراد إجراء حوار، ولم يجد طريقة، أو ربما لم يرد إجراء حوار، وجرب موهبته في تجميع تلك الأقوال وربطها ببعض لتكوين حوار يمكن قراءته. وأظنه بذل مجهودا في ذلك، لأن مطاردة الأقوال والمقالات والتصريحات المبعثرة هنا وهناك، على مر السنوات، وتطويعها من أجل أن تصبح حوارا، لا بد يحتاج لمجهود، مجهود قرائي بحثي، ومجهود استثنائي في تكوين أسئلة، تبدو في هيئتها مثل أسئلة المواجهة.

ذلك ذكرني ببداياتي حين كان طلب الحوار من أي صحافي، حتى لو كان بلا صحيفة، ولن ينشره في أي مكان، يشكل أهمية كبيرة بالنسبة لي كمبتدئ، وكنت أرى المبدعين الكبار أثناء جلوسهم في المقهى، يتعاملون مع طالبي الحوارات بكثير من الترفع، يقبلون هذا، ويرفضون هذا، ويعتذرون بخشونة لمن يلح بأنهم لن يجروا حوارا.

كنت قد نشرت ثلاث أو أربع روايات حين أرسل لي أحد الصحافيين رسالة يطلب فيها مني أن أجري حوارا مع الجريدة التي يعمل فيها، ورددت عليه فورا بأنني أقبل ذلك، وجلست أياما امتدت لأسبوعين أنتظر أن يرسل لي الرجل مادته لأغرق فيها، مجيبا على الأسئلة بأجوبة فيها الكثير من المغالاة، بالرغم

من هدوء تجربتي في ذلك الوقت، وأنها كانت أقرب للتجربة الشعرية منها للنثرية. طال وقت الانتظار أكثر، ثم فوجئت بعد ذلك برسالة من الصحافي يسألني: أين الحوار يا أخي؟

رددت عليه: لم ترسل لي أسئلة لأجيبها.

وكان رده غريبا فعلا، ردا لم أكن أتوقعه، حين أخبرني بأنني لم أفهم قصده، هو لن يرسل لي أسئلة، لكن يريدني أن أكتب أسئلة وأجيب عليها، وأرسلها له مع الصور، أي أن أحاور نفسي بنفسي، بأسئلة أود أن تطرح علي.

وبالرغم من أنني لم أنو أن أرسل له حوارا كهذا، لكني جلست يوما كاملا أكتب أسئلة غاية في التعقيد، والإشكالية، وأجيب عليها بتعقيد أكثر، واكتشفت فعلا بأن ما تود أن تسأل عنه لن يأتيك من أحد، ولكن منك شخصيا. المبدع أقدر من غيره على محاورة نفسه، والخروج منها بأجوبة غاية في الكمال وتبتعد تماما عن تلك الأجوبة التي سيدلي بها للصحافة، ردا على أسئلة بديهية ومكررة.

لم أسأل نفسي بالطبع عن سؤال المهنة، ولا إن كان في الأسرة من يكتب، ولا حجب الطيب صالح للكتاب السودانيين. وقلت للصحافي آسف، لن أشارك في شيء كهذا، وكان رده، أن المسألة ليست عجزا منه في صناعة حوار مع شخص ما، لكنه أراد أن يمنح ذلك الشخص فرصة أن يتنفس بحرية بعيدا عن أسئلة ربما لن يحبها.

ربما كان محقا فعلا، فقط تظل الطريقة المتبعة غير صحيحة، وغير منطقية، الكاتب سيتنفس بحرية في رواياته، ومقالاته، يتنفس من دون أن يحس بوجود جرح في التنفس، وهذا بالضبط ما فعله صانع الحوار الأخير الذي عثرت عليه مصادفة، فقد جمع تلك الأنفاس من هنا وهناك، ولم يزد عليها أي مغص جديد.

لكن يظل ثمة سؤال هنا: ماذا لو أضاف ذلك الصحافي أجوبة من عنده تمس أشخاصا أو أوطانا أو عقيدة ما ونسبها للكاتب؟

صحيح لن يعثر أحد على إثبات أن ذلك الحوار أجري بالفعل، وفي الوقت نفسه لن يعثر الكاتب على إثبات أن الحوار لم يجر، وحتى لو صدق الناس أن تلك الأجوبة مخترعة، واعتذر الموقع، الذي نشر الحوار فيه، تظل ثمة وساوس تغازل كثيرين، كانوا يحترمون الكاتب، والآن ينظرون إليه بعين أخرى.

في النهاية يظل عصر الإنترنت، والتوغل فيه، عصرا شائكا وغادرا في كثير من الأحيان، سنعثر على النزاهة في بعض الأحيان، هذا حقيقي، وسنعثر على غير النزاهة، وهذا حقيقي أيضا. كلنا نستفيد من وجود الإنترنت، وبذلك قد نغض الطرف عن الضرر الذي يلحق بنا، وأظن سرقة الكتب ونشرها مجانا، مثلا، من الأضرار الكبيرة، التي صنعتها الإنترنت، ولا مناص من التعايش معها، تماما مثل التعايش مع مرض بلا شفاء.

منذ فترة كتبت رسالة لأحد المسؤولين عن موقع إلكتروني عبارة عن مكتبة ضخمة، تنشر فيها الأعمال الأدبية وغير الأدبية بلا وجه حق، ومن دون إذن من أصحابها أو ناشريها، وتتاح مجانا للقراء. سألته إن كان يعرف الملكية الفكرية، وحقوق المؤلف، فرد إنه يعرفها جيدا، سألته عن الهدف إذن من التعدي على ما يعرفه، فأجاب بأنه لم يسرق نصا من أحد، ولا هو من صور الكتب ونشرها، وأن كل ما فعله هو أن لم شتات النصوص من بحر الإنترنت العميق، وأسكنها بيتا واحدا بحيث لا يجد من يبحث عن كتاب ما، صعوبة كبيرة في العثور عليه، وإن كان ثمة لوم فهو يخص من قام بقرصنة الكتب.

توقفت عن الكتابة للرجل، لكن ما يزال بالي مشغولا بقضية الحقوق تلك، وهل كانت القرصنة ستكون متاحة لو لم يوجد الإنترنت؟ أيضا سؤال مهم، وهو هل كان الناشرون سيدفعون حقوقا مجزية للمؤلفين لو لم تكن هناك قرصنة، وفقط بوابة وحيدة للقارئ، هي بوابتهم؟

في الحقيقة أستطيع أن أجيب على سؤال القرصنة في غيبة الإنترنت بناء على تجاربي القديمة، حين كنت طالبا جامعيا، كانت المراجع العلمية غالية جدا ولا يستطيع أي طالب أن

يوفر قيمة مرجع واحد من عشرات المراجع، من المصاريف القليلة التي كان يرسلها له أهله. لكن استطعنا القراءة، ودخول الامتحانات والنجاح فيها، بسبب الكتب المصورة، التي كانت متوافرة بشدة في كشك صغير قريب من الجامعة حيث يباع المرجع بجنيهات قليلة، مقابل عشرات الجنيهات، أو حتى مئات في مواد مثل التشريح ووظائف الأعضاء والطب الباطني.

صحيح أن التصوير لم يكن متقنا، والكتاب قد يفقد بعض الصفحات، وقد تجد فيه صفحات بيضاء أو سوداء من فعل الضغط على الآلة المصورة لإنتاج آلاف النسخ، إضافة إلى بدائية آلات التصوير في ذلك الوقت. لكن لا بأس، سيعثر الطالب على ما يريده، أو لنقل معظم ما يريده من دون أن يكلف أسرته فوق طاقتها، وأظن أن هذا التقليد في قرصنة العلم وإتاحته للدراسة ما يزال موجودا، ولكن في نطاق ضيق، حيث القرصنة العنكبوتية أشد وقعا وأكثر ملاءمة لطالب العلم الآن.

إذن كان لتلك المراجع مؤلفون وباحثون أضاعوا سنوات طويلة في البحث والتقصي من أجل توفير المادة سهلة، وسلسة لطالب العلم، وأن لأولئك الباحثين حقوقا قطعا تضيع أو يضيع جزء كبير منها من جراء تلك الشقاوة الطلابية التي أتاحت كتبهم بجنيهات قليلة، هي في الحقيقة ثمن الورق الذي صورت عليه المادة.

لم تكن تلك الفكرة، أي فكرة حقوق الغير تخطر على بالي أو بال زملائي أبدا، كان الأمر عاديا جدا، أن توجد كتب أصلية

غالية، وكتب مزورة رخيصة، وتميل كفة الطالب نحو الكتب الرخيصة بسبب شح الإمكانيات. أكثر من ذلك كنا نوجه الشكر الجزيل لأولئك الشباب، الذين يساعدوننا في تلقي القرصنة، وندعو لهم دعوات كثيرة، وإن صادف أن عثر أحد منا على مرجع جديد أصلي، يعيره لهم حتى يقوموا بتصويره، وبيعه.

هذا المعنى القديم، أي معنى النظرة إلى جهد المقرصنين، أجده الآن مختلفا تماما، وأظنني أحس بالكآبة حين أجد أحد كتبي معتقلا في موقع يروج لمجانية الكتب، وأيضا يضع بجرأة شديدة عبارة: حقوق النشر محفوظة للموقع، كأن الموقع هو من ألف الكتاب، وكأنه من أرسله للطباعة ومن وزعه. النظرة الجديدة هي نظرة مؤلف إلى جهد ضائع، جهد التأليف الذي يستغرق أشهرا أو سنوات، وجهد النشر الذي يكلف الناشر والموزع وأصحاب المكتبات التي تعرض الكتب، أموالا بلا شك. ويزداد المغص حين يكون الكتاب جديدا جدا، لم يمض على خروجه إلى القراءة سوى أيام قلائل، والمغص الأكثر إزعاجا حين ينشر المؤلف إعلانا عن قرب صدور كتاب جديد له، فيتلقى رسائل من قراء يطلبون منه أن يقوم بإرسال نسخ إليكترونية لهم بمجرد صدور الكتاب.

القارئ مثل هذا قطعا لا يحس بخطورة ذلك الطرح، وإنه طرح مأساوي، يجعل الكاتب خصوصا ذلك الذي لا يملك حرفة أخرى غير القلم، مضطربا يفكر مئة مرة في جدوى ما يفعله، وما فعله سنوات طويلة.

لا مانع بالطبع من إرسال نسخ ورقية لبعض الأصدقاء ممن يؤمن المؤلف بصداقتهم، وبضرورة الحصول على آرائهم في كتابه، ولكن مجرد إرسال نسخة بي دي اف واحدة لصديق أو قارئ ملح، يجعل الكتاب خارج نطاق الحقوق المشروعة، ويجلسه مضطربا في موقع إليكتروني غير مهتم بأي شيء، سوى إرضاء قارئ مفترض هو لا يعرفه، ولا يعرف إن كانت الخدمة التي يقدمها له يستحقها أم لا؟

هذا ما أستطيع قوله عن مسألة ضياع الحقوق جراء سرقتها بأي شكل، لكن ماذا عن الحقوق التي قد يحصل عليها الكاتب، إن كانت الأمور تجري بطبيعية بحتة، ولا يوجد من يسرق الكتب، وأن النسخ التي تطبع، هي النسخ التي تقرأ؟

هذا السؤال بقدر طرحه بمودة شديدة، وبلا أي غرض آخر سوى الحصول على إجابة معقولة، قد يبدو محرجا أيضا. فالناشر غالبا يبني مؤسسته من تحالف كتاب كثيرين معه، بعضهم من قدامى محاربي الكتابة، وبعضهم من الأجيال الجديدة الصاعدة، وتلك المؤسسة ذات هدف تجاري ربحي، لا دخل للمؤلف فيه إلا ما ندر، هناك عقود تكتب، وتوقيعات تزيل بها تلك العقود، ولا شيء آخر.

نعم هناك من يلتزم بالدفع في نطاق محدود، ومن يلتزم بنسبة العشرة بالمئة التي ترد في كل عقد، ولكن في الغالب، تكون تلك العشرة في المئة مجرد خربشات في العقود، لا يسفر هزها عن سقوط ثمر. أنا أشبهها بتلك الكتابة التي يضعها كثيرون على

جدران الحوائط يعلنون فيها حبهم لفتيات لا يعرفهن أحد، حيث تظل مجرد كتابة لن تأتي بالفتاة المحبوبة إلى أحد أبدا.

أخيرا سأكون أكثر صراحة، وأؤكد أنني لن أغضب مرة أخرى من مقرصن، بعد أن تذكرت استفادتي القديمة، فقط اسمحوا للكتب الجديدة أن تختال قليلا في المكتبات، معززة مكرمة قبل أن تنهش حقوق نشرها.

5

منذ سنوات، كنت حضرت أمسية للروائي إبراهيم إسحق في أحد أندية الخرطوم، أو ربما في مقر بعثة اليونسكو، لا أذكر بالضبط. كانت الأمسية خاصة بمناقشة تجربته التي بدأت أواخر ستينيات القرن الماضي، مرصعة بروايات وقصص غاية في الغرابة والإدهاش، عن بيئة بعيدة، وفيها من الأساطير الكثير، هي بيئة دارفور الممعنة في المحلية، التي لم يكن أحد يعرف عنها الكثير في ذلك الوقت. وكان عليه أن يقرأ شهادة إبداعية عن تلك التجربة، كما جرت العادة في مثل تلك الأمسيات.

كانت الشهادة بعنوان» العرضحالجي» شهادة حكى فيها عن كل ما يخص تجربته من شخوص وحيوانات وأشجار وفقر وغنى، ومعروف أن العرضحالجي حرفة كانت موجودة في مجتمعاتنا ولا تزال، على الرغم من التطور الذي حدث في الدنيا، وهي أن يتولى شخص متعلم كتابة شكوى، أو التماس، أو حتى سرد حالة يأس وعقوق أبناء، لأشخاص آخرين، يروون له، وما عليه سوى التدوين، وإعطاء طلاب العرضحالات تلك الأوراق لتقديمها إلى من يهمه الأمر.

في تلك الشهادة قال إبراهيم، إنه ليس كاتبا على الإطلاق، وإنما عرضحالجي لآل كباشي، يكتب فقط ما يملونه عليه من

دون أي إضافات. إنه هنا يأتي بشخوصه المتخيلين بلا شك، يدمجهم في العالم الحقيقي، ويشركهم في تحمل وزر النصوص الإبداعية التي قد يكونون أوحوا بشيء من تفاصيلها، أو أعاروا الكاتب بعض وقائعها، لكنهم قطعا يظلون شخوصا متخيلين لنصوص هي أيضا متخيلة، وبالطبع كلنا يعرف كيف تُصنع الكتابة، ببساطة، هي شيء من الواقع، وأشياء من الخيال، ولو كان الواقع يكتب كما هو، والقصص يستلمها الكاتب من أفواه الشفاهيين، ويصيغها بطريقة العرضحالات وينشرها، لما كان ثمة إبداع نما وتطور.

أنا عزوت تلك الشهادة إلى نزعة الزهد لدى الإنسان السوداني، الذي يستطيع أن يفعل الكثير، ويأتي ليؤكد أنه لم يفعل شيئا، إنها نزعة نعرفها كلنا، وإن كانت المتغيرات، وما عاناه الشعب السوداني في السنوات الماضية، وما زال يعانيه إلى الآن، قد غير كثيرا من الثوابت، والآن لا تجد شخصا يحب الزهد رغم العطاء، بل تجد شخصا مجبرا على الزهد حتى في لقمة العيش العادية جدا، التي من المفترض أن لا تشكل عبئا كبيرا كهذا.

بعد نهاية الأمسية تحدثت إلى إبراهيم، وكانت المرة الأولى التي أراه فيها، وبالطبع قرأت له وأعرف الكثير عن سيرته الإبداعية والمهنية، حدثته صراحة عن اعتقادي بضرورة عدم التبسط، وإلغاء الإبداع وهناك من قد يصدق أنه راو أو كاتب عرضحالات لشخوصه آل كباشي، وليس كاتبا خلاقا، ضحك في تلك الأمسية، قال إن الناس لم يعودوا مثل الأمس في تقبلهم للمعلومة، وإن

الذي يحضر من مكان بعيد لحضور أمسية أدبية صرفة، بالقطع يعرف أن الكتابة ليست عرضحالات، ولكن واقعا وخيالا، تم دمجهما لصالح الإبداع، وأن ما قلته لا يعدو طريقة ما للتعبير عن شكري لشخوصي، لأنهم أوحوا لي بالكتابة. لذلك سيظل آل كباشي وغيرهم من شخصيات قصصي ورواياتي، شخوصا متخيلين، لكنهم أصدقاء حميمون للواقع الذي انتشلت إيحاء كتابتهم منه، وإن ظن بعض الناس أنهم حقيقيون، فلا بأس، ليس ثمة ضرر.

كان كلاما بسيطا، ومن قرآءتي للمجتمع السوداني في ذلك الوقت، أعرف تماما أن هناك من يهتم بشخوص الروايات، ويتابعهم، ويخترع لهم وجودا حقيقيا، وكنت كتبت مرة عن شخصية سيف الدين، اللص الذي ورد في رواية عرس الزين للطيب صالح، وذكرت كيف طاردت أجهزة الإعلام رجلا في التسعين من قرية كرمكول اسمه سيف الدين، وكيف سألوه عن علاقته بالطيب، وما كتبه عنه، والرجل بفداحة العمر وغياب الذاكرة، يحاول أن يجيب على الأسئلة، يقول نعم، ولا، أو يصمت محاولا أن يتذكر شيئا، ولا يتذكر. ذلك الرجل قطعا ليس سيف الدين عرس الزين، حتى لو كان قد أوحى للطيب بشيء، ولكن أنزل بقوة من النص إلى الواقع كاملا، لمجرد أن اسمه سيف الدين.

في الحقيقة كنت معجبا بإبراهيم إسحق منذ قرأت روايته: «حدث في القرية أيام بداياتي في القراءة» كم هو سحري وواقعي

في الوقت نفسه، وشخوصه أبناء بيئتهم بامتياز، وحتى حواراتهم هي حوارت البيئة، لذلك طالما استغربت من بقائه محليا، بعيدا عن الأضواء والمهرجانات العربية والدولية، التي يتجمع فيها المبدعون وغير المبدعين أيضا، ولأن أعماله كلها منشورة في السودان، سألته مرة إن كان يود أن ينشر عربيا، لننسق ذلك الأمر، فلم يبد متحمسا، كأنما أرضعته المحلية ليس من حليب القصص فقط، ولكن حليب الانتماء أيضا، بدا غير مهتم بقارئ آخر قد يضاف إلى قرائه، وغير مهتم بكتاب ينشر بطريقة أفضل، ودار نشر واسعة الانتشار، قال سأرى، ولم يكمل. وبالطبع لم يحدث شيء، ظللنا نلتقي على المحبة دائما من دون أن نتطرق لذلك الموضوع مرة أخرى.

ومنذ عامين صدر في بريطانيا كتاب اسمه، «كتاب الاختيارات» إنه كتاب تم تجميع نصوص لعدد من الكتاب العرب، وترجمتها للغة الإنكليزية، بواسطة اثنين من المستشرقين، لغرض تدريسي، أو أكاديمي كما أظن، وكان ثمة نص لي ولإبراهيم في الكتاب، عبارة عن فصلين من روايتين، في الحقيقة لم يخطرنا أحد، ولم يكن إبراهيم يعرف بالأمر، وأخبرته وأيضا تقبل الأمر بكثير من الزهد، لم يبدو منتعشا من كون جزء من نصوصه، ذهب إلى لغة أخرى، وأظنه كان سيسعد أكثر لو جاءه طالب جامعي في السودان وأخبره بأنه سيجعل أحد نصوصه موضوعا لرسالة تخرجه.

البقاء محليا في رأيي ليس أمرا قسريا لمن يملك الموهبة

ومؤهلات الانطلاق بعيدا، وإنما خيار من الخيارات، هناك من يجعله خيارا أوحد، وهكذا عاش إبراهيم إسحق ورحل وهو محلي محتفى به عند آل كباشي وغيرهم، إنه كاتب حقيقي، في زمن غير حقيقي.

6

قرأت مرة على صفحة الصديق الشاعر غازي الذيبة في فيسبوك منشورا يقول فيه، إن الوقت حان للتوقف عن الكتابة، لعدم الجدوى من ممارستها.

ما كتبه غازي ليس جديدا في الحياة الإبداعية بلا شك، فمعظم من قُدّر لهم أن يسلكوا هذا الطريق الشائك، فكروا في وقت ما أن يتوقفوا، وأعتقد أن التوقف هنا ليس مرتبطا بالعمر، ولا بعدم النجاح، ولا الإحساس بأن لا أحد يقرأ ما تكتب، بقدر ما هو رغبة في التخلص من عذابات الكتابة المعروفة، عذابات لمها من الحياة المبعثرة من حول المبدع، وقضاء أيام طويلة وربما سنوات، في محاولة ابتكار لغة جيدة لإيصالها إلى المتلقي، ثم معاناة النشر وما بعده من إحباطات كثيرة، تغذي ذلك التفكير السلبي، بأن لا جدوى من كل ذلك.

حقيقة في موضوع هذا التوقف، كنت تابعت مبدعين عديدين توقفوا بالفعل، ولم يعودوا إلى الدرب مرة أخرى، أو توقفوا وعادوا من جديد، أو توقفوا وظلوا متوافرين في الدرب، يطلون بين حين وآخر بهمسة أو جملة أو خاطرة، قد تكون بسيطة، لكن تمنح المتابع فكرة أن ذلك المبدع موجود، ويمكن أن يسير في سكة الإبداع من جديد.

ولأننا جميعا نعرف أن الكتابة في بلداننا ليست مهنة، ولا يمكن

ليّ عنقها لجعلها مهنة غصبا عنها، فالمبدع حر في اتخاذ قرار التوقف أو الاستمرار، بعكس المهن الحقيقية التي يظل فيها الموظف، موظفا حتى يحال إلى التقاعد القسري، ونجده يسعى لتمديد بقائه في الوظيفة، خاصة إن كان لديه من يعولهم، ذلك ببساطة أن الوظيفة لها عائدها حتى لو كان بسيطا، والاستمرار فيها، استمرار للحياة الطبيعية.

وأذكر أنني حين التقيت الشاعر نوري الجراح أول مرة منذ سنوات طويلة، وأهديته رواية لي من أعمال البدايات، سألني هل لديك وسيلة كسب غير الكتابة؟ قلت: نعم، فقال: هذا من حسن حظك. وعلى الرغم من أنها كانت جملة أبعدت ذهني تماما عن التفكير في امتهان الكتابة، إلا أنني لم أحس بالإحباط في ذلك الوقت، ولم اقترب من معناها، إلا بعد سنوات طويلة قضيتها كاتبا، وأحس دائما بأنني أعتمد تماما على وظيفتي، وأنني قد أكون تشردت لو استمررت كاتبا فقط.

هناك من يتحدث عن صناعة الاسم والتاريخ الخاص بالكاتب، لتظل كتابته مطلوبة في الصحف اليومية والمجلات، والمواقع الإلكترونية التي قد تمنح راتبا شهريا، لمجرد ظهور كاتب لامع بمقال صغير فيها. أعتقد أن هذا كان رائجا في السنوات الماضية، لو عدنا خمسة عشر أو عشرين عاما إلى الوراء، حين كانت ثمة نجومية تصنعها الكتابة، وثمة أدباء تحولوا إلى محاور، يدور معهم وحولهم نقاش لا ينتهي، ويدخلون في اشتهاءات تلك الصحف والمجلات التي ذكرتها، ثم المواقع الإلكترونية، بعد أن

أصبحت الإنترنت منافسا راسخا للورق. وأذكر أنني في تسعينيات القرن الماضي، كنت ألتقي كثيرا بالطيب صالح، نجلس معا ساعات طويلة، لم تكن هناك هواتف محمولة، لكن هاتف الفندق الذي يقيم فيه، كان يرن باستمرار، وثمة عروض جيدة للكتابة هنا وهناك ترد عبره، كان الطيب يرفضها بتهذيب كبير، خاصة أنه كان يؤمن بالمزاج الكتابي، أي أن تأتي الكتابة في لحظة مجيئها، من دون مطاردة ولا لي عنق، والمتابع لزاويته الشهيرة في مجلة «المجلة» التي استمرت سنوات طويلة، يجد ذلك النفس القصصي الرائع، حتى في رواية الحوادث اليومية، ووصف المدن، والمقاهي والمطارات، ما يدل على أنها كتابة جاءت من مزاج، وربما هي مكتوبة أصلا، وفقط تنشر في الوقت المطلوب لنشرها، لذلك ليس غريبا أن تحولت إلى كتب أشبه بالروايات، مثل كتاب منسي.

لو نظرنا إلى الاستكتابات الآن، مع التغيرات الكبيرة التي حدثت في العالم، وحتى قبل انتشار فيروس كورونا، الذي بتنا نجعله سببا لكل الخيبات والانكسارت التي حدثت لنا، نعم هو سبب، لكنه سبب أدى إلى تفاقم الضرر أكثر من إحداث الضرر نفسه، مع تلك التغيرات، توقفت كثير من المصادر عن تمويل الزوايا والمقالات اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية، وأظن أن هاجسا كبيرا طرأ على أذهان أصحاب تلك المصادر من صحف ومجلات ومواقع: لماذا يجب أن يكتب أحد؟ لماذا لا تصدر الصحيفة أو المجلة، أو يحرر الموقع الإلكتروني من دون أن يكون فيه مقال لواحد لامع أو غير لامع؟ ماذا يمكن أن يحدث؟

وبالفعل لا شيء حدث، والذي يمكن أن يحدث هنا، أن يفتقد بعض المتابعين مقالات لكاتب يحترمونه، فترة من الزمن، ثم يتضاءل الافتقاد إلى أن يختفي، تماما مثل الموت، نحن دائما نتحدث عن من نفتقده بحرارة، ونبكيه في الأيام وربما الأشهر الأولى لفقده، ثم نعتاد على الفقد، حتى نصل إلى وقت لا نتذكر حتى إن كنا نعرف ذلك الفقيد أم لا؟

في الكتابة الدورية، أو الكتابة الراتبة كما يسمونها، أنا شخصيا نسيت معظم من كانوا يكتبون في صحف ومجلات كنت أتابعها، أنا نفسي نسيت أنني كنت مزدحما ذات يوم بكتابة راتبة هنا وهناك، إلى أن تقلصت المنابر كما ذكرت.

لا أريد أن أشجع نفسي أو المبدعين الذين أحبهم مثل غازي، أن يهجروا ضيم الكتابة، أريد أن يستمر هذا الضيم، إنه بتعبير آخر، دليل على وجودنا كأشخاص نحس ونبكي ونكتئب، ونلتصق بقضايا الإنسان، حتى لو كان الإنسان لا يعرفنا أو يتابعنا، شخصيا فكرت كثيرا في التوقف، وفكرت مرة في إمكانية أن تسن قوانين تحدد عمر الكتابة، وتجعله مطابقا لسن التقاعد في الوظائف الحكومية، وكل ذلك هواجس أتمنى أن تظل هواجس فقط، ولا يمتد عمقها إلى أبعد من ذلك..

7

في الأسئلة التي قد يحملها كثير من القراء، في أذهانهم ويواجهون بها الكاتب في ندوة ما، أو حتى افتراضيا عبر وسائط التواصل الاجتماعي، توجد طروحات مهمة، يستفيد منها الكاتب بكل تأكيد، وقد يسعى بها إلى تطوير نفسه، لمواكبة ذهنية قارئ متابع ومتطور.

بالقدر نفسه توجد أفكار أو جوانب غاية في الإرباك، وبعضنا قد يعتبرها استخفافا بما يكون أنجزه ويعتز بإنجازه له، وبالتالي تحدث ثمة هوة أو قطيعة بين حوار الكاتب والقارئ، الذي دائما ما أنوه إلى أهميته باعتبار القارئ، هو المعني الأول والأخير بالعملية الإبداعية، ولولا وجوده، لن توجد كتابة ولن يكون ثمة إبداع.

من الأسئلة التي قد لا تكون جيدة، حين يعلن أحد المبدعين عن قرب نشر كتاب له، ويضع صورة لغلافه على صفحته في فيسبوك أو تويتر، ويجلس مبتهجا يحصي مرات المحبة التي خاطبته عبر التعليق الطيب على غلاف كتابه، والأمنية الطيبة أيضا بامتلاكه حالما يصدر، ثم فجأة يسأل أحدهم:

متى سيكون متاحا على الإنترنت؟

كلمة متاح هنا لا تعني وجوده على الكيندل أو تطبيقات آبل

وبلاي وغيرها من الوسائل الإلكترونية المعروفة لتسويق الكتاب، وبيعه بمبالغ تعد رمزية بكل تأكيد، للذين لا يملكون وسيلة للوصول للنسخ الورقية، أو الذين يحبون القراءة إلكترونيا، ولكن تعني وجوده مقرصنا في واحد من تلك المواقع السيئة التي ينشئها البعض بلا هدف سوى سرقة مجهود الآخرين. وبعضهم يزعم أنه عمل خيري مثل الذي كتبت عنه من قبل، حين أعلن عن إطلاق موقع لقرصنة الكتب، نوعا من الثواب لروح والده الراحل. قطعا والده الراحل قد يكون معنيا بالدعاء له بالرحمة، وليس وضع كتاب صدر حديثا ولم يستفد منه أي طرف من الأطراف التي ساهمت في إيجاده، في موقع إلكتروني، والإعلان عن سهولة إنزال الكتاب منه.

قلت مرة، لا مشكلة حتى في القرصنة، وإتاحة الكتب مجانا، ولكن لا تسأل مبدعا عن كتاب لم يطلق بعد، وأيضا مطالبته بإرسال رابط التحميل بمجرد أن تتم سرقة الكتاب ووضعه مجانا، إنه سؤال قد يعتبره السائل مشروعا، ولكنه غير مشروع، ويؤثر كثيرا في العلاقة الجيدة بين الكاتب والقارئ، وربما يؤدي إلى انتهاء العلاقة إن كانت هشة، خاصة أن هناك مبدعين، لا يسعون إلى إقامة علاقات وثيقة مع قرائهم، ويعتبرون إبداعهم جسرا إجباريا للصداقة القرائية، ينبغي أن يعبر به القراء بعيدا عنهم.

من الأسئلة الأخرى التي قد تعتبر مخيبة للآمال، حين يخبرك أحدهم بأنه لم يقرأ لك من قبل أي شيء، ويسألك أن تختار له

كتابا من كتبك، وترسل له نسخة إلكترونية، حتى يقرأ لك.

بالرغم من أن القارئ، قد يعتبر ذلك عاديا جدا، حيث أنه يلتقيك ككاتب باستمرار في صفحات التواصل الاجتماعي، ويمكن أن يحاورك في أي شيء، ويعلق على صورتك وابتسامتك التي حاولت أن تبتسمها وأنت تلتقط الصورة، وبعضهم يمكن أن يتعرف إلى نوع النظارة الطبية التي تضعها على وجهك، ويسأل لماذا لا تقتني ماركة ريبال مثلا؟ لكن بالتأكيد الطرح غير عادي، المبدع قطعا يحس بالحرج، وأن المسافة التي يجب أن تكون بين المبدع والمتلقي من أجل أن تستمر المودة القرائية، تزحزحت، أو تكاد تفقد، خاصة أن الإنترنت خففت الكثير من عبء البحث والحصول على المبتغى والمراد في كل نواحي الحياة، ولم يبق فرع حتى لو كان أجدب من تلك الجوانب الحياتية لم تفصل له آلاف الصفحات وتكتب عنه المقالات النافعة والضارة. هو وقت قليل من أجل الحصول على معلومة، كانت في الماضي مطموسة في كتب تقيم على رفوف مكتبات ضخمة مغبرة، أو حتى لا توجد في أي مكان، والذين حصلوا على شهاداتهم العليا في الطب والزراعة والاقتصاد مثلا، في الماضي قبل الثورة الرقمية، يدركون تماما حجم تلك المعاناة التي عانوها، وينظرون إلى أبنائهم الآن، وهم جالسون على الحواسيب لاستخلاص المعلومات، بشيء من الغرابة، ذلك أن أذهانهم ما تزال تربط البحث بالمراجع الورقية الضخمة.

إذن يمكن لمن أراد أن يختار كتابا لواحد لم يقرأ له، أن يذهب

حيث توجد مراجعات القراء، وهي بالآلاف، يقرأ ويعرف، ويختار براحته، يمكنه أيضا أن يلج للمكتبات الإليكترونية المقرصنة التي ذكرتها، من دون إشراك الكاتب في الأمر. وأذكر مرة أن سألتني قارئة عن ترشيح كتاب لي فيه قصة رومانسية، فكتبت لها: 366، سألت: هل هو متاح مجانا على الإنترنت؟ قلت: ربما سألت: هل أكتب 366 باللغة العربية أم الإنكليزية؟

مثل هذا الحوار الذي ذكرته، قد لا يخطر على ذهن القارئة تلك مرة أخرى، لكنه يخطر على ذهني كثيرا بوصفه من الحوارات التي كنت أتمنى لو لم تحدث أبدا.

سؤال أيضا عن العلاقة بين الكاتب ودور النشر التي يتعامل معها، خاصة إن كانت دورا مرموقة، لم يعثر عليها هكذا ببساطة، ولكن بعد سنوات من الكتابة، ومحاولة التطوير. البعض يسألون هذا السؤال الذي يلغي كل مسافة قطعها المبدع لينشر هناك، وكل دقيقة قضاها وهو سجين عالمه ليطور فيه: كيف نشرت لك تلك الدار؟

أنا شخصيا لا أجيب على هذا السؤال، وأعتبره إضافة إلى تطرقه لمسائل خاصة، غير مهم إطلاقا في العلاقة بين القارئ والكاتب.

ماذا يستفيد القارئ حتى لو نشرت لي دار بنجوين أو راندوم هاوس أو بلومزبيري؟

ماذا يضيره لو لم تنشر لي أي دار، وظل مخطوطي حبيسا في

ملف إلكتروني؟

أسئلة كثيرة كما قلت، لكني اخترت ما أتمنى أن لا يطرح من أجل تضافر جاد بين المبدعين، والقراء للارتقاء بعملية الإبداع وتلقيه على حد سواء.

8

في حوار افتراضي، أجري معي، بعد أن تحولت الحوارات الافتراضية عبر الإنترنت بعد العزلة القسرية، وصعوبة السفر والقوانين التي نشطت للحد من انتشار الفيروس اللعين، كورونا، إلى مادة دائمة ومنتشرة، سألني أحد الشباب:

متى يحصل الكاتب على حقوقه المادية من جراء نشر كتبه؟ وهل هي حقوق مجزية؟

السؤال طبعا محترم، ومشروع مع وجود مادة تنتج بجهد كبير، ومتلقف لتلك المادة، يروج لها ويبيعها، غاضا الطرف عن المنتج الأصلي لها، أردت أن أخبر الشاب بأن ذلك موضوع كبير يحتاج الخوض فيه إلى برود كبير، وقمع لنشاط الغضب في النفس، وأدوات أخرى كثيرة، لكنني فضلت أن لا أجيب في وقت السؤال، وآثرت أن أفكر في رحلتي الطويلة مع الكتابة والنشر، وهل كان الكوب مملوءا، أم فارغا، أم نصف مملوء ونصف فارغ؟

في الماضي كان عدد دور النشر قليلا جدا، ثمة دور نشر في القاهرة وبيروت وبغداد، وغيرها من المدن العربية، بعضها أهلي وبعضها تملكه الدولة وتقدم من خلاله سلاسل شبه مجانية دعما للقراءة، وأغلب من كانوا يحررون تلك السلاسل، هم في الأصل أدباء جربوا الطحن المعنوي، حين كانت كتبهم تباع هنا وهناك ولا عائد كبيرا كان أو صغيرا، في زمن كانت القراءة فيه هي

السلوى الوحيدة، ووسيلة الترفيه التي يسهل الحصول عليها، بعكس السينما والمسرح، وكرة القدم، التي كانت كلها وسائل ترفيه، لكن الوصول إلى أماكنها يتطلب جهدا ومالا أكثر.

الذين كانت أسماؤهم موجودة في قوائم دور النشر آنذاك، مبدعون لم يعبروا هكذا مصادفة، إنما تمت غربلتهم، وأقنع أسلوبهم مالكي دور النشر، ومن ثم نشروا لهم واستمروا ينشرون لهم، وما زالت بعض دور النشر الموروثة في العائلات، تنشر لأولئك حتى بعد أن رحلوا، وذابت العقود التي وقعوها، وستستمر المسألة ما دام يوجد كتاب مصفوف، وحبر، وماكينات، ولا أحد يسأل عن حقوق، وإن سأل، لا جواب.

أنا درت بمخطوط روايتي الأولى على أولئك الناشرين المعدودين في مصر آنذاك، دخلت مكاتبهم، وحدثتهم عن الرواية، وكنت في ذلك الوقت صغيرا وطموحا، وعندي يقين بأنني قد أكون أنجزت شيئا مختلفا، تماما مثل اليقين الذي يملكه الشباب المبتدئون هذه الأيام، وعاديا جدا أن تجد شابا لم ينشر كتابا بعد، اسمه ياسوناري كواباتا العربي، أو يوسا الجديد، أو ماركيز الزمن الافريقي، وقرأت مرة نصا بدائيا جدا، لواحد سمى نفسه بول مندو الرواية، على الرغم من أن جان بول بولمندو كان ممثلا فرنسيا لا علاقة له بالرواية من قريب أو بعيد.

أنا لم أنشغل بأي لقب ولا كنت مقتنعا بأن حمل الكاتب حتى لو كان مبدعا لاسم كاتب آخر، تميزا، إنه ذوبان في شخص كاتب ما، وأمنية غير جديرة بالنهوض بها، أن يصبح مثله، صحيح أنني

كنت أحب غابرييل غارسيا ماركيز، أحب خياله غير المحدود، وقدرته على بث الدهشة في أوصالي وأنا أقرأه، حتى في المقالات العادية، لكن في النهاية سعيت لامتلاك خيالي وحدي، ومحاولة إنضاج تجربتي، من دون أن أحس بأنها مهمة، أو سيسعى أحد للتفاعل معها.

في الحقيقة لم أجد تفاعلا جيدا مع من حاورتهم من أصحاب دور النشر، وطبيعي جدا أن الناشر كائن ربحي في النهاية، ويسعى للحصوص على عائد من نشره للكتب، وأعود لأكرر أن العائد هذا خاص بالناشر وحده، بعيدا عن الكاتب، معروف كان أو غير معروف، وكان أن أوصلني أحد الأصدقاء ممن أجلس معهم في مقهى زهرة البستان بالشاعر الراحل كمال عبد الحليم. كان كمال طيبا وكريما ومتعاونا إلى أقصى حد، استلم مخطوطي، وطلب مني التجول في وسط البلد،، نحو ثلاث أو أربع ساعات، والعودة في أول المساء لمعرفة رأيه، وهكذا فعلت، مشيت من مقر دار النشر الذي كان في منطقة ضاجة، نسيت اسمها، لكن قريبة من جسر الجلاء، مشيت حتى الشوارع المألوفة، تفرجت على الألبسة في المحلات، والجمال في الشوارع، والوجوه، تغديت في مطعم شعبي، وعدت أول المساء لأفاجآ به يخبرني بأنني اخترعت شيئا، قال هناك جمل يجب توثيقها كبراءة اختراع، وكانت تلك أفضل عبارات في حقي أسمعها حتى الآن، لقد قبل نشر الرواية، لكن الدار لا تملك إمكانية لنشرها، وحسمت الأمر، بأن رهنت ساعة رولكس، كنت ألبسها آنذاك، لأمول طباعة الكتاب، وتلك قصة ذكرتها مرارا من قبل.

الذي حدث أن كتابي الأول نشر، وبمواصفات غاية في الشعبية، غلاف بسيط، وورق عادي، لكن بكرم كبير، كمال لم يستفد من كتابي ذلك أبدا، استرددت له مصاريف طباعته ولا شيء آخر، وأعتقد أنه لولا ذلك التشجيع الكبير منه، لظل مخطوطي الأول حبيس عزلة بغيضة في درج ما، في مكان ما إلى الآن.

المهم لأجيب على سؤال الحقوق ذلك، المسألة ليست سهلة، خاصة في هذا الزمن، ورغم صعوبة الأمر في الماضي، لكن تستطيع ببعض الصياح، والتذمر، ومخاطبة الناشر بعبارات رعناء، أن تحصل على شيء، بينما في هذا الزمن المفتوح للغاية، والسهل في الوصول للنشر، ودور النشر التي لا يعرف أحد عددها، لا تستطيع الحصول على شيء، أقسى من ذلك أنك ستدفع آلاف الدولارات لتمول النشر ولن تستردها.

الآن توجد معارض كتب في كل بلد، يرتحل إليها الناشرون بلا انقطاع، توجد زوايا للعرض حتى في المولات التجارية، توجد مجموعات قراءة تناقش الكتب في أي بلد، يوجد رواج بلا حد، لكن لا جديد في المألجة الحقوقية، والذي سيحصل على بعض الحقوق هو ليس الكاتب المبتدئ، ولا شبه المبتدئ، ولا كل الراسخين في الكتابة، الذي سيحصل على حقوق هو كاتب محظوظ فقط، أراد الناشر أن يعطيه حقوقه.

إذن للذي يريد أن يستمر كاتبا، عليه أن يصمد في وجه شح المصادر المالية، عليه أن يتمسك بمهنته حتى لو كانت مهنة بسيطة، وتأتي بعائد بسيط، إنها في النهاية هي الحقوق التي

سيحصل عليها آخر كل شهر. إنها النصف الممتلئ من الكوب الذي عليه التمسك بمنظره.

9

كنت ذكرت كثيرا، أنني أهتم بالقراء، أشاركهم آراءهم في كثير من الأحيان، وأرد على الأسئلة التي تردني منهم سواء أن كان ذلك مباشرة في لقاء عادي أو ندوة، أو عبر البريد الإلكتروني، بكل محبة.

بالطبع ليس كل الأسئلة التي ترد، لأن السؤال الذي يطرح في العادة، يبين إن كان القارئ مهتما فعلا، ولديه فضول لمعرفة المزيد، أم مجرد عابر باللقاءات، يجلس بلا ذهن، ويسأل في أشياء لا علاقة لها بالتجارب الكتابية، وأحيانا مستفزة، ويخرج وقد امتلأ غبطة، أنه أغاظ بعض الناس، وما زلت أذكر قارئا في أحد معارض الكتب، سألني إن كنت تأثرت بكاتب معين، وبحثت في ذهني ولم أعثر على الاسم الذي ذكره، وأجبت بأنني لم أقرأ له، وعرفت في ما بعد أنه لا يوجد كاتب بذلك الاسم، إنه مجرد استفزاز لا ينبغي أن يحدث، تماما مثلما يحدث في برامج البث المباشر في التلفزيون، حيث يتلقى مقدموها أنماطا من الكلام، معظمه غير لائق بتكونه على اللسان حتى.

السؤال هذه المرة، بدا من قارئ يعرف التجارب الكتابية، ويذكر بعضها بكل احترام، مثل تجربة ميلان كونديرا، التي نعرفها جيدا، وتجربة الياباني ياسوناري كواباتا التي نعرفها أيضا عبر روايات قليلة، ومجموعة من القصص القصيرة. يقول:

أليس من الضروري للكاتب أن يتوقف فترة عن الكتابة، يراجع فيها ما قدمه كله، قبل أن يعود إلى قرائه مرة أخرى؟

سؤال جيد، والكاتب بالقطع ليس ماكينة إنتاج، تعمل بالكهرباء، لكنه حصيلة تجارب ومعارف وأفكار كثيرة، تأتي في أوقات معينة، وتلزمه بالجلوس والكتابة، وقد تأتي تلك الأمواج يوميا، وقد تأتي مرة في العام، أو مرة كل عامين أو ثلاثة، أيضا قد تأتي مرة واحدة في العمر، ليكتب بها رواية واحدة ويصمت، هذا إن استبعدنا قصدية الكتابة، وهي عادة جديدة على مجتمع الكتابة، يقصد فيها الناس أن يكتبوا قصائد وروايات وقصصا، ومسرحيات، من دون حتى أن يلموا بما كتبه آخرون سبقوهم بسنوات طويلة. أي عادة دخيلة، مع قطيعة كبرى مع التراث الكتابي.

إذن تلك الموجات المعرفية التي تحمل الأفكار، هي ما يولد الكتابة، ما يجعل واحدا ينتظم في مشروعه وآخر لا يستطيع الانتظام بسبب انعدام ما يدفعه، ولذلك نجد كتابا ينشرون باستمرار، ويتهمون بغزارة الإنتاج وأنه يضعف الكيف لديهم، ولا أحد ممن يقولون ذلك مستعدا لإيجاد ذلك الضعف الكيفي، وطرح حلول للتغلب عليه، إنه مجرد كلام يسد ثغرات المقالات، التي تكتب في هذا الشأن.

أيضا يتهم آخرون بقلة الإنتاج مما يبعدهم عن أذهان القراءة، وقد يستبدلهم القارئ بكتاب آخرين وهذا أيضا تكملة للمقالات التي دائما ما تقف حائرة، كيف تمتلئ وكل المواضيع مطروقة،

والأفكار الصحافية لدى أحدهم هي نفسها لدى آخر؟

وبالفعل حين تكتب في أي شيء، تجد هناك ما كتب عنه بإسهاب، والآن في موضوع كورونا وروايات الوباء، ستجد عشرات المقالات التي أشارت لروايات الوباء، ليس في العربية فقط، ولكن حتى بالإنكليزية والفرنسية والإسبانية، والملفت هنا، أن لا أحد من الذين تصدوا لذلك الموضوع، تطرق بالتحليل الحقيقي لواحدة من تلك الروايات، إنها حكاية واحدة، عن الطاعون، وزمن الكوليرا، وإيبولا، وعمى ساراماجو، تنتقل من قلم إلى قلم، ومن لغة إلى لغة، ولا شيء آخر.

أعود لموضوع تقييم التجربة الذاتية، وهو أمر إن حدث ليس سيئا، أي أن الكاتب صاحب الرواية السنوية، أو نصف السنوية، إن استطاع التغلب على موجات الأفكار التي تضغطه ليكتب وحصل على إجازة قضاها خارج مكتبه، لا بأس، وأي وظيفة بحاجة لفترة من التوقف عن ممارستها، من أجل العودة إليها بشوق، لكن هل الكتابة وظيفة؟

نعم الكتابة اليومية التي ينتهجها البعض خاصة في الغرب، وظيفة حقيقية، لأن فيها متعة ممارسة عمل تحبه، وأيضا فيها ساعات تجلسها خلف مكتب، وكومبيوتر مفتوح يتلقى الأفكار، وفي النهاية راتب جيد، يحصد من العمل المنجز، يستطيع الكاتب به أن يعيش ويسافر ويجيء، ويتأنق، ويشتهي أشياء، يمكن أن يقتنيها ولا تظل أشياء مشتهاة فقط.

لا بأس أن يقرأ شيئا من كتبه القديمة، والجديدة أيضا، الكاتب أو المبدع عموما يستطيع أن يدرك إن كان نصه ما يزال مؤثرا أم لا؟ ويستطيع بكل تأكيد أن يرى الثغرات التي أغفل عن ملئها في زمن ما، ويستطيع أن يملأها الآن، إن عاد به الزمن إلى عام كتابته ذلك النص، بسبب ما اكتسبه من خبرات.

وكنت من الذين غامروا بإعادة كتابة نص من أيام البدايات، كما ذكرت قبلا، وكتبت ذلك في الصفحة الأولى للكتاب مما خلق عداء كبيرا له من جانب القراء، حتى قبل الاطلاع عليه، ذلك أن معظم من اقتنى تلك الرواية كما أعتقد، لم يكن مؤهلا لمشاركة كاتب مغامرة قام بها.

في المقابل، غامرت مرة أخرى بإعادة كتابة نص آخر، من البدايات أيضا، وصدر في طبعة محدودة في صورته الأولى، ولم أذكر ذلك في المقدمة، ومضى النص أكثر من عادي، حصل على إشادات كنت موقنا أنه لم يكن ليحصل عليها، لو ذكرت في البداية، أنه مغامرة إعادة كتابة عمل من زمن البدايات.

التوقف عن الكتابة في إجازة ليس ضارا بالتأكيد، وقد لا يستفيد منه الكاتب لأن تجربته مضت وتمضي بخيرها وشرها، وأيضا قد لا يستفيد منه القارئ المداوم على قراءة كاتب ما، فقط، يعطي حيوية جديدة للصبر الذي يجلس به أحدهم ليكتب.

10

تطالعنا الأخبار عن اكتشاف لقاحات عدة لفيروس كورونا، الذي يشغل الدنيا منذ عام، مستهترا، وعنيفا، وسيئ السلوك إلى أقصى حد. وكانت شركات الأدوية العملاقة، قد أجلت مشاريع دوائية كثيرة في طور النمو، وانشغلت بمرض كورونا، وأذكر أن ثمة أبحاث عن علاج لمرض التوحد، ذلك المرض الكئيب الذي يفتك بالطفولة، بصورة هستيرية كانت ستتم هذا العام، لكن ذلك لم يحدث وأصبح 2020 هو عام كورونا وحده.

أعتقد إن اعتمدت تلك اللقاحات بالفعل، وأنتجت بكميات تكفي لحقن الكرة الأرضية، وتجنيب الكوكب مزيدا من الخسائر، سنتحدث عن إنجاز كبير، يحدث بموجبه التفات حقيقي للإنسان وقيمته التي هزأ منها كوفيد 19، بدءا من إخفاء الملامح خلف قناع الوجه أو الكمامة، وانتهاء بسكنى القبور، التي باتت السكنى الأكثر انتشارا في عدد من الدول، مثل أمريكا والبرازيل والهند.

كانت أسئلة كثيرة تدور عن إمكانية استخدام تلك الهسيتريا المرضية، في أعمال إبداعية، أي أن نقصد كتابة روايات وقصص تحكي جزءا من ما عشناه وقد نعيشه لفترة أخرى، حتى إن انحسر المرض، وعاد شيء من الحياة إلى ما كان عليه من قبل؟

الأسئلة تلح، وفي كل مرة تتاح لنا فرص للحديث في منبر ما، يأتي من يسأل: هل سيترك مرض عالمي مثل كوفيد 19، هكذا بلا رواية ضخمة، ترصد تداعياته؟

أظنني أجبت عن هذه التساؤلات مرة، من وجهة نظري طبعا، بأن الكتابة الإبداعية في كثير من نشاطها، تؤرخ للأحداث الكبرى والمهمة، بطريقة أفضل كثيرا من التاريخ، لأن التاريخ مادة علمية تكتب بأدوات لا دخل لها بالمشاعر، أو الحالات النفسية والمزاجية لمن ترصدهم، أو ترصد تفاعلهم مع الأحداث، بينما الرواية بالتحديد، ملحمة إنسانية، يمكن أن تمسك بالحقيقي، وتقرنه باللاحقيقي، وتتوغل مفرداتها إلى الداخل الإنساني، والقارئ حينها يحس بالمتعة أولا، وفي الوقت نفسه، يلم بحقائق، كتبها التاريخ بطريقته، وكان من الصعب الإلمام بها.

هذا رأي بالطبع، وهناك من يرى غير ذلك، لكن لو عدنا لأحداث مهمة مرت بالبشرية، مثل المجاعات، والحروب والفيضانات والأعاصير، والثورات الغاضبة، لعثرنا على ما رواه التاريخ علميا ومقتضبا، تمت روايته إبداعيا، بطريقة ملهمة. لننظر إلى رواية مثل «المريض الإنكليزي» التي استوحاها الكاتب مايكل أوبتانجي، من أجواء الحرب العالمية الثانية، ورصدت الوحشي والإنساني في تلك الحرب، بمعنى أنها أخذت من التاريخ، ولم تغفل الإحساس الإنساني أيضا، في قصة الحب الملتحقة بالرواية، ولتصبح المعلومة المستخلصة من رواية كهذه، ثرية، وتصل لأبعد مستوى من التذوق، بعيدا عن الكتابة المدرسية،

وأيضا تحصل على جوائز نظير ما قدمته.

نحن في البلاد العربية كانت عندنا ثورات في السنوات العشر الأخيرة، بعضها أطاح بأنظمة متسلطة، وبعضها تمزق أو اغتيلت طموحاته، ولم يحدث التغيير الذي كان لا بد أن يحدث، وحتى الثورات التي نجحت بالفعل، لم يستطع بعضها الصمود كثيرا أمام وحشية الطرح الاستغلالي، والهمجي للذين لا يريدون أي تغيير في الدنيا، وعادت الأمور إلى نهجها المتوارث.

إذن هل يمكننا ترك حوادث مهمة كهذه، سواء كانت مكتملة النتائج أو غير مكتملة، تمر من دون أن نتناولها إبداعيا؟ بالطبع لا، حوادث كهذه، هي ملهم أساسي للكتابة، خاصة لكتابة الجيل الذي عاصر ما قبلها، وعاش داخلها، ويعيش ما بعدها، وأذكر في بداية ثورات الربيع العربي أن ناديت بضرورة الكتابة لكن بعدم الاستعجال، أي عدم كتابة أعمال إبداعية مصنوعة بسرعة من أجل البيزنس، والتروي لنرى نتائج سلبية أو إيجابية ثم نكتب، لكن بالطبع كتبت الكثير من الروايات، بعضها كتب بلا أفق ولا رؤية، وبعضها كتب بتأن ونضوج، والخلاصة أننا حصلنا على ما يهمنا من الناحية الإبداعية، وهي المراجع التي قد نعود إليها حين نتحدث عن واحدة من تلك الثورات، وأقصد بالمراجع هنا، التفاعل الإنساني العريض.

مسألة أخرى شغلتنا فترة في العالم العربي أيضا، وهي مسألة التطرف و«داعش» والتخريب الذي طال بلادا ومدنا زاخرة وذات حضارات إنسانية موغلة في القدم، من جراء ذلك المرض

الهستيري المتطرف، وكلنا شاهدنا إبادة متاحف كانت تحكي سيرا زاخرة، والقضاء على تماثيل شعراء وعلماء، كان وجودها مهما من أجل تذكر الأفضل في الحياة البشرية، ومحاولة اتباعه، أيضا السبي وانتهاك المرأة، وأشياء أخرى عديدة..

هذه مسألة لم يكن من السهل تجاوزها إبداعيا، قطعا التاريخ سيكتبها، لكن الإبداع يستطيع تعميمها، وإيصالها لأي مكان، وقد كتبت بالفعل روايات عديدة عن تلك الهستيريا وتداعياتها، وأيضا بعضها كان تجاريا محضا، والبعض الآخر كان أعمالا عظيمة تستحق أن تبقى.

أعود لكورونا ومشاكله، وأؤكد أن فيروسا وقحا كهذا وما أحدثه من خسائر مادية ونفسية في الدنيا، لا يمكن أن يفلت من الكتابة الإبداعية بأي حال من الأحوال، إنه مواضيع كثيرة جدا وليس موضوعا واحدا، وقد ذكرت في حوار قبل مدة قصيرة، إن الإبداع حين يتناول كورونا، لا بد أن يكون متفوقا على المتلقي المفترض للعمل الإبداعي، لأن ما يعرفه المتلقي قد يفوق ما يعرفه الكاتب نفسه، أو يضاهيه، لذلك لن تعطي أحدا معلومة غائبة عنه، فقط يمكنك إعطاءه رؤيتك الخاصة، والتفاعل الإنساني الذي تقترحه.

قرأت تعليقات كثيرة عن قرارات كثير من الدول إلغاء معارض الكتب فيها هذا العام 2021 مواكبة للاحترازات العديدة التي تتبع، للحد من انتشار وباء كوفيد-19 الذي ما زال يعربد بضراوة، ويجدد طاقته للفتك، من دون أي نية في التوقف كما يبدو. ويعتبر ذلك غريبا فعلا، لأن الفيروسات في الغالب تهمد لفترة قد تطول وقد تقصر، كما يحدث في فيروسات الانفلونزا الموسمية، وكما حدث لفيروس إيبولا الذي ظل خامدا قرابة الأربعين عاما قبل أن ينشط من جديد.

كثير من الكتاب غير راضين عن إغلاق معارض الكتب، ومعروف أن تلك المعارض الموسمية، في كل البلاد، تشكل أدوات جذب كبيرة للكتاب والكتابة، هي مواقع للقاء المبدعين ببعضهم، وبقرائهم وبالناشرين الذين يأتون من كل مكان لتسويق بضائعهم المعرفية، وأيضا مواسم لإطلاق الإصدارات الجديدة، والاحتفال بها بما يليق. وممكن جدا أن تكون ذات جذب سياحي، خاصة في تلك البلاد التي تهتم بمظهر المعرض، ومرافقه، ويمكن للزائر أن يعثر فيها بجانب الكتب على وسائل ترفيه أخرى، ومطاعم وكافتيريات، وقاعات للمحاضرات، تقدم المعرفة في كل شيء.

وأظن أن معارض الكتب بمواصفاتها تلك أصبحت، في

السنوات الأخيرة، جزءا من العام، أي باتت نشاطا قائما في زمن مقتطع في العام، يعرف الناس موعده منذ وقت طويل، ويجند له المتطوعون لإنجاحه، وأيضا ترصد له ميزانيات كبرى، حتى ينجز على أكمل وجه.

وأظن أن معرض الدوحة للكتاب في دورته الأخيرة، كانون الثاني/ يناير الماضي، كان من الفخامة والجدية والذوق في معاملة الكتاب وزوار الكتاب، نموذجا متفردا. كما أنني زرت معرض القاهرة منذ عامين في مقره الجديد، وكان سوقا سياحيا مهما، ارتقى أيضا بمظهر معارض الكتب، وكان فيه جمهور كبير جدا، ربما أكبر من الجمهور الذي نراه في مدن الملاهي والمتنزهات العائلية.

لن أقول إن تلك الجماهير جاءت لتتسوق من الكتب، ومعروف أن الأوضاع الاقتصادية في بلداننا لا تسمح بتسوق الكتب إلا بمقدار، ولكن على الأقل أعطى ذلك معرض الكتاب زخما كبيرا، وارتقى به إلى مرتبة الجماهيرية، ومؤكد حتى غير القراء ستلفت أنظارهم عناوين ما، وربما يقتنونها.

أيضا كنت العام الماضي في معرض الكويت، ووقفت في ركن دار ذات السلاسل الكويتية الكبيرة، المزدحم بالكتب في أناقة، وقفت للتوقيع على كتاب لي صدر هناك، وانتبهت إلى أن كثيرا من المبدعين يقفون في أركان متناثرة في المعرض، وأمام كل مبدع قراء ينتظرون دورهم في التوقيع. هناك ابتسامات كثيرة، ومشاعر متبادلة بين الكاتب وكتابه، والكاتب وجمهوره، والجمهور والكتاب الذي يوقعه الكاتب.

معروف أيضا أن معارض مثل الرياض والشارقة وأبو ظبي والجزائر ومسقط، لها كاريزما خاصة، ويسافر إليها المبدعون حتى لو لم يكونوا مشاركين في نشاط هناك أو وصلوا إلى قوائم جوائز ستعلن نتائجها في تلك المعارض، إضافة إلى حرص الناشرين على حضورها. وعموما في رأيي، فإن معارض الكتب بغض النظر عن سلبيات ربما توجد فيها، فهي أهم من المكتبات في تلقي الكتاب وإيصاله للجمور الذي ينتظره والذي قد لا يكون ينتظره لكن يعثر عليه بسهولة.

في المكتبات تركد الكتب، وتتغبر، وتجد دائما قسم القرطاسية والكومبيوتر والهاتف الجوال وملحقاته في مكتبة مثل جرير وفيرجن، رائجا جدا. الكل يجرب ويسأل، ويقتنع ويخرج محملا بما اشتراه، بينما في قسم الكتب، الذي يمتلئ أيضا بكل أنواع المعارف، لن تعثر سوى على شخصين على الأكثر، يتسكعان بين الرفوف، ويقلبان الروايات والمجموعات الشعرية، ويلقيان بنظرات غير مهمة على لافتة "صدر حديثا" ثم يتركان المكان في النهاية، وربما ينضمان للزحام، في الأقسام الأخرى.

في معارض الكتب لا غبار سيتراكم، ولا نظرات محدودة سترمق بها الكتب، إنه زخم واع، مستمر لعشرة أيام أو أكثر قليلا، ويحصل فيه الكتاب على هيبته ومكانته.

لنتساءل إذن ونعرف أن معرض الشارقة لم يلغ، وفتح أبوابه للناشرين والجمهور، باحترازات كثيرة كما أعلن، والملفت للنظر أن الناشرين أو المبدعين كأنهم لم يصدقوا أن هناك معرضا

مفتوحا، فكثرت الإعلانات التي تروج للكتب وأجنحة دور النشر هناك. ففي كل وسائل التواصل الاجتماعي المعروفة ستعثر على إعلانات مثل: جناحنا في معرض الشارقة رقم كذا، كتابي متوفر في معرض الشارقة، سأوقع كتابي يوم كذا في معرض الشارقة.

إنه الحنين إلى الزخم الموسمي كما ذكرت، الحنين إلى الصحبة الطيبة، والسوق السريعة، واللقاء والوداع للسلعة التي يحبها بعضنا حبا عظيما. وشخصيا من المخلصين لهذه السلعة لدرجة أنني أنسى أحيانا أن لدي كتابا ما، فأعاود شراءه من جديد. وعثرت مؤخرا أثناء تنظيمي لمكتبتي على نسخ مكررة لبعض الكتب، مثل رواية "الحب في زمن الكوليرا" لماركيز، التي يبدو أنني أدمنت شراءها من شدة عشقي لها.

نتساءل: هل فعلا معارض الكتب ضرورة؟

نعم، معارض الكتب ضرورة، وبقليل من الشفافية يجب أن تعامل مثل المولات التجارية، ومحلات السوبر ماركت الكبيرة. ولأنها موسمية، والمعرض فيها لا يدوم إلا أياما قليلة، فيجب أن تستمر جهود دعمها، وتفعل لها أدوات الاحتراز من كورونا كلها، ولو دخلنا أي مول تجاري، في أي بلد، سنعثر على الناس يتسوقون في تباعد، لابسين الكمامات الواقية، والواحد تقاس حرارته قبل الدخول إلى السوق التجارية.

سيرى البعض أن التباعد غير منطقي في أجنحة الكتب الضيقة في العادة، لكن لنقل إن مساحات أوسع ستمنح، وعددا قليلا

سيكون موجودا في أي دار نشر، وأعتقد أن من يأتي للمعرض بكل هذه الاحترازات سيأتي مشتريا للسلعة، وباحثا عن الجديد فيها، لا متنزها فقط.

12

في حوار افتراضي معي، في منتدى شومان الثقافي، سألني الروائي جلال برجس، الذي كان يدير الحوار: بما أنك أحد كتاب الواقعية السحرية، التي ابتكرها اللاتينيون، هل تظن أنها أسلوب مناسب للتعبير الأدبي عما يجري في العالم اليوم؟

في الحقيقة أنا أكتب منذ زمن طويل بطريقة فيها مزج بين الواقع والخيال، مع ميل لاستخدام اللغة بطريقة تبدو لي شخصيا مناسبة، وتبدو للبعض مزعجة، وقرأت في مراجعات عديدة كتبها آخرون عن كتبي أن هناك استعراضا لغويا من الكاتب، وغموضا في تناوله للأحداث. ولم يؤثر ذلك في شيء، ونعرف جميعا أن القراءة أنماط وأذواق مثلما هي الكتابة، وأقول دائما أن أي كاتب مهما كانت رداءة أسلوبه، يعثر في النهاية على قارئه الذي يصرخ طربا عند قراءة جملة من جمله، وأي كاتب مهما كان جمال أسلوبه، وتفانيه في محاولات إحداث الدهشة لمن يقرأه، سيجد من ينظر إلى كتابته بغيظ، ويمكن أن يكتب في منتديات القراء تساؤلا كلاسيكيا، يكتبه كثيرون بكل سهولة: كيف أصبح هذا كاتبا؟

أعود لمسألة الواقعية السحرية، ولا أنكر أنها المدرسة الكتابية التي تأثرت بها في بداياتي، حين كنت أقرأ باندهاش كل حرف كتبه ماركيز، وجورجي أمادو، وبورخيس، وبلغ عشقي لماركيز

أنني امتلكت كل الطبعات العربية التي صدرت من رواية "مئة عام من العزلة" و"الحب في زمن الكوليرا".

كان يعجبني في كتابة أولئك اللاتينيين عدم اعترافهم بحدود ما يمكن تخيله، كل شيء ممكن حدوثه، حتى تلك الأشياء التي لا ترد إلى ذهن أحد، بسبب استحالتها، يمكن أن ترد إلى ذهن أي كاتب منهم. وبناء على تلك الإمكانيات الكتابية، سيعود الغجري ملكيادس من الموت بكل بساطة ليحكي ما حدث، وسيعثر أهل بلدة كاريبية على ملاك مسكين مبلل بالمطر، وستجر الجدة حفيدتها إيرنديرا عبر المدن والقرى في رحلة سداد للدين يستخدم فيها الجسد الطفل بكل رعونة.

في الحقيقة أنا لم أكتب كل ذلك، لكن كتبت أشياء غريبة ترد في لحم السرد الواقعي، أشياء لها علاقة بالمكان الذي أكتب عنه، ولم أصنف نفسي من ضمن تيار الواقعية السحرية أبدا. إنها أساطير ربما، قصائد ضالة، ربما أشياء ممكن حدوثها في بيئة أفريقية وعربية، ذات ثقافة خاصة. وكنت عملت في بداية التسعينيات، من القرن الماضي، في الحدود السودانية – الإرترية، وسمعت وشاهدت هناك أشياء غريبة جدا، وثقت بعضها في كتابي "سيرة الوجع". أيضا استوحيت شخصيات كثيرة من ذلك المكان، ولم أحس بأنني أكتب واقعية سحرية، وربما أسميها واقعية ممتزجة بالغرائبية، وهذه أخف وطأة من السحرية، لأن الواقع هناك في الحقيقة، يبدو عاديا جدا لدى الناس، لا ينتبهون لسحريته أبدا.

في تلك المناطق يوجد إعصار موسمي، يستلم المكان حوالي ثلاثة أشهر في العام، إنه غبار مجنون جدا، يحجب الرؤية تماما، ولا تستطيع من ضراوته أن ترى حتى يدك إن مددتها أمامك. لكن ذلك لا يلفت نظر أحد أبدا، وحين يسقط أحد الغرباء مثلنا في حفرة عميقة، لأنه لا يرى أمامه، سيجد من ينتشله منها ويسأله بكل تلقائية: كيف سقطت في الحفرة؟ هل أنت أعمى؟

حين تقرأ رواية "أشياء تتداعى" للعظيم تشينوا أشيبي، وهي إحدى الروايات التي تأثرت بها في بداياتي، وما زلت محتفيا بها وأرشحها لكل من لم يقرأها ويسألني عن ترشيح كتاب، ستجد غرائب كثيرة لن تخطر على بالك. هذه الرواية كتبت كما أعتقد في خمسينيات القرن الماضي، أي قبل أن يومض بريق السحرية اللاتينية، ولا تصنف سوى أنها أدب أفريقي خالص، استوحى تفاصيله من البيئة.

في هذه الرواية، يستدعى المحليون أجدادهم الذين ماتوا منذ زمن بعيد، حين يحتدم الجدل في أمر ما، أو يستوجب الأمر حلا لمعضلة أعجزتهم، وتجد بكل سهولة أن الأجداد يعودون، يخاطبون التجمعات، ويزودون الناس بالحل ويعودون إلى قبورهم.

إنها ليست واقعية سحرية، بقدر ما هي زخم أسطوري، خيالي، يمنح الكتابة بعدا جيدا ومتعة مطلوبة. وكما قلت ليس لكل القراء بالطبع، لأنني رشحت مرة هذه الرواية لقارئ صديق، وعاد ليبدي استغرابه من إعجابي بها، معتبرا إياها من الأدب

الرديء. وأيضا حدث هذا الأمر مع رواية "قلم النجار" للإسباني مانويل ريفاس التي دائما ما أردد أنها الرواية التي تمنيت لو كنت كتبتها.

بالنسبة للزمن الحالي الذي يعتبر البعض أن الواقع فيه تفوق على الخيال بمراحل، وأن استخدام الطرق السحرية في الكتابة لن يضيف جديدا، أو الكتابة بالطريقة السحرية غير صالحة فيه، أستطيع أن أقول أن هذا غير صحيح أبدا. وهذا رأي شخصي طبعا، فما دام هناك واقع متخم بما كان خيالا في ما مضى، وتحقق، نستطيع أن نسبقه أيضا بخيال أقوى، وممكن جدا أن نطوع هذا الواقع المر، ليصبح بسحره الجديد مادة خصبة لأعمال كتابية، قد تكون مبهجة.

نحن الآن في زمن كورونا، هذا الوباء الذي استغرق زمنا أطول عادة من الزمن الذي تستغرقه الأوبئة في تجولها في حياة الناس، مما خلق واقعا بغيضا، تنحى فيه أبسط شيء، وهو عناق الأحبة والأصدقاء، أو على الأقل مصافحتهم بالأيدي. والنشرات المحذرة تنوه دائما بضرورة التباعد الاجتماعي، حتى في معالجة الناس من أمراضهم الروتينية، دخلت مادة جديدة هي التليمديسن، أي طب الاتصال، لها كورسات وشهادات، وهذه كما قلت أشياء لم تكن لتحدث، وبما أنها حدثت، نستطيع استخدامها أدبيا.

أخيرا كل كتابة، أو كل مدرسة كتابية لها مزاياها ومحبوها، ولها مآزقها، وقراء لا يطيقون الاقتراب منها.

13

مؤكد تابعنا جميعا بقلق كبير، أخبار تلك الفيضانات المدمرة التي لحقت بالسودان، في غضبة كبيرة لنهر النيل، وفي زمن يحتله فيروس كورونا، ويقبض على كل عناصر الحياة فيه، ليس في السودان وحده، ولكن في العالم كله.

الفيضانات ليست أمرا جديدا على السودان، والأوبئة أيضا ليست أمرا جديدا، ومنذ وعينا، نرى أو نسمع عن قرى دكتها المياه، أو بيوت حتى في العاصمة، والأقاليم القريبة من العاصة، أذابتها الأمطار التي تهطل أحيانا بغزارة تفوق إمكانية استيعابها أو التعامل معها. الأوبئة أيضا تأتي، الكوليرا تأتي، والنزلات المعوية العادية تأتي بشكل شرس أحيانا، والملاريا مرض مقيم هناك، لا يبرح مكانه قط، وتنشأ منها سلالات تقاوم العلاج العادي، وقد لا تستجيب لأي علاج يتم استخدامه. وحين كنت أعمل في السودان، كنت في بحث دائم مع زملائي عن عقارات بديلة، ربما نهزم بها ذلك المرض.

لكن المسألة هذه المرة مختلفة، فالفيضان لا يشبه تلك التي سبقته، ولا يقترب منها، وقيل لم يشهد النيل فيضانا غاضبا شبيها به، إلا منذ مئة عام، والصور التي تنشر بشكل يومي في الإنترنت، وتعرض على شبكات التلفزيون، توضح كم الخسائر التي حدثت في البيوت والممتلكات، والأرواح أيضا حيث غرق

كثيرون، وتشرد كثيرون، وتحولت مناطق عديدة إلى بقع كارثية، تستوجب حلولا عاجلة، مثل نصب خيام للإيواء، وتوفير الأكل والشرب والعلاج الذي لا بد منه لأمراض معروفة تتبع الكوارث، وتختبئ في أحشاء المآسي، حتى إذا ما خفت، خرجت تلك الأمراض للعلن.

كان محزنا جدا، أن ترى رجلا يوشك على الغرق، حاملا طفلا على كتفيه، امرأة تجلس على سرير من الحبال مع أطفالها، بالقرب من أطلال بيت، ربما كان بسيطا، لكنه كان مأوى، وقد تشاهد كثيرين، شبه غارقين، لكنهم يغنون، كأنما المأساة، فاقت حجم الحزن، وحولته إلى أغنية، وذلك أمر يحدث، في مثل تلك الظروف.

بالطبع هب الناس لنجدة البلاد، نصبت منصات للتبرع في كل مكان، وأرسلت المعونات العاجلة، والخيام، وأدوات إنعاش الحياة، وهناك دول شقيقة ساندت بجدارة، وجعلت من الممكن أن يعود ثمة شيء مما فقد إلى سابق عهده.

أردت هنا أن أسأل:

هل هذا نتاج لغضبة الطبيعة فعلا، حين يثور النيل كل تلك الثورة، ويتمدد خارج مجراه، ملغيا لعهود الجيرة مع جيرانه الأوفياء؟ أم هو جزء من منظومة الظلام التي كنا نعيش فيها سنوات طويلة، ولم يستطع الفجر الذي ولد مع ثورة كانون الأول/ ديسمبر المجيدة، أن يمحوها تماما حتى الآن؟

في بحثي عن معنى بسيط لمصطلح: البنية التحتية، وجدت أنها تعرف بأي شيء يلزم للحياة اليومية، أي أي شيء يستخدم بشكل تلقائي يوميا، من دون التفكير في غيابه، أو زواله.

ولو طبقنا هذا التعريف على ما نجده في السودان، لما عثرنا على شيء من المفترض أنه يومي، موجود بشكل يومي فعلا، فالكهرباء مثلا فكرة يومية، لكنها فعليا ليست كذلك، الماء، الخبز، الشوارع السلسة، الخالية من الحفر والقاذورات، المستشفيات النظيفة، غرف العناية المركزة، وهكذا آلاف الأشياء الداخلة في تعريف البنية التحتية. كلها أفكار نظرية لكن لا وجود فعليا لها، وهنا بالتحديد نتساءل ذلك السؤال العريض:

هل كنا فعلا تحت مسؤولية حكومة حقيقية، من واجباتها، دعم سلاسة البنية التحتية، وتحويل الأفكار النظرية إلى حقائق، والعض عليها، أم كنا تحت مسؤولية سراب؟ خاصة أن البلاد كانت مليئة بالخيرات، قبل أن تجفف؟

الإجابة معروفة طبعا، ولو كان ثمة نشاط تنموي طيلة تلك الثلاثين عاما المظلمة، لما أزالت الأمطار بيتا واحدا، ولما أغرق النيل قرى، كان يمكن أن تكون مبانيها مسلحة ضد الغضب، ولا أضاعت الشوارع الغاصة بالحفر أرواحا طيبة، ولا حدثت أشياء كثيرة، ما كان لها أن تحدث.

بعض الناس يقولون إن الإقامة بالقرب من النهر سبب كبير لضياع أرواح وممتلكات من يقيمون، وعلى الناس الابتعاد، وهنا

نذكر بأن النهر واهب حياة كبير، والناس طالما أقاموا بجانبه في وئام، وأن هناك شيئا اسمه تحسين تلك الإقامة بمساكن لائقة، وسدود، وخدمات أخرى تدخل في صميم فكرة البنية التحتية، التي هي مسؤولية الدولة في النهاية.

ولا بد أن نذكر أن المساعدات العاجلة، والحلول السريعة، والإيواء في خيام أو داخل مدارس، أو عند أقارب ما للمتضررين، ليست حلولا حقيقية. فما دامت الفكرة ما تزال فكرة، ستعود الأمطار الغزيرة مرة أخرى، وقد يعود الفيضان الشرس، وتعود نداءات الإغاثة، وهكذا.

الآن كما نعرف، مضى عام منذ تشكيل حكومة مدنية مؤقتة، مع مجلس عسكري، هو مجلس السيادة، وثمة محاولات كثيرة جدا للإمساك بشيء، مثل محاربة الفساد، وفضح المفسدين، ومصادرة ما تمت سرقته. لكن في الوقت نفسه، لا جديد في خفض المعاناة، فالمعاناة كما هي، أي الفكرة النظرية للبنية التحتية كما هي، وزادت عليها تداعيات وباء كورونا، وتداعيات الفيضان.

في النهاية، نحن لا نبحث عن زمن جميل، ولا نريد استعادة زمن جميل، لأن في الحقيقة لا زمن جميلا مر ببلادنا قط.

فقط نريد وطنا بقليل من فكرة البنية التحتية.

14

بالطبع وبعد أن أصبح فيروس كورونا، أو كوفيد 19 حقيقة حياتية، ينبغي أن يتعود الناس على تسكعها بينهم، وتدخلها في حياتهم اليومية، وحمل بعضهم قسرا إلى المستشفيات أو المقابر، بغض النظر عن كل حلم قد يكون رسم، وسكة، قد بدأت الخطوات فيها، كان لا بد من اختراع تقنيات تمكن الحياة من الاستمرار قليلا، حتى يعثر أحد على لقاح حقيقي، يعيد الأمور إلى نصابها، أو يمل الفيروس من وجوده المخجل في الدنيا، ويرحل من تلقاء نفسه، وهذا شيء حدث كثيرا من قبل، ويمكن أن يحدث هذه الأيام أيضا.

هكذا رسمت خطوط التباعد الاجتماعي، في العالم الواقعي، وانتشرت الكمامات لتغطية جهات التنفس في الوجه، وأصبح في يد كل حارس أمني، لأي مرفق نود الدخول إليه، جهاز لقياس الحرارة، وفي عينيه نظرة حادة تتعقب لون البرنامج الوقائي في الهواتف المحمولة، في البلاد، التي تستخدم هذا البرنامج..

وعلى الرغم من أن الثقافة، ليست أولوية كبرى لدى الدول، أو لدى الناس عامة، وهي في الغالب شأن يهتم به من ابتلي بعشق القراءة والكتابة، فلا أظن أن تلك البرامج المبتكرة كانت من أجلها، لكن لا بأس من الاستفادة من تلك البرامج في أن ينظم مؤتمر كبير يضم أشخاصا كثيرين، من دون أي تذاكر سفر، ولا

حجوزات فنادق، ولا سائقين ومندوبين، ينتظرون في المطارات ساعات لاستقبال أحد، بلا «بوفيهات» غداء أو عشاء، ورحلات ترفيهية مكلفة داخل البلاد صاحبة الدعوة، وأيضا تنظيم مهرجانات الجوائز، ومنحها، ذلك الذي كان يحدث سنويا في دول تمنح جوائز، وتحتاج لجيش من المنظمين والسكرتارية، والربكة والضجيج، حتى تنتهي حفلات منح الجوائز.

عدل دوام المدارس، واعتمد التعليم عن بعد، باستخدام برامج مختلفة، أهمها برنامج زوم، ذلك البرنامج السحري، الذي يتيح الوجود شبه الفعلي لعدد كبير من الناس من أمكنة مختلفة، في الوقت نفسه، لمناقشة مسألة ما، أو الاستماع لمحاضرة يلقيها شخص، وهكذا.

في الحقيقة، لا بد أن نسعد بتلك الحلول المبتكرة، لأننا أيضا، وأسوة بغيرنا من الناشطين في المجالات الأخرى، سواء كانت علمية أو سياسية أو اقتصادية، استطعنا الحصول على هذا الامتياز، أي مواصلة ندواتنا ومهرجاناتنا بسهولة، رغم كابوس المرض وتحليقه، أكثر من ذلك ازدادت تلك الدعوات الافتراضية كثافة، ويمكن أن تشارك إن رغبت يوميا في ندوة هنا، ومحاضرة هناك، ومهرجان موسيقي، وأمسية شعرية هنا وهناك، أيضا يمكنك المشاركة بسهولة في برامج تلفزيونية، كانت المشاركة فيها في الماضي، تحتاج لما ذكرته عن السفر وحجوزات الفنادق، وتلك الامتيازات الأخرى المكلفة، وأذكر أنني دعيت مرارا في الماضي للمشاركة في برنامج تلفزيوني ثقافي

في إحدى البلاد الأوروبية، حيث لا بد من تأشيرة شنغن، وسفر، والحصول أولا على إجازة من عملي لمواجهة تلك الصعوبات، ثم السفر، ولم أقبل الدعوة، لكن الآن يمكنني إجراء ذلك اللقاء نفسه، من بيتي: فقط مكان مرتب، ومزاج عادي، والضغط على رابط معين في الكومبيوتر، أو الهاتف المحمول، ولا شيء آخر.

قلت إن تلك الدائرة اتسعت، وأصبحت تلك الدعوات كثيرة، وبعضها ملح جدا، وبسبب أن تلك المؤتمرات سهلة، كما قلت، ولا مبرر لرفضها في نظر من ينظمها، تجد كثيرون لا يستسيغون الاعتذار، وبعضهم يغضب، وربما يتهم المدعو الذي يعتذر بالغطرسة، وعدم الاهتمام بالمشاركة في نشاط حيوي.

أنا شخصيا لا أمانع الاشتراك في نشاطات الزوم تلك، متى ما استطعت، سواء كانت ثقافية أو علمية، لكن في المقابل أشير إلى شيء حيوي يغفله الكثيرون، أو ربما لا يريدون الالتفات إليه في الأصل، وهي أن المشارك، لا يشارك بوقت شخص آخر، وإنما بوقته الخاص، الذي قد يكون بحاجة إليه في نشاط آخر من أنشطته اليومية، مثلا قد يكون يود أن يعمل في وظيفته، أو يود الخروج مع ابنه لشراء مستلزمات ما، أو يذهب إلى جراج في منطقة صناعية ما، كي يصلح سيارته، أو حتى ليتعلق في باص مكتظ بالبشر وروائح البشر، في البلاد التي ليست مرفهة كمعظم بلادنا العربية.

هذا الوقت الخاص يتم تجاهله، ولا يتحدث أحد عن سعره، أي عن مكافأة تمنح للمشارك لقاء تنازله عن ذلك الوقت، ولقاء

جهده أيضا في صياغة المشاركة، وإلباسها أبهى الحلل اللغوية والمعرفية، لتسر أذني من يتابعها، يتحدثون عن ضرورة المشاركة، ضرورة الوجود في الزمن المحدد، والضغط على اللينك للظهور افتراضيا، ثم ينتهي اللقاء، ويردد المشاركون شكرا جزيلا، إلى اللقاء في مؤتمر آخر.

الذي يحدث هو الاستفادة من التقنية في الحصول على الجهد والوقت بلا أي ثمن، باعتبار، أو ربما ظنا ممن ينظم تلك اللقاءات، أن المشارك تم تكريمه، بإظهاره لامعا في الزوم، وجلب عدد لا بأس به من الحضور للاستماع إليه، وربما أكثر كثيرا من الذين كانوا سيحضرون ندوته في الواقع. وقد يكون الأمر حقيقيا في مسألة عدد الحضور، لأنني شخصيا شاهدت ندوات عديدة في معارض الكتب التي كنت أزورها، في ما مضى، خالية تقريبا من الحضور، وأعتقد أنني ذكرت مرة أنني دخلت ندوة عن الترجمة، وكان يوجد ثلاثة أشخاص فقط، والمحاضر متشنج يخاطبهم: صحافية شابة، ومصور صحافي، ورجل مسن ينظف نظارته الطبية بقميصه بين حين وآخر، غير مهتم بما يجري على المنصة.

لكن ليس معنى ذلك أن يصبح الأمر عرفا سائدا، وبشكل اعتيادي.

الفيروس اللعين هذا سيذهب بكل تأكيد كما ذهبت أوبئة أخرى غيره، عبر التاريخ، لكن تقنية الزوم في رأيي لن تذهب، ستظل تلك التقنية المجانية التي تعوض عن وجود النشاط

واقعيا، بلا أي منصرفات، ولأن الكتابة، أو احتراف الكتابة بمعنى آدق، مغامرة غير مجدية، أعتقد ستظل لقاءاتنا المستقبلية «زومية»، وهكذا لا لقاءات بالأصدقاء والأحباب ولا مكافأة على جهد.

15

هذا العام، رحلت السيدة مرثيدس بارتشا، أرملة الكاتب العظيم غابرييل غارثيا ماركيز، بعد عمر طويل قضت معظمه بجانب زوجها الذي رحل منذ ست سنوات، وكان أحد الأساطير التي لا تتكرر كثيرا في شتى نواحي الحياة.

مرثيدس بالطبع كانت سندا كبيرا لماركيز في رحلته الإبداعية التي كتب فيها عددا من أفضل الروايات المترعة بالخيال، في زماننا، وترك أجيالا كاملة في أمريكا اللاتينية، والعالم أجمع متأثرة بما كتبه، وإن كان التأثر هنا في الغالب إيجابيا، حيث يقتصر على استخدام الخيال بإفراط كما فعل ولكن في عوالم أخرى غير عوالمه.

زوجة الكاتب أو المبدع عموما، وأعني الزوجة التي تستمر معه الحياة كلها منذ فجر الشباب حتى الشيخوخة، لا بد تملك دورا ما، فهي قد تشجع على الكتابة بتهيئة الجو، والتنازل عن أشياء كثيرة، ضرورية في الحياة من أجل أن ينجز الزوج المبدع. وبعض أولئك الزوجات ومن أجل تحقيق طموح الزوج في بداياته، قد يتنازلن عن ذهب يملكنه، حتى يتم نشر كتاب يراه الزوج مهما وقد يغير من حياته وحياة الأسرة. أيضا قد يتحولن إلى قارئ أول للعمل الإبداعي بمجرد أن ينتهي منه الزوج، وهذا يحدث بالرغم من أن الزوجة قد لا تكون أصلا قارئة، وإنما تعثرت بالقراءة حين

شاء قدرها أن تتزوج برجل، همه أن يقرأ ويكتب. وأذكر أنني قلت للراحل الطيب صالح حين سألني عن خطيبتي في ذلك الوقت، وأضحت في ما بعد زوجتي وقارئتي الأولى للنص قبل أن يذهب للناشر:

هل هي قارئة، ومحبة للآداب؟

قلت: لا أعتقد. فقال: لا تقلق، ستحب الآداب، وستقرأ لك ولغيرك.

ماركيز حكى كثيرا عن مرثيدس، التي تنبع من أصول مصرية-لبنانية، وولدت لمهاجرين عرب حطوا في كولومبيا، وذكر كيف آزرته في فقره، أيام أن كان صحافيا هزيلا في جريدة محلية، وكتب "مئة عام من العزلة" وأراد أن يرسلها للناشر، وكانت الكتابة آنذاك إما بخط اليد، أو بالآلة الكاتبة، التي كانت الكتابة بها سائدة في العالم وتعتبر طفرة، أهم ما فيها إراحة الناشر من محاولة قراءة خط قد يكون صعب القراءة.

حكى ماركيز أن المخطوط كان كبيرا، ولم يكن يملك ثمن البريد لإرسال مخطوط كهذا، وتوصل مع مرثيدس لحل بدا معقولا، وهو أن يقوما بإرسال نصف المخطوط، حتى إذا ما أعجب الناشر، يتم إرسال النصف الآخر، وهذا ما حدث ليكتشفا في ما بعد أن الذي أرسل كان النصف الثاني، وليس الأول الذي به العنوان والبداية، والفصول الأولى.

ومهما يكن فقد نشرت "مئة عام من العزلة" لتغير من حياة

ماركيز ومرثيدس، وتغير من نمط الكتابة السائد في العالم، وتصنع تاريخا ومجدا جديدا للعبقرية الكتابية.

لقد كانت مرثيدس مؤمنة بقدرات زوجها، هذا لا شك فيه، ونساء كثيرات يؤمن بقدرات أزواجهن ويساعدن في ترسيخ ذلك. بالقدر نفسه، يواجه كثير من المبدعين أجواء أسرية مؤسفة، حيث لا جو ملائم للكتابة، ولا لحظة استقرار واحدة، يمكن أن يتحاور فيها المبدع مع أفكاره، وبالتالي لا كتابة جيدة يستمتع بها أحد.

في الحقيقة لا أقصد بتهيئة جو الكتابة، أن يعم الصمت والهدوء في البيت، ولا يتحرك أحد أثناء كتابة المبدع، وإنما الجو النفسي منح المبدع إحساسا أسريا دافئا بأن الأسرة تقدر كتابته، وتدعمه، وتشجعه لينجز، تماما مثلما يدعم مريضا داخل الأسرة بكثير من التشجيع، ولطالما شبهنا الكتابة بالمرض الذي يصيب بعض الناس ولا يجدون منه شفاء.

كلنا يعرف الإهداء الماركيزي الشهير: "إلى مرثيدس طبعا". والمسألة الملفتة هنا ليس الإهداء في حد ذاته، فيمكنك أن تهدي لزوجتك، ولا يلتفت أحد للإهداء، ولكن كلمة طبعا، التي تعني الكثير، وتعني في أبسط معانيها، أن هذا الإهداء لا يمكن أن يكون لأحد غير مرثيدس، الزوجة والملهمة.

حقيقة لا أعرف طقوس كتابة ماركيز جيدا، أعرف فقط أنه يكتب في الصباح حتى الظهر، ويدخن السجائر، ولا أعرف إن كان

يتوتر أو يغضب سريعا أثناء الكتابة، كما يحدث معي شخصيا، ومع زملاء آخرين. ولكن أتوقع من كاتب غيّر من مفاهيم الكتابة مثله، كثيرا من التوتر والعصبية، ومن امرأة أهدى لها كتابا مع إضافة كلمة طبعا، أن تكون هادئة جدا ولا يزعجها أن ثمة كاتبا عصبيا في بيتها.

عموما المرأة الملهمة موجودة دائما وفي كل الأجيال، أيضا الرجل الملهم والمساند لزوجته المبدعة، موجود ويساند بقوة، ولدينا أمثلة كثيرة على وجوده. وقد ذكرت مرة الكاتبة التركية المعروفة إليف شافاق أنها تزوجت سريعا جدا برجل التقته في قنصلية أو سفارة ما، وأحست بأنه يشبهها ولن يقف في طريق كتابتها. وطبعا مع هذا الكم الهائل من الإنتاج الكتابي لإليف، نتوقع أن يكون ذلك الزوج سندا عظيما، وليس مجرد ظل لا يعيق مجرى الكتابة.

إذن مرثيدس أيضا رحلت، وبقي من أثر ماركيز ولداه اللذان لم أسمع أن فيهما من يكتب، فأحدهما مخرج، والآخر أعتقد يعمل بالغرافيك، وهذا شيء طبيعي. فالكتابة ليست حرفة أسرية مثل النجارة أو صياغة الذهب التي يتوارثها الأبناء، إنها شيء خاص، يُمنح لشخص ولا يمنح لآخر، في الأسرة نفسها، وكلنا لدينا أبناء لا علاقة لهم بهذه المعاناة أبدا.

16

في مقال كتبته مرة عن إيحاءات الرواية ومصادرها الأولى والغالبة، بناء على متابعتي لما يكتبه الروائيون، نوهت إلى ما سميته مكان الصرخة الأولى، أي مكان الولادة بوصفه المكان الأكثر حضورا في الرواية، حتى لو كان موضوعها بعيدا تماما عن سيرة الكاتب وما تمثل له بعض قيم ذلك المكان من معان.

كنت هنا أتحدث عن الانتماء، الانتماء الحقيقي وليس المجازي، الذي غالبا يحدث حين تضطر لمغادرة مكان صرختك الأولى، إلى مكان آخر، تحاول بشتى الحيل، أن تعيد تأهيله ليصبح مكان انتماء جديد. بعض الناس قد ينجحون في ذلك، وتجد هناك من عاش في باريس مثلا ويكتب عنها بقوة وبلغة أهلها، وهناك من لم ينجح، حيث يظل مكان الانتماء عنيفا وشرسا، يطارد كتاباته، حتى لو دارت حوادثها حيث يعيش.

ولدينا بالتأكيد في السودان مثالا متفوقا في كتابة الطيب صالح لـ"موسم الهجرة إلى الشمال" فهو عاش كل فترة نضجه في انكلترا ودارت معظم أحداث القصة هناك، لكن بقي السودان، وبالتحديد شمال السودان لاصقا بالعمل والأعمال الأخرى القليلة التي كتبها. لذلك نأتي في تعريف الهوية لأدب الطيب صالح في المقام الأول أنه أدب سوداني، ثم نعرف بطريقة أشمل لنقول بأنه أدب

عربي، أي يحمل الهوية العربية، بمحلية سودانية، هي عضو في المحليات العربية، شقيقة لمحليات أخرى من مصر والشام والخليج العربي، والمغرب العربي. وهناك انتماء، أو هوية يحبها الأفارقة، وهي منح الأدب السوداني بطاقة انتماء أفريقي، وهذا عادل أيضا والمسألة ليست بطاقة شرف فقط، وإنما أعمق من ذلك كثيرا.

إذن في رأيي، الانتماء الأول هو الهوية الأصلية، والانتماءات اللاحقة هي هويات أيضا يمكن منحها للروائي وروايته، ويمكن سحبها في أي وقت، بعكس الهوية الأولى التي تظل هي المعيار الموصوف به هذا الأدب.

الهوية أيضا ليست مكانا أو وطنا وجدت فيه فقط، هي مفردات كثيرة جدا وعميقة، وأحيانا يصعب تعريفها حتى، ومن التفاصيل المميزة التي قد تظل عالقة بذهن الكاتب، وتشكل جزءا من هوية سرده في ما بعد، تفاصيل البيت الذي عاش فيه طفولته. وأقول بكل جدية، أن تفاصيل ذلك المكان الجغرافي من الأشياء التي لا يمكن ضياعها من الذهن، وكلما جلس الكاتب ليزين بيتا في نص يتحدث عن فترة قديمة، تجده يزينه بما كان في بيت أهله، حتى لو لم يكن هناك ترف أو تفاصيل كثيرة، لكن ما يعثر عليه في ذاكرته، وغالبا ما كان موجودا فيها.

هذا المكان القديم من آباء الهوية، ووجوده في الرواية ليس تطفلا وإنما حق مكتسب.

لقد كتبت في أوائل الألفية الجديدة نصي "مرايا ساحلية"، وكان عن طفولة عشتها في مدينة بورتسودان، كتبت فيه تفاصيل المدينة التي شاهدتها آنذاك بما فيها عمرانها وشوارعها وحتى متسوليها ومجانينها، وباعتها المتجولين. وقد ظهر مثلا مجنون مثقف اسمه عزيز، أو كنا ناديه عزيز من دون أن نعرف اسمه الحقيقي، كان يرص الكتب على الأرض أمامه، يقرأ الشعر ويقتبس عبارات حالمة من "النظرات" أو "العبرات" للمنفلوطي، يظل يرددها زمنا قبل أن يتركها ويستل واحدة أخرى من كتاب جديد، ويرددها. ظهر أيضا استيفن المشلول الذي يجلس على كرسي متحرك، ويحاول أن يبدو متحرشا بالنساء والأطفال، من دون أي مؤهلات للتحرش، وحمدة المتسولة الجميلة التي تبدو كأسطورة.

تحدثت في ذلك النص السيري عن بيتنا الذي كان من ضمن بيوت خشنة في وسط المدينة، حوالي عشرين بيتا خصصت لموظفي الخدمة المدنية الصغار، حتى يكبروا فينتقلوا لبيوت أوسع، في أماكن أخرى.

هذا البيت لم تضع تفاصيله من ذهني أبدا، وحتى حين تم هدمه وشاهدت البرج الذي نما مكانه ومكان البيوت الأخرى، منذ ثلاث سنوات، وقفت أستعيد تفاصيله. بيت صغير فيه حجرتان وصالتان، وحمامان، ومطبخ ومخزن، وحديقة صغيرة، أو في الحقيقة حوش صغير، يمكن زراعة شيء من النجيل فيه، ولا شيء آخر. هذا البيت كان حصنا فعلا، أولا لسعة صدره

وإمكان أن يحتفي بضيوف عديدين يأتون إليه، وذكرت في "مرايا ساحلية" أن أحد أعمام أمي كان يقيم معنا، وخصصت له إحدى الغرفتين والتي هي في الأصل صالون لاستقبال الزوار، لكن لأنه أقام فيها، تحول استقبال الزوار للصالة الملاصقة للصالون.

ذكرت أيضا أن أهلنا القادمين من الشمال، ليذهبوا إلى الحج عن طريق البواخر، يقيمون معنا قبل سفرهم وعند عودتهم من الأراضي السعودية، وأن شهر عسل كاملا لعروسين من أهلنا كان في ذلك البيت. جزء آخر عظيم من هوية ذلك البيت، ظهر في "مرايا ساحلية" بسبب أن بابه الرئيسي كان يفتح على مستشفى بورتسودان، من ناحية الحوادث والعيادات الخارجية، وحيث صف من الطبالي، يملكها باعة صغار، يستهدفون زوار المستشفى. من ذلك الباب كانت الممرضات يدخلن، النساء الدلالات يدخلن، ونشأت بينهن وبين والدتي صداقات امتدت حتى سنوات طويلة. أنا حين كتبت، كنت أكتب هوية خالدة في ذهني، أكتب مكانا ملهما بمقاييس وطن ملهم.

كذلك من صفات المكان الهوية، وجود شخوص يحملون على عاتقهم مهمة إنارة درب مظلم، أو إظلام درب منير، هؤلاء سيرصدهم الكاتب، سيحمل تفاصيل وجوههم وسيحتفي بهم أو ينتقم منهم في أعماله بحسب ما يحمله في ذهنه من ذكرى، وقد يرتقي بعض هؤلاء إلى مستوى التنميط، أي أن تصبح ملامحهم وسلوكهم، ملامح وسلوك نمطية لشخصيات ستُكتب في الأعمال الروائية للكاتب.

كنا في مجتمع المدينة، أو لنقل في مجتمع الجيران، متبايني الأعراق المحلية، بعضنا من الشمال، بعضنا من الشرق، بعضنا من الغرب، وكان ثمة أقباط رائعون وموهوبون يقيمون في الجوار، ويختلطون بالجيران في كل المناسبات، والجيران يباركون لهم أعيادهم، ويعزونهم في الفقد، وهكذا. أنا حين أضع شخصية قبطي في رواية، أتذكر أولئك الجيران، أكتب شخصيتي على نمط أحدهم إن كان ذكرا أو أنثى. كان أحدهم حدادا متفوقا، لذلك تجد ألبيرت في روايتي "366"، حدادا متفوقا أيضا. كانت سهام فتاة جميلة جدا، قبطية ساحرة، تتمايل في المشي، بابتسامة ثابتة على فمها، كما أتذكرها بعيني الطفولة آنذاك، لذلك أي قبطية حسناء كتبتها في رواية كانت مشبعة بملامح تلك الجميلة. وكان لدينا جار، أظنه كان مهندسا، وكان أول شخص رأيته يضع رباط عنق، وكان لونه أزرق، لذلك تجد ذلك الجار البعيد، هو نمطي الروائي للمتأنقين، وأي رباط عنق ظهر في إحدى رواياتي، كان لونه أزرق. أشياء كثيرة مثل هذه كتبتها، وكان من تفاصيل هوية المكان الجغرافي، ارتقت لتصل إلى الهوية العامة للنصوص.

17

كنت طرحت على صفحتي في فيسبوك سؤالا عن أيهما أحق بالاعتراف به، في الكتابة باللغة العربية: الأخطاء الشائعة المشهورة، أم التعابير الصحيحة، التي قد لا يعرفها أحد، ولا تستخدم إلا في المناهج الدراسية؟

وأوردت مثالا على ذلك، جملة: على الأقل، التي يقول خبراء اللغة العربية، أنها خطأ، والصحيح أن تكتب: في الأقل، وتلك الجملة عرفتها لأول مرة حين قرأت نصا عثرت عليها فيه، ولم أحبها أو أستسغ نطقها وكتابتها على الإطلاق.

كانت المداخلات داعمة لوجهة نظري، في معظمها، وتتلخص في أن الكتابة الإبداعية، غير مشغولة بالضرورة بما هو صحيح أو خطأ، بقدر ما هي مشغولة بالإبداع نفسه، الإبداع المتمثل في اختراع عوالم وتطويرها، ورصفها بالمعرفة، مع ضرورة وجود المتعة في النصوص، التي لولاها لما وصلت إلينا أفكار كثيرة، فالكاتب في رأيي مطالب بجانب اختراع العوالم، وبث الأفكار، أن يعثر على الإسلوب الملائم والسلس لجذب القارئ، وأعتقد أن ثمة روايات عظيمة، لم تجد قارئها بسبب خشونة أسلوبها، واستخدام الكاتب لأدوات لغوية جارحة، ساهمت في هجر القارئ لنصه مبكرا، من دون أن يكمله، بينما نجد على العكس أعمالا تعرضت لمواضيع صعبة مثل الفلسفة والمنطق وعلم

النفس، شدت القارئ بأسلوبها، وأعطته المعرفة المطلوبة بصورة رائعة.

ولعل أفضل مثال على ما ذكرت، رواية «عالم صوفي» للنرويجي جوستاين جاردنر، الصادرة لأول مرة عام 1991، ونقلت إلى أكثر من خمسين لغة عالمية، وساهمت دار المنى في نقلها للعربية. إنها رواية عن الفلسفة، لكن يصبح تذوق الفلسفة أمرا سهلا حين تدمج في عوالم طفلة.

وعندنا في العربية قلت مرة أن كتابة الصحراء، وأساطيرها، وما تخبئه من خوف وسحر، وتقاليد لا يعرفها أحد، لم تكن ليكون تذوقها بهذه السلاسة، لولا كتابة إبراهيم الكوني، وإبراهيم من القلائل الذين عثروا على أسلوبهم باكرا، وأمتعونا بذلك الأسلوب.

الكاتب في رأيي مطالب بجانب اختراع العوالم، وبث الأفكار، أن يعثر على الإسلوب الملائم والسلس لجذب القارئ، وأعتقد أن ثمة روايات عظيمة، لم تجد قارئها بسبب خشونة أسلوبها، واستخدام الكاتب لأدوات لغوية جارحة، ساهمت في هجر القارئ لنصه مبكرا.

أعود لموضوعي، عن استخدام اللغة الشائعة، وحقيقة ليس مطلوبا من الكاتب أن يلم بكل شاردة وواردة في اللغة التي يكتب بها، ونعرف أن معظم المبدعين هم أصلا ليسوا تلاميذ أو أساتذة لغة، وإنما قدموا للإبداع من مهن عديدة لا علاقة لها بما يكتبون، أو لنقل إنهم كانوا يكتبون منذ الصغر، والتحقوا

بدراسات بعيدة عن الكتابة، وظل ما يقدمونه في المجال الإبداعي، مجرد إشباع لهواية، من الصعب التخلي عنها، ومن الصعب ممارستها وحدها، لأنه لا عائد مادي، يأتي منها، ويمكن الاعتماد عليه في الحياة اليومية، خاصة في البلاد العربية، حيث يظل الكاتب مجرد كاتب، بلا ترقية، أي بلا أجر من استثمار كتابته.

وكنت مرة قبل أن ألج بكثافة في عالم الكتابة، تعرفت إلى موظف في دار نشر أوروبية كبرى، أبدى اهتماما بكتابين لي، ووعد بترجمتهما للإنكليزية، لكن حين قدمهما لدار نشره، كان الرد الذي قرأته: نحن مستثمرون في مجال الكتابة، وهذا الكاتب قد يكون جيدا، لكن ليس استثمارا جيدا. وفي كتابتي للنصوص الروائية، أو حتى للشهادات الإبداعية، والمقالات التي التزم بها مع الصحف والمجلات، لا بد تعثر على أخطاء ما، أخطاء قد تكون لغوية أو نحوية، أو من تلك التي أشرت إليها بأنها أخطاء شائعة، لن تجرح تذوق أحد، وفي الحقيقة لن تلفت نظر أحد أبدا، إذا لم يفعل أحد المتربصين بالنص ذلك، مثل أن تكتب: نفس الشيء، بدلا من: الشيء نفسه، وأمثلة أخرى عديدة

أنا أقبل التصحيح اللغوي بلا شك، وأقبل التحرير إن كان ثمة محرر متمكن لا يشوه العمل أو يتخطى حدود التفاعل المساعد، إلى محاولة التأليف، لكن غالبا لن أقبل أن يعد أحد الأخطاء الشائعة، التي أستخدمها متعمدا، ويكتبها في مقال عن نصي، يفترض أنه مقال نقدي، واهما أنه يهز مكانة لدى القراء،

لم أعثر عليها مصادفة، وإنما نتاج سنوات طويلة من القراءة، والمحاولات الجادة للعثور على أسلوب كتابي.

ولعل وجود أساتذة اللغة العربية، وسط جمهور تلقي أمامه شهادة إبداعية، أو تقرأ شذرات من تجربتك، يعقد بعض المسائل، حيث يشعر ذلك المعلم للغة بخيرها وشرها، بأنه جرح باستخدامك لتعابير، لن تروق له أو لمنهجه، ويحاول جاهدا أن يصلك استياؤه، وتلك مسألة تعودت عليها، ولا أهتم بها كثيرا، وأذكر أنني لاحظت مرة أثناء حديثي في إحدى الجامعات عن رواية «العطر الفرنسي»، أمام الطلاب وأساتذتهم في قسم اللغة العربية، أن أحد الأساتذة انتفض فجأة حين استخدمت تعبيرا شائعا، وحين انتهيت أسرع إليّ وطلب أن أعطيه شهادتي المكتوبة، لكن في الحقيقة، لم أعطه لها، قلت له بأنها مسودة، سأقوم بتصحيحها وإرسالها له، لكن ذلك لم يحدث.

ومن الأشياء التي أرقتني مؤخرا، أن عددا من أساتذة اللغة العربية والباحثين فيها، كانوا يعدون تقريرا عن استخدام اللغة في النصوص الإبداعية، وغير ذلك من ضروب الاستخدام، وكلفوني بكتابة مقال طويل بعض الشيء، في هذا الشأن. وقد قمت بالكتابة كما أكتب دائما، لكن يظل هاجس تدقيق المقال لغويا يلازمني، وأن تقريرا عن اللغة العربية لا بد يحتفي بها نظيفة من الشائع والمستخدم.

عموما نحن نكتب، ونراجع ما نكتب، ونلتزم بلغتنا بقدر ما نعرف ونستطيع، وشخصيا أؤمن كما قلت بالاختصاصات، فالمختص أدرى من غير المختص بكل تأكيد.

18

منذ فترة رحل الكاتب الإسباني الشهير كارلوس رويس زافون، بعد سنوات من المجد الكتابي، والتربع على قوائم الأكثر مبيعا، في كل لغة ترجمت إليها أعماله، خاصة روايته الأولى "ظل الريح"، التي تقدر مبيعاتها بملايين النسخ. وأذكر أنني كنت مرة في إيطاليا، وعرجت على مكتبة ضخمة، في وسط المدينة، نوعا من الفضول أو جلب المتعة في رؤية الكتب وأغلفتها، وتقليبها، حتى لو كنت لا أعرف اللغة الإيطالية، لكني لم أستطع الدخول بسبب الزحام الكبير، كانوا في الحقيقة قراء إيطاليين يتزاحمون لشراء النسخة الإيطالية من رواية "ظل الريح".

زافون رحل بعد معاناة مع المرض، وكان رحيله مبكرا جدا، وقد كتب أعمالا قليلة ناجحة على المستوى القرائي، وكان يمكن أن يكتب أكثر، أو على الأقل يخرج من مقبرة الكتب المنسية التي تدور حولها رباعيته المنجزة، إلى أفكار أخرى. لكن المرض أوقفه، ثم الموت الذي هو نهاية لكل ما هو مثمر وواعد، ولا شيء يوقف الموت أو الفناء. ودائما ما نتذكر أفذاذا من المبدعين والمبتكرين، والعلماء، رحلوا هكذا في أعمار مبكرة، ونردد: لو عاشوا لأنجزوا أكثر. وهذه الأيام بالذات، يعربد في حياتنا فيروس لعين يختطف في كل دقيقة روحا ربما كان سيزدهر بها المستقبل.

"ظل الريح"، أو الجزء الأول في سلسلة "مقبرة الكتب المنسية"، الرواية التي عرفت زافون إلى القراء، وعرفت القراء إليه، ليست رواية عادية يمكن أن تقرأ وتنسى. في الحقيقة كانت رواية فيها الكثير من الحيل والكثير من المعرفة، وأزعم أن الكاتب قام بدراسة تاريخ مدينة برشلونة بصورة جيدة وجدية، قبل أن يكتبها. وهذا بالضبط ما نطلبه من الكتاب الروائيين في كل زمان ومكان، أن يلموا بجغرافية وتاريخ الأمكنة التي ينوون الكتابة عنها، ويلموا بثوابت المجتمعات ومتغيراتها، وعادات الناس وأزيائهم، وماذا يأكلون ويشربون، وحتى تفاهاتهم، من أجل أن يخرج النص صادقا وحكيما، وواثقا من العثور على قرائه.

وبجانب الثراء المعرفي واللغوي لرواية "ظل الريح"، نجد تشويقا عاليا، يبدأ من أول سطور فيها وحتى النهاية، ونادرا ما تحس بملل بالرغم من ضخامة الكتاب، بسبب أن الأحداث تتجدد، ويدخل في كل مرة خبر جديد، يطغى على الأخبار التي سبقته، ونتابع بإحساس قوي أن ثمة مفاجأة ستحدث، وتكون المفاجأة، مزيدا من الانتظار. بعكس أعمال كثيرة تتخللها صفحات مملة أو زائدة عن الحاجة، مثل رواية الإسباني لويس باندیرو، ألعاب العمر المتقدم، التي أعتبرها رواية عظيمة وحاشدة بالخيال والإيحاءات، لكن تظل فيها صفحات من التداعيات الطويلة، تغري بتجاوزها من دون قراءة.

لقد كتب زافون "ظل الريح" بعد تجارب سابقة مع أدب الناشئين الذي ألف فيه قصصا عدة، وذلك نوع صعب من

الكتابة الإبداعية، فأنت لا تعرف ماذا يمكن أن تقدم لقارئ ناشئ، وأظنه يحتاج لموهبة أخرى غير الموهبة الاعتيادية. ولا أدري لماذا اتجه للكتابة للكبار بعد ذلك، لكن أظنها كانت خطوة ناجحة، أخرجت لنا "ظل الريح"، و"لعبة الملاك"، و"سجين السماء"، و"متاهة الأرواح" التي لم أطلع عليها بعد. وهنا لا بد من الإشارة إلى مجهود المترجم القدير معاوية عبد المجيد، الذي نقل لنا جماليات زافون، ودائما ما أقول إن معاوية من المترجمين الذين لا يتخذون الترجمة وظيفة مجردة، لكنهم يمنحونها من روحهم أيضا، ونعثر بهذه الطريقة على أعمال ترجموها، وتمنح إحساسا كأنها كتبت بالعربية، ومن تلك التراجم أعمال أنطونيو تابوكي. وهذا الوصف الموجز ينطبق أيضا على صديقنا الراحل صالح علماني وآخرين أثروا حياتنا بشكل أو بآخر.

رواية "ظل الريح"، أو أعمال زافون في المجمل، تذكرني بسؤال هام، كنت طرحته من قبل، سؤال عن حجم الرواية، وهل من الضرورة أن نكتب روايات ضخمة، أو سمينة، من أجل توصيل فكرة؟ أم نكتفي بما قل ودل من الصفحات؟

بالنسبة لكتاب كثيرين، يبدو موضوع تسمين الرواية نوعا من التباهي بكتاب ضخم، فهي غالبا ما يتم حشوها بالمفيد وغير المفيد، وكلنا يطالع روايات بتلك الأحجام، متكئة على أفكار قصص قصيرة، ولن تصنع المجد لكتابها. في حين أننا نجد مشاريع رائدة في الكتابة، لم تتعد صفحات الروايات فيها المئة وخمسين صفحة، مثل كتب النمساوي استيفن زفايغ،

وكتب إبراهيم أصلان ومحمد البساطي من مصر. القارئ لتلك المشاريع، يحس بالرضا تماما، أو يحس بالنشوة من دون أن يكون أرهق ذهنه أو عينيه.

لنتحدث عن تسمين الرواية عند زافون، هل كان ضروريا إذن؟

مؤكد، وقد قلت إن رواية زافون قائمة أصلا على نقل المعرفة، ورصف جغرافية وتاريخ برشلونة، من خلال قصة دانيال ووالده صاحب المكتبة، ونرى أنه ينقلنا من شارع إلى آخر، ومن قصة إلى أخرى، ومن حديث مشوق إلى حديث مشوق، وهكذا، حتى نصل النهاية مبتلين ومندهشين وربما راغبين في القراءة أكثر. وإن كان ثمة خلل بسيط لاحظته في "لعبة الملاك"، الجزء الثاني من الرباعية، وهو ترك بعض الحوادث بلا نهاية، وبعض المواقف بلا رسم أو هوية.

شيء أخير، وهو ما لاحظته عند كتابة رثاء لزافون أو نعيه على صفحات التواصل الاجتماعي من قبل المئات من عشاق كتابته، أن عددا من الملمين بالأدب الإسباني، كتبوا صراحة أن زافون بلا قيمة كبيرة في بلاده، وأن مشروعه اعتبر مشروع "بيست سيلر" عادي، ولم يحظ بجوائز أو دراسات نقدية أسوة بمشاريع آخرين مثل مياس.

ربما يكون المشروع فعلا لم يحظ بالنقد أو الدراسة، لكن ذلك ليس دليلا على ضعفه، أو انعدام قيمته، إنها خصومة معروفة في كل مكان، بين النقد والكتب المنتشرة، التي تكون فيها أعمال

جيدة. وهنا أقول إن الكاتب المنتشر لا يحتاج في العادة لإلقاء ضوء نقدي على مؤلفاته، فقد أضاءت بنفسها.

19

اعتدت على أن أمرّ أحيانا على صفحات القراءة في الإنترنت، أو حتى أشارك في مجموعة قرائية، لها نشاط كبير، للاستفادة من آراء كثير من القراء الأذكياء، الذين يثرون النصوص التي يتعرضون لها بلا شك، وأيضا لمتابعة ما يمكن أن يسمى قراءة بلا وعي، أو لا قراءة على الإطلاق، من خلال آراء تبدو كتبت هكذا عشوائيا، من أشخاص بلا هم معرفي، ويتبعون المجموعات المعرفية هذه، بلا هدف.

في إحدى المجموعات التي تابعتها فترة من الزمن، عثرت على قارئ، كتب عن كتاب رائج ومهم، بأنه نظرا لرداءته، فقد تم وضعه على الرف المخصص للكتب التافهة في مكتبته، التي تضم كتبا كثيرة، هو قرأها، وصنفها، ويضعها على رف تحتي، في المكتبة نوعا من التنكيل بها، ولن يعيرها لأي شخص، ذلك أنه لا يود المساهمة في خدش ذوق القراء.

هذا العرض المذهل لما سمي بالكتب الرديئة، أو التافهة، ومن مدون في الإنترنت لا يُعرف حجم ثقافته، ولا إن كان فعلا يقرأ الكتب ويقيمها؟ وما هي معايير تقييمه لها؟ يمكن تجاهله بلا شك، وفي الإنترنت ملايين الآراء يمكن تجاهلها، وعدم الالتفات إليها كونها بلا أساس، ولا مرجعية تتكئ عليها، وحتى توجد آراء علمية يمكن تجاهلها، وكلنا نطالع هذه الأيام آلاف الكتابات

والآمال والإحباطات عن فيروس كوفيد 19، ولا نعرف صحتها من عدم صحتها، كونها إما اجتهادات شخصية، أو إدلاء بدلو، في بئر تسمح بإدلاء الدلاء، من دون أن يسأل عن هوية من أدلى.

قلت إن الرأي الذي دوّن عن ما سمي بالكتب السيئة، يمكن تجاهله، لكن في الحقيقة لم أفعل ذلك، لأن هناك دائما ما يمكن أن يقال في هذه المواضيع، خاصة أنني أعمل في هذا المجال منذ سنوات طويلة، وقدمت أشياء كانت اجتهادات، أصابت حينا وأخطأت أحيانا.

بكل بساطة، لا يوجد ما يسمى بالكتب الرديئة، أو ليس من المفروض أن يُقيم الكتاب، أيا كان نوعه، وأسلوب كتابته، ودرجة مللله، أو سطحيته بنجمة واحدة، أو يُقيّم بلا نجمة كما اعتاد بعض من يزعمون أنهم قراء، تقييم الكتب. نعم لا بد من أسلوب متميز حتى في الكتابات العلمية، لا بد من لغة صحيحة، ولا بد من أفكار تتجمع لتشكل الموضوع المراد الكتابة عنه، ولكن في المقابل يوجد مجهود الكاتب الذي لا يلتفت إليه أحد، فالكاتب يجلس ساعات طويلة، ينحت ذهنه، محاولا أن يكتب، وقد لا يأتيه شيء، ولكنه لا يتوقف، ليأتي في النهاية من يضع كتابه على رف سماه رف الأعمال الرديئة. أقل شيء النظر إلى مجهود الكاتب، وليس معنى أنك مللت من القراءة، أو صادفتك بعض الأخطاء اللغوية، أو لم تبهرك المواقف التي أوردها الكاتب في رواية، أو حتى أبكتك قصة حزينة، أو آمال بطل القصة لا تشبه آمالك، أن الكتاب رديء، علينا تصحيح هذا المفهوم،

خاصة في موضوع الفكرة، فالأفكار مهما تشعبت، تبدو محدودة، وكل كاتب قد يستخدم الفكرة ذاتها التي استخدمها غيره من قبل، ولكن بطريقة مختلفة، وينبغي أن لا يردد أحدهم: الفكرة مستهلكة. ولو سألت عن الاستهلاك هذا، فلن يستطيع كاتب هذه الجملة إجابتك، إنه يكتب فقط بلا استناد إلى شيء.

في إحدى المرات، ذكر أحد القراء جملة «رحم الأم» التي وردت في رواية لي، وكتب أنها جملة جنسية، خادشة للحياء العام، واستغربت ذلك فعلا، فرحم الأم هو الذي يضمنا نطفا، لنكبر داخل تجويفه، قبل أن نخرج ونواجه الحياة، لذلك يؤكد الدين الإسلامي على صلة الرحم، التي اعتبرها أهم الوشائج في مفهوم القرابة، ودعا إلى عدم قطعها. كيف أصبح رحم الأم إذن إيحاء خادشا للحياء العام؟ هذا ما لم أستطع معرفته، وتمنيت أن ألتقي بذلك القارئ في مكان ما، أو على الأقل افتراضيا لأسأله، لكن لم يحدث ذلك مع الأسف. القارئ هنا لم يتعمد الإساءة إلى نصي، هذا مؤكد، هو قرأ الكتاب، وهذا واضح من تعرضه له، لكن لأن معرفته بالإيحاءات وغيرها محدودة في رأيي، وربما تعتبر خصائص المرأة كلها بما في ذلك أوردتها وشراييها، وحتى داء الضغط والسكر وتصلب العروق التي قد تصيبها، في المجتمع الذي يعيش فيه، إيحاء خادشا، كتب ما كتب، وأظن يمكن تجاوز هذه النقطة، أملا في أن تزداد معرفة قارئ مثل هذا، ويستطيع التمييز بين ما هو اجتماعي وإنساني وما هو جنسي خادش.

قراء آخرون لاحظت أنهم كانوا هادئين ورصينين، زمنا طويلا وهم يعرضون الكتب التي اقتنوها، أو يستعرضون محتوياتها، ثم فجأة تحولوا إلى كتّاب ونشروا روايات، وعثرت تلك الروايات على من يعجب بها، ويمنحها تقييما عاليا. هؤلاء الآن فقدوا رصانتهم وتحولوا إلى سكاكين جارحة، تتعرض إلى تجارب من سبقوهم بكثير من العنف، وتمنح تلك التقييمات غير المنصفة، التي ذكرت عدم جدواها، وربما هي فقط إرضاء لغرور، أيضا غير مجد ويجب أن لا يتكون أصلا عند كاتب مبتدئ.

أخلص إلى القول، إن عالم الإنترنت وإمكانية إيصال الصوت البعيد المنطفئ في ما مضى، إلى أبعد مدى الآن، وأيضا إمكانية العثور على الكتب من دون بحث، كونها مقرصنة ومتاحة على الإنترنت، جعلا من التعرض للتجارب الكتابية الكبرى، أمرا سهلا للغاية، ولدرجة أن تصنف بعض الكتب بأنها رديئة أو تافهة، وتعزل على رف خاص داخل المكتبة، في ما يشبه العزل الطبي أو الكرنتينة.

20

في اتصال هاتفي مع رجل دين، تمت استضافته في إحدى الإذاعات العربية، للإجابة على الأسئلة التي قد تكون ملتبسة، أو بحاجة إلى إيضاح، في المسائل الشرعية، قال أحدهم بأنه يشعر برغبة كبيرة في الاعتكاف في المسجد للعبادة، في أواخر شهر رمضان، ولأن المساجد مغلقة بسبب وباء كورونا، سأل:

هل يستطيع أن يقوم بكسر باب المسجد، والتسلل إليه ليلا، والاعتكاف في داخله؟

رجل الدين لم يجب مباشرة، وبدا لي يحس بغرابة الطرح، لكن في وجود برامج إذاعية أو تلفزيونية للتفاعل المباشر، دائما ما نجد طرحا منطقيا، وطرحا بعيدا عن كل منطق. وحين أجاب الرجل أخيرا، ذكر ما كنت أتوقعه، وهو أن سلوكا مثل هذا يعتبر خارجا على القانون، ويمكن للمرء أن يعتكف في بيته، للعبادة، وهو أصلا موجود داخل البيت بسبب، انتشار الوباء، ونداءات كل الدنيا للناس بالبقاء في بيوتهم، وعدم الخروج إلا عند الضرورة، وهي نداءات ملحة في الحقيقة، وكلنا شاركنا في توجيه نداءات عبر المنابر التي استطعنا الوصول إليها.

وأعتقد أن الوعي في هذه المسألة قد يكون حاضرا، لكن جزءا من العقل يرفض الانصياع لمبدأ السلامة، بحجة تقييد الحرية،

ما يجعل الناس أكثر عرضة للإصابة بالمرض، كما يطيل ذلك في بقاء الفيروس بيننا، وبالتالي يطيل عمر المعاناة، والأزمات التي حدثت ويتوقع حدوثها مستقبلا.

حقيقة هذا المتصل في الواقع، فعل ذلك ليس بغرض الحصول على فتوى تجيز كسره لباب المسجد، أي ما يسمى الاقتحام، وهو أمر مخالف للقانون كما نعرف، وفيه عقوبات مثل السجن والغرامة، ولا أظنه كان سيفعل ذلك إن صرّح له الشيخ بفعله، هو ذلك الجزء من العقل الذي يرفض التقييد، ما دفعه لذلك الطرح، ودفع كثيرين غيره، وسيتسمر في دفع آخرين، لطروحات غريبة مماثلة.

مثل سؤال عن أداء مناسك الحج افتراضيا عبر الإنترنت، وسؤال لي شخصيا يسأله أحد الأشخاص يوميا عبر الهاتف:

ما هي أعراض مرض كورونا؟

وأكرر له ما يعرفه، ويعرفه العالم أجمع عن أعراض ومضاعفات ذلك المرض، وكيفية انتقاله، والوقاية منه، ويغلق الخط ليعاود الاتصال في اليوم التالي، وتكرار السؤال، وأظنه سيستمر هكذا، وقد يسأل عدة أطباء ويحصل على الإجابة نفسها، ما لم تنزح كارثة كورونا، ويعود الفيروس إلى خموله.

إذن كورونا أو كوفيد 19، ليس مرضا يصيب البعض، فيميت جزءا منهم ويعفو عن الجزء الآخر، فقط، وليس كارثة كبرى أضرت باقتصاد الدنيا فقط، ولكنه أيضا يصبغ من لم يصبهم

بسلوك جديد عليهم تماما. إنه سلوك توتري أو اكتئابي بلا شك، يزيد من تفاقمه الصمت والتفكير المطول، والجلوس في العزلة الاضطرارية، التي يعجز فيها الشخص عن اتخاذ أي قرار، أو ممارسة أي نشاط، كما ذكرت في مقال سابق.

لا أحد يستطيع القراءة بذهن صاف، ولا الكتابة بأفكار متوقدة، ولا الرسم، أو عزف الموسيقى بأصابع رشيقة، سلسة، أو الغناء بالصوت الشجي الذي طالما غنى به، إن كان مغنيا. هذا في الناحية الإبداعية، وتأتي نواح أخرى في الحياة مهمة جدا، وتعطل من كان ينشطون فيها، ولا أظن من يقف أمام المرآة كل صباح، يتأمل شعره المنكوش، ولحيته المبعثرة، لن يترحم على زمن انتشار الحلاقين في كل مكان، من دون أن يخطر على بال أحد، أنهم سيختفون ذات يوم.

نعم، التوتر والاكتئاب، هذا ما يحدث، وقطعا سيحدث بصورة جادة ومفزعة، حين تختفي عشرات الآلاف من الوظائف، وتغلق الشركات الموظفة للعمال أبوابها، أو تخفض أخرى من عمالتها، حتى تستعيد أنفاسها، بعد اندحار الوباء. وقد تكون الأعراض الاكتئابية التي قد لا يعرفها الكثيرون، أعراضا شائعة ذات يوم، سيعرفها الجميع بالكيفية نفسها التي يعرفون بها أعراض كورونا، ومثلما خففنا من مطاردة الأمراض الكثيرة، التي كنا نطاردها في الماضي، ونركز الجهود على مرض واحد، سنخترع جهودا أخرى، نطارد بها القلق والوسواس في ما بعد الوباء. قلق أن تخاف من عطسة عادية تعطسها أو يعطسها شخص جالس قريبا منك،

قلق أن تسافر، وتحس بالرعب من منظر المطارات، حتى لو لم يكن فيها زحام كثيف، أن تجلس على مقعد في الطائرة، وتحس بأنك تجلس على بؤرة فيروسية، حتى السلوكيات اليومية العادية، مثل جلب الطعام، أو التزود بالوقود، أو إجراء مقابلة للحصول على عمل، لن تتم من دون قلق أو وسواس.

كيف نتعامل مع ذلك الوضع إذن؟

ليس لديّ فكرة، والذي أستطيع قوله، هو أن الإنسان يستطيع التأقلم مع كل شيء، أي يستطيع أن يتأقلم حتى مع قلقه، بحيث لا يصبح مشكلة كبرى، وقد يزول بالطبع مع الأيام، خاصة إن تم اكتشاف لقاح فعال للفيروس، وهذا سيحدث، وكلنا يعرف أنه حتى عهد قريب لم تكن هناك لقاحات ضد كثير من الأمراض، مثل شلل الأطفال، والحصبة، والتهاب الكبد الوبائي، واكتشفت تلك اللقاحات لتقي أجيالا أتت بعد ذلك.

كل ما في الأمر، أننا الآن محكومون بسلطة أخرى، غير السلطات التي نعرفها، ديكتاتورية تصنع الموت والخراب، والقلق والوسواس، والأسئلة الغريبة التي لم تكن لتسأل في زمان ماض.

21

من الصناعات التي لا بد تأثرت الآن، وتتأثر مستقبلا بسبب وباء كورونا، صناعة النشر عامة، وتلك المختصة بنشر الإبداع خاصة. وكنا نلاحظ ازدهارا كبيرا جدا في السنوات الأخيرة، في تلك الصناعة، مع تزايد عدد الذين طرقوا أبواب الكتابة الإبداعية، خاصة في مجال الرواية، ومع ازدياد الجوائز العربية، التي تعتبر المحفز الأول والأشد ضراوة في جعل الناس يبدعون، أو يكتبون مع وهم الإبداع.

صناعة النشر كانت مواكبة، وتقرأ المعطيات، وتشجع الكتابة التي سترشح لجائزة، وأيضا ترضي الكاتب من حيث شكل الغلاف وألوانه، وإقامة حفلات توقيع هنا وهناك، يحضرها الأهل والأصدقاء، وتلتقط فيها الصور التذكارية. وأظنني تحدثت عن تلك الحفلات مرات عدة، وسميت يوم التوقيع في معرض الكتاب يوم الكاتب الشبيه بيوم العرس، حيث يكون الكاتب نجما، ولا يعرف أحد إن كان سيظل نجما مضيئا بإبداعات مستقبلية، أم سيخبو، ويتحول عرسه الكتابي إلى صور وابتسامات عريضة، متوفرة في صفحات التواصل الاجتماعي.

دور النشر تواكب كما قلت، وتصنع اليوم المميز، والابتسامات العريضة، وتسعى للجوائز بكتب ربما لا يكون الناشر نفسه يعرف عنها أي شيء، ما دام الكاتب الطموح مستعدا لتمويل

كل ذلك. ولا عجب أننا صرنا نسمع يوميا عن نشأة دور نشر جديدة، تجد لها أسماء، وأجنحة ونتاجات، في معارض الكتب، وتجد كتابا وشعراء يحومون حولها، أو يجلسون داخلها في أيام الاحتفاء التي تخصص لهم، ينتظرون قارئا يوقعون له.

وأذكر أنني كنت أمر في معرض القاهرة للكتاب، العام قبل الماضي، وأقرأ لافتات أجنحة دور النشر، محاولا تخزينها في الذاكرة، وكان الأمر صعبا، لأن لا ذاكرة تستطيع تخزين عدد منهك مثل ذلك. وقد اعترضني أحد الشباب، وكان يعمل في إحدى تلك الدور، وطلب مني رواية لينشرها، دعما مني لداره، واعتذرت بالطبع لأنني أعمل مع ناشرين محددين، وأيضا لتأكدي أن داره لن توزع كتابي أبعد من أجنحة معرض الكتاب.

إذن ماذا حدث بخصوص النشر؟ وماذا سيحدث في الأيام المقبلة، إن استطعنا القضاء على كوفيد-19 أو لم نستطع، واضطررنا للتعامل معه كمرض مزمن موجود في البيئة، ينشط ويخفت، تماما مثل الإنفلونزا العادية، وحمى الملاريا والتايفوئيد؟

أولا نقول أو نذكر أن الكتابة الإبداعية ليست مورد رزق لأحد في الوطن العربي على الإطلاق، ومنذ عرفناها، استوعبنا الأمر هكذا، ونتعاطى معه بذلك الشغف الغريب. لذلك فإن الكتاب هم موظفون في وظائف أخرى يعيشون منها، وينفق معظمهم على الكتابة كما قلت، خاصة المبتدئين الذين يدخلون المجال بأحلام واسعة، قد تتحقق، ولكن في الغالب لن تتحقق أبدا.

تقول منظمة العمل الدولية إن آلاف الشركات، والمصانع الصغيرة، ستغلق أبوابها نهائيا في الأيام الآتية بسبب عدم قدرة ملاكها على مجاراة الوضع، وبالتالي سيفقد ملايين الموظفين سبل عيشهم، وسيرتفع معدل البطالة، والفقر إلى أرقام غير مسبوقة، حتى الشركات الكبيرة ستقلص حجم العمالة لديها، وتشرد كثيرين. هذا ليس عندنا في البلاد العربية، ولكن في العالم كله، وقطعا في البلاد العربية سيكون الأمر أقسى لأن الوظائف أصلا محدودة، وقليلة الأجر، وكثيرون جدا يعملون في وظيفتين أو ثلاث وظائف من أجل حياة لن أسميها حياة جيدة، ولكن مجرد حياة.

الكاتب الموظف، إن بقي في وظيفته، سيبقى خائفا من الغد، هل سيبقى يوما آخر أم لا؟ وبالتالي لا تمويل لنشر كتاب، وربما إلغاء تام لطموح الشهرة، واللمعان، والبقاء رب أسرة يحاول أن يقوم بواجبه البيتي لا أقل ولا أكثر.

الكاتب الذي فقد وظيفته، بالطبع سيفقد كل شيء يتعلق بالكتابة، وسينضم لقافلة الباحثين الأزليين عن عمل، لن يكون متوفرا، لأن ملايين الوظائف ألغيت. ويمكن أن تجد حتى متجرا عظيما مثل كارفور، يعمل بمحاسب واحد أو محاسبين، بعد أن كنت تجد جيشا من المحاسبين، يعملون على خدمة الزبائن. أيضا لن تجد عاملا يعبئ لك السلع في الأكياس لأنك ستعبئها وحدك، وربما لا تجد حتى أكياسا للتعبئة. وقد لاحظنا أن وظائف حراس الأمن ازدهرت في السنوات الأخيرة، وتجد في كل

مكان رجالا ونساء بأزياء قاتمة، يمنعون الدخول، أو يسمحون به، أو يسألون عن بطاقات شخصية، هؤلاء أيضا لن تجدهم، وستعتبر خدماتهم ترفا في ما بعد كورونا.

ماذا عن القارئ؟ القارئ المدمن، وغير المدمن الذي يقرأ من حين لآخر؟

إن كانت الكتابة ستعد ترفا بعد كورونا، فالقراءة ستعد ترفا أكبر، ولن يجد الكتاب حتى لو كتب ونشر ووزع، إلا قراء قليلين يشترونه بعد تردد، وبعد تقليبه مرات عدة وأتوقع أن تزداد شراسة القرصنة الإلكترونية، وتوضع الكتب في مواقع التحميل المجاني مباشرة بعد صدورها، ومن قبل أولئك الذين يظنون أنهم يعملون الخير. وكنت مرة عثرت على بعض كتبي منشورة بلا تصريح، في موقع إلكتروني، كتب صاحبه: عمل الخير هذا وقف لروح والدتي رحمها الله.

لقد افترض الرجل أنه قام بعمل كريم بسرقته لمجهود الغير، ولدرجة أن يتقرب به إلى والدته الراحلة.

أكثر ما يحزنني في ذلك المستقبل القاتم، هو أن الإبداع سيبدو مادة كئيبة، مادة مثل البكاء، والحزن.

أيضا يحزنني تقلص أعمال الترجمة التي بدأنا نحس بازدهارها في السنوات الأخيرة بترجمة الأدب العربي إلى لغات عدة، بعضها غير مطروق في الماضي مثل اللغة البولندية والصينية. مؤكد لن يحس العالم بحاجته لنشاط مثل هذا، مع الحاجة إلى الغذاء والدواء أكثر.

22

منذ سنوات، كنت كتبت رواية اسمها "إيبولا 76" مقتفيا أثر الهبة الأولى لمرض الحمى النزيفية، التي يسببها فيروس إيبولا، وكانت بالضبط في جمهورية الكونغو، وجنوب السودان. لقد كانت بالفعل هبة قوية، مدمرة، أسقطت آلاف الضحايا، لكن انحصر تأثيرها على مناطق محددة في القارة الأفريقية، ولم تمتلك أحذية تجوب بها كل البلدان المجاورة، ولا أجنحة تطير بها إلى بعيد وكان أن توقف إيبولا عن الأذى، ورقد خاملا سنوات طويلة. ثم ليستيقظ بعد ذلك في عام 2014، ويثير كثيرا من الرعب، لكن أيضا كان رعبا محدودا، حملت القارة الأفريقية معظمه، وعاد الفيروس إلى خموله من جديد.

الآن ظهر مرض كورونا، وهذه المرة في الصين، أكبر مصنع للجيد وغير الجيد من مفاصل الحياة الرغدة، الصين التي تخطت أفكار ماو تسي تونغ، ومجزرة تيان آن مين، وكثيرا من التواريخ غير المضيئة، وسطعت عملاقا، ولدرجة أنك تتلفت حولك في كل مكان، لتعثر على كل ما هو صيني، مثبتا أمامك، أو يمشي أمامك، أو يركض من حولك، ولم يبق سوى وقت قليل، لكي يندثر كل ما هو غير صيني، لصالح الصيني وحده.

لقد كان الفرق بين إيبولا وكورونا، منذ البداية واضحا، ذاك فيروس نبت في قارة مرهقة، وأخلص لها، وهذا في بلد عملاق،

سينتشر منه إلى العالم كله، ولن يصبح الرعب محليا كما قلت في رواية إيبولا، بل رعبا عالميا، وبكل اللغات واللهجات، وحتى بالإشارات في الأماكن التي قد لا تسعفها اللغة، لتعبر عن الرعب.

لست هنا للتحدث عن كورونا كأعراض ومضاعفات، أو كرشح وأنفلونزا وآلام جسم وسعال قد تنتهي بالموت، فهذا معروف، وتم تداوله بكثافة في الأيام والأشهر الماضية، في كل مكان، وحفلت نشرات الوقاية من المرض التي علقت في المستشفيات والمدارس ومولات التسوق بالصور والتوضيحات والإيماءات أيضا. وإنما أردت الإجابة عن سؤال ظل يرد إلى بريدي بكثافة في الأيام الماضية، من كتاب شباب، يتوقون إلى كتابة رواية وبائية، أي رواية عن وباء كورونا، وفي أذهانهم تدور أحلام كثيرة عن إمكانية النجاح والمجد، وربما جوائز بحجم الرعب الذي أحدثه، هكذا. كانوا يسألون:

كيف يمكن توظيف وباء كورونا في نص روائي؟ أو هل تعتقد أن رواية عن كورونا يمكن أن تنجح؟

في البداية كنت أتساءل: لماذا أسأل أنا، ولست وصيا على الكتابة، ولا أملك أي نصح كبير يمكن أن أهديه لأحد، ولست في النهاية سوى شخص حاول أن يكتب، فنجح حينا، وأخفق حينا آخر؟ ثم تذكرت فجأة أنني كتبت وباء إيبولا ذات يوم، لذلك، أصبحت من دون أن أدري، كاتبا وبائيا، لا بد من سؤاله، أسوة بآخرين قد يكونون كتبوا أوبئة مختلفة، إن كانوا أحياء، أو الاستفادة من تجارب من ماتوا منهم. ولدينا في تاريخ الكتابة

رواية "الطاعون" لألبير كامو، ورواية "الحب في زمن الكوليرا" قصة فرناندو داثا، وحبيبته زوجة الطبيب للعملاق الكبير ماركيز، وعناوين أخرى لكتاب آخرين.

إذن يمكن أن يكتب كورونا، كما كتبت تلك الأوبئة، ولكن صيغة الكتابة، ليست واحدة عند كل من أراد أن يحول ذلك الفيروس اللعين وما يسببه من تلف، إلى نص سردي. إنها فكرة مثل أي أفكار أخرى، موجودة ومتاحة، وسيتناولها كل روائي من وجهة نظر لا تشبه وجهة نظر زميله.

"الحب في زمن الكوليرا" وضحت منذ البداية أنها رواية حب، شخص عشق امرأة، وأخلص في عشقه لها، وانتظر حتى شاخ وشاخت، وتزوجا، وكانت قد تجاوزت حتى طور الجدة، بكل فداحاته، وانعدام الأنوثة فيه، حين اقترن بها أخيرا. فقط كانت الخلفية التي تجرى فيها الأحداث، زمن تفشي وباء الكوليرا في منطقة الكاريبي. ماركيز لم يجعل الهلع من الكوليرا ينسيه أن هناك قصة حب تدور أحداثها، وعلاقات أخرى متشابكة، تتفكك أو تزداد تعقيدا. وفي الوقت نفسه، لم يجعل ذلك العالم الروائي الثري ينسيه أن الزمن هو زمن الكوليرا، وأن كل ما يحدث لا بد يرتبط بوباء الكوليرا، اجتماعيا واقتصاديا وإنسانيا، ستكون ثمة آلام موحدة، أحلام موحدة، رعب موحد، وكذا كل شيء آخر.

ولأن أحداث الرواية تدور في زمن بعيد، الزمن الذي كانت فيه الكوليرا شيطانا يمكن أن يهجم فجأة، ويغدر بالناس، وتصعب

السيطرة عليه، فقد كان الهلع عظيما، إنه تقريبا الهلع نفسه الذي يحدث الآن مع انتشار كورونا. وأذكر أنني كنت صغيرا في بداية السبعينيات من القرن الماضي، وكنا في إجازة في قريتنا في شمال السودان، حين تفشى وباء الكوليرا، الذي يطلق عليه تهذيبا أو ربما محاولة لإخفاء الهلع: الإسهال المائي. كنت أرى الناس يتساقطون، خاصة كبار السن، وأرى الإسعاف التابع للمستشفى الوحيد في المنطقة يجوب تلك المناطق، يلتقط الذين يسقطون. وقد زودونا بكبسولات التتراسايكلين، التي كان يوزعها ممرض بزي أبيض متسخ وعينين ضائعتين من قلة النوم. لا أذكر أنني كنت خائفا أو مرتعبا، وربما لم تكن سني في ذلك الوقت قد تعرفت إلى الموت بصيغته الموحشة الكئيبة بعد.

المهم أننا نريد الآن أن نكتب فيروس كورونا، وقد أسميته الفيروس الطاغية، ليس بسبب جبروته، ففيروسات الإيدز وإيبولا، وحتى انفلونزا الطيور، أكثر جبروتا منه، وإنما بسبب سرعة الانتشار التي أحدثها توفر المواصلات في هذا الزمن، وإمكانية السفر لكل من أراد، وازدياد الاحتكاك في صالات الترانزيت، ومولات التسوق، وكل مكان قد يخطر على البال.

هنا وحين نكتب رواية هذا الوباء، سنكتب ذلك، نكتب سهولة الحياة، التي أدت لتعقيد محاولات القضاء على الفيروس، نكتب التداعيات الاجتماعية التي تحدث حين يتم عزل المصابين أو المشتبه في إصابتهم عن حيواتهم التي كانوا يعيشونها، التداعيات الاقتصادية بإلغاء الأنشطة التجارية هنا وهناك، انحسار كثير

من الأصناف التجارية، وازدهار صناعة الأقنعة الواقية، وهذا ما ذكرته في رواية إيبولا، حين حول صاحب مصنع النسيج صناعته إلى الأقنعة وحدها. الأنشطة العلمية والثقافية، والتعليمية، بتعليقها إلى وقت غير مسمى.

وفي النهاية لا يكتب ذلك وحده، لا بد من فكرة تدور حولها الرواية، متخذة من كورونا خلفية مرعبة للأحداث، هذا ما أعتقده أو ما كنت سأفعله، لو كتبت رواية وبائية أخرى.

23

كما نعرف جميعا، فقد أصبح في العالم العربي، في السنوات الأخيرة، كم كبير من الجوائز الأدبية، التي تمنح للإبداع بمختلف أنواعه، سواء كان شعرا أو نثرا، أو مسرحيات قابلة لتحويلها إلى أعمال مرئية.

بعض هذه الجوائز تمنح بأسماء بلاد نشأت فيها، أو أشخاص هم بالقطع ممولوها، أو ربما ورثوا تمويلها من آباء ماتوا، لكن استمر نهجهم. أيضا نجد عددا من دور النشر الصغيرة والكبيرة على حد سواء، ابتكرت جوائزها، وتمنحها سنويا تشجيعا للقراءة، وترويجا لأعمالها.

هذه الجوائز، التي في كثير من الأحيان لا تصاحبها أي عوائد مادية، بمعنى أن ينشر العمل الفائز فقط، من دون أي حقوق أخرى، لن تبدو مفرحة بكل تأكيد، ونحن نفهم الحزن والإحباط في حالة عدم الفوز بجائزة، لكن علينا أيضا أن نفهمه في حالة الفوز، وعدم حصول المبدع على أي شيء، سوى ورقة مستطيلة مكتوب عليها اسم الجائزة وتاريخ الحصول عليها، وصورة تمثله مع منظمي الجائزة، ووعد بنشر الكتاب في أقرب فرصة، ليلحق بمعارض الكتب، ويأتي صاحبه المحبط ليجلس ويوقع لقراء افتراضيين، قد يأتون وقد لا يأتون، وفي الغالب لن يأتوا لأن مسألة التوقيع هذه، التي تعرضتُ لها كثيرا في مقالاتي،

أعتبرها أكثر اقتباساتنا من الغرب فشلا، فالذي يجلس من الكتاب الغربيين في أي ركن أو زاوية حتى في الشارع العام، ليوقع للجمهور، ليس أي كاتب أو شاعر، إنه مبدع مغنطيس، يتبعه جمهور شغوف ومتشوق إلى أي مكان يذهب إليه، بينما عندنا لا اعتبار أبدا لهذه المسألة.

هنا لا أتعرض للجوائز الكبيرة التي أنشأتها دول أو مؤسسات كبرى مثل البوكر وكتارا والشيخ زايد وسلطان العويس والبابطين، والطيب صالح في السودان، ولكن أريد الإشارة إلى الجوائز الأخرى، التي بلا عائد كما ذكرت، وأحيانا حتى عائد نشر الكتاب لا يحدث.

هذه الجوائز نشأت بلا شك في فورة من حماس ما، ألمّ بشخص أو مؤسسة صغيرة تجاه حدث ما، أو نتيجة لوفاة مبدع يستحق أن يتمدد اسمه في جائزة، أو على أقل تقدير، ترويجا لدار نشر ناشئة، تحتاج لترسيخ اسمها قليلا عند قراء مستهدفين، تعلن أسماء تلك الجوائز، وتعلن شروطها البسيطة، وهي إرسال عمل مخطوط من كذا ألف كلمة، أو ربما أعمال منشورة حديثا، ثم الانتظار حتى تعلن الجائزة، ويتوج بها من يستحق حسب لجنة تحكيم الجائزة، وفي الغالب لن يكون هناك فائز واحد وإنما عدد من الفائزين، من الجائزة الأولى إلى الثالثة.

إذن لا مشكلة أبدا في تلك الجوائز، التي نشأت راسخة واستمرت راسخة، والتي نشأت بسبب الحماس، ومحاولة كسر الرتابة في مجتمع الكتابة والقراءة، وما دام المبدعون راضين

بالشروط التي تورد قبل التقديم، ويقدمون رغم ذلك بكثافة، وينتظرون بتوتر وشغف، ويعلنون فوزهم في صفحاتهم على مواقع التواصل الاجتماعي، إن فازوا، وأيضا يتلقون المواساة، إن خسروا، لا مشكلة لأن الرتابة هنا كسرت، والإبداع الذي يأتي في ذيل «البيزنس»، إن اعتبرنا الأمر مربحا، قد كسب صيتا ما بوجود جوائز تحمله على ظهرها، وتأتي المشكلة في عدم الوفاء بالوعود، حتى لو كانت بسيطة، وغير مكلفة، مثل أن يترك الكتاب الفائز سنوات قبل أن يتذكره أصحاب الجائزة، وينشروه، أو لا يدفع المبلغ البسيط جدا لمن يستحقه، وبلا أي سبب.

منذ سنوات، وفي عهد النظام المظلم، كنت في الخرطوم، وأخبروني عن مبدع حصل على جائزة في القصة القصيرة، قيمتها حوالي المئة دولار، كانت أعلنتها سلطة الولاية التي يقيم فيها، فرح كثيرا بتلك الجائزة، وارتفعت معنوياته وآماله، في أنه يستطيع أن ينافس بإبداعه ويحصل على جوائز، حتى لو كانت بسيطة، وتلك المئة دولار، رغم هشاشتها، وأنها مبلغ ضعيف إذا ما قورن بالمبالغ المالية، يمكنها أن تسد ثغرة ما في الحياة الصعبة. الذي حدث أن المبدع حصل على شهادة التقدير التي كتب فيها اسمه بحبر أزرق، ووقع عليها الوالي، ولم يحصل على المبلغ المرصود، طالب بحقه حوالي العام ولم يحصل عليه، وتوفي من دون أن يحصل عليه.

هذه جائزة حكومية كما يفترض، وقيمتها أقل من قيمة عشاء عادي يمكن أن يتعشاه أي مسؤول، في مطعم عادي على شاطئ

النيل، ولا تساوي شيئا أمام تلك الأموال الغزيرة التي نهبت وتكدست في خزائن بعيدة، وشيدت بها أبراج هنا وهناك، جائزة منهكة، صغيرة، ورغم ذلك لم تمنح لمبدع حصل عليها، ومات وهو ينتظرها، وكان السؤال: لماذا إذن هذه الجائزة؟ ولماذا إذن أعلن عن مبلغ مالي لها، وليست هناك نية لدفعه؟

كان من الممكن ترك الأمر، مجرد ورقة مستطيلة، وسيرضى بها المبدع، وسيبتسم وهو يحملها، أو حتى لا يعلن أصلا عن جائزة أدبية ما دام الأمر بهذه اللعنة؟

نموذج آخر، لا أعتبره احتيالا ولكن سوء تقدير من الذين رصدوا جائزة فيها مبلغ مالي، ولكن لم يقدّروا حجم الخسارة التي يمكن أن يقعوا فيها، وبالتالي وقفوا عاجزين حين حدثت الخسارة. هنا تعلن دار نشر متحمسة عن تلك الجائزة، وفي ذهن أصحابها ربح كبير من جراء بيع الكتب سيحدث، يغطي مبلغ الجائزة، ويفيض، وتطرح الكتب ولا يغطي بيعها شيء. هنا ثمة إحباط مشترك بين الناشر صاحب الجائزة، والمبدع الذي حصل عليها، وحرج كبير بكل تأكيد، قد لا يستطيع أحد معالجته.

لست ضد الجوائز كما أردد دائما، ولكن أتمنى قبل الإعلان عن جائزة، خاصة إن كانت مالية، أن يوضع مبلغها بعيدا عن الاستهلاك، ويصبح جاهزا ليتسلمه الفائزون، بدلا من طرح العشم بلا فائدة، وتحويل المناخ الإبداعي إلى ساحة صراع وتنافس على الوهم. الناس تحتاج لرعاية إبداعها، أكثر من احتياجها لتجويعه هكذا.

24

منذ سنوات كنت أعدت قراءة عمل لي من زمن البدايات، أي التسعينيات من القرن الماضي، وكنت فخورا به حين أنتجته، لأكتشف أنه لم يكن عملا سرديا خالصا، وإنما شيء أشبه بالقصيدة الطويلة، المليئة بالصور الشعرية المعقدة، على الرغم من وجود حكاية، ومن ثم قمت بمغامرة إعادة كتابة ذلك النص، وطرحته للقراءة وأعرف تماما أن هناك قراء، اطلعوا على النص القديم، ولا بد ستحدث مقارنة، وسينحاز كثيرون للنص الأصلي، ليس حبا له، ولا لأنه الأفضل في رأيهم، ولكن لأن الأمر كان مغامرة من الكاتب، ويوجد دائما تحفظ ما تجاه المغامرات، وأحيانا عنف كبير في التصدي لها.

ولأنني ذكرت في مقدمة النص الجديد، أنه إعادة كتابة لنص منشور، فقد تم سحبه من المشاركة في إحدى الجوائز المهمة، واطلعت على آراء قراء كثيرة، معظمها سلبي، وكما قلت، كنت أعرف ذلك، لكن هي الرغبة في تعديل مسار ربما كان معوجا، بحسب رأيي واستقام بإعادة المشي فيه من جديد، بغض النظر عن كل ما حدث. المهم أن الأمر كان درسا جيدا، استوعبته بكل جدية، على الرغم من كل تلك الخسائر.

هذا العام، ثمة مغامرة جديدة، وهي إعادة نشر رواية منشورة من قبل في طبعتين، ولكن بعنوان جديد، لا يقترب من العنوان

الأول، ومع ذكر ذلك في متن الكتاب، حتى لا يتبادر إلى ذهن أحد، أن ثمة تحايلا في تسويق كتاب قديم، بإلباسه ثوبا جديدا يغطي وجهه، ويمنع التعرف إليه.

في الحقيقة عندي في معظم الأحوال، وأنا واثق أن ذلك عند كتاب كثيرين أيضا، يأتي النص باسمه، أي أن الاسم يتبادر إلى ذهن الكاتب، إما أثناء تدويره للأفكار في رأسه، أو تخطيطه لكتابة نص ما، أو عند بداية الكتابة واستمرارها، مؤكد هناك اسم، قد يستقر عليه الكاتب بعد أن ينتهي من مسودته الأخيرة وقد يغيره، إلى اسم يرى أنه أكثر شمولية، أو أكثر جذبا للقراءة، ومعروف أن الكتب تؤلف لتقرأ، وأن القارئ هو الركيزة الأساسية التي يتكئ عليها الكاتب.

سيصدر النص بالعنوان المقترح إذن، وسيضاف إلى تاريخ الكاتب، في النهاية سواء أن لمع النص أو انطفأ، أحدث تأثيرا جيدا، أو بعض تأثير، أو لا تأثير على الإطلاق، وكثير جدا ما يعود الكاتب في لحظات حنين ما، إلى تقليب أعماله القديمة، بحثا عن دفء سنوات مضت، أو تأمل أسلوبه، كيف كان وكيف أصبح؟ هذا شيء عادي.

الذي يحدث في رأيي أن وسط ذلك الحنين، تندس رغبة مزعجة في إضافة شيء للقديم، أو حذف شيء منه، وهذه رغبة لا تتحقق غالبا، وهناك سيف اسمه: النص أصبح ملكا للقارئ، موجود، ومتداول، تماما مثل أن يولد طفل بحسناته وعيوبه، ويستمر فردا في المجتمع بتلك الصفات، ولا يمكن إعادته نطفة

لتعديله من جديد.

أنا أعي كل ذلك، وأعرف كل التفاعلات التي قد تأتي، ولكن أيضا لا أظنها شيء مهم باعتبار أن قراءة الأدب ليست أولوية قصوى في زمن يبحث فيه الناس عن أسرَّة وأ لحفة، ولقم للعيش، وأوطان دمرتها الحروب، وأخرى دمرها الجشع، وحولتها العصابات الغاشمة التي كانت تحكمها، إلى ظلال أوطان، أو حوائط أوطان هشة، يخاف المرء أن يتكئ عليها، فتسقط.

كان كثيرون يقرون أن النص من حق مؤلفه، يفعل فيه ما يشاء، ويستطيع تغيير عنوانه متى ما شاء إلى عنوان يراه أفضل بعد سنوات طويلة من نشر الكتاب، تماما مثل أن يغير أحدهم اسمه بعد أن يكبر، إلى اسم آخر يراه مناسبا له أكثر من الاسم الأول.

قرأت إذن نصي الذي ولد بعنوانه، وأحسست أن العنوان كان منصفا للحكاية، حملها ونشرها، ودعا إليها القراء بكل تجرد، لكن أيضا أحسست أن ثمة عناوين أكثر إنصافا، وتمتلك جاذبية أخرى، ربما لا يدركها الكاتب، ويدركها القارئ وحده، والآن أقول إن تذوق العناوين نفسه يختلف من قارئ لآخر، تماما مثل تذوق النصوص، أي أن ثمة ذائقة متنوعة للأمر. ففي حين أن هناك قراء يحبون العنوان المكون من كلمة واحدة فقط مثل: احتفاء، اشتهاء، موت، الطائر، الطريق.. هناك آخرون يحبون العنوان المكون من كلمتين أو ثلاث كلمات، أو حتى جملة طويلة من كلمات عدة، وقد لاحظت أن الأوروبيين والغربيين عموما،

خاصة يحبون تلك الجملة الطويلة، وأظنها تعبر بصدق عن نوعية كتاباتهم، فالذي يقرأ رواية فالاغان «الدرب الضيق إلى مجاهل الشمال»، الحاصلة على جائزة مان بوكر العالمية، والتي نقلها إلى العربية، المترجم خالد الجبيلي، يدرك أن العنوان لاصق بالنص، ولا يوجد ما يعبر عنه أفضل من ذلك.

المهم أن العنوان تغير في إصداري المعاد، وطرحت الأمر للمناقشة، ودائما ما أطرح أمورا للمناقشة، باعتبار أن إشراك الآخرين في المشاريع المرتبكة، أو حتى الصلدة نوعا ما، يعطي ضوءا آخر، ربما لا يبصره الكاتب، أو لا يشبه الضوء الذي يبصره.

الآراء متباينة هنا كما كنت أتوقع، كان كثيرون يقرون أن النص من حق مؤلفه، يفعل فيه ما يشاء، ويستطيع تغيير عنوانه متى ما شاء إلى عنوان يراه أفضل بعد سنوات طويلة من نشر الكتاب، تماما مثل أن يغير أحدهم اسمه بعد أن يكبر، إلى اسم آخر يراه مناسبا له أكثر من الاسم الأول. آخرون يرون خطأ التغيير، باعتبار أن متابعي الكاتب وقراءه المخلصين قد يشترون كتابه مرتين، بسبب تلهفهم إلى اقتناء كتبه.

هذا الرأي الأخير، قد يكون صحيحا في حالة أن الكاتب لم يشر إلى ما حدث من تغيير وترك الأمر مبهما، والحقيقة في حالتي، لم أترك الأمر بلا إشارة.

عموما هي تجارب في الكتابة والحياة، قد تصيب ويأتي من يتذوقها، ويعمل بها في مشاريعه الخاصة، وقد تخطئ، ويأتي من

يذمها، ولكن في النهاية يبقى الإخلاص للكتابة هو الأهم، ويأتي الأهم من ذلك، العمل لبناء الأوطان الممزقة، وإطفاء لوعتها وأشجانها بدلا من تأجيجها، لا قراءة للإبداع، في ظل البحث عن الأوطان.

25

رحل حديثا المترجم والشاعر المصري محمد عيد إبراهيم، وقبله بشهرين تقريبا، رحل الفلسطيني صالح علماني، وقبل هذين الفقدين الكبيرين بسنوات، فقدنا الصديق المترجم الانتقائي القدير طلعت الشايب، الذي رحل وهو في لجة الثقافة، أثناء مداخلة له في مؤتمر في مدينة دمياط.

مؤكد نحس بمرارة كبرى لرحيل، هؤلاء المترجمين، وغيرهم من الذين ربما قدموا بعض الإنجازات في علوم أخرى غير الأدب، مثل مترجمي كتب القانون، والزراعة، والهندسة، والرياضيات، فالترجمة ليست أدبية فقط طبعا، لكن اهتمام غالبية المثقفين بالشأن الأدبي، واقتصار معرفة مترجمي العلوم الأخرى، على الأكاديميين والدارسين، في تلك المجالات التي يعملون عليها، يجعل من مترجمي الأدب نجوما معروفين، يمكن أن ترد سيرهم دائما، ويمكن أن يستضافوا هنا وهناك للحديث عن عمل أنجزوه.

هؤلاء الذين ذكرتهم، كانوا مترجمين حقيقيين، أي أنهم عملوا بجهد لسنوات طويلة، ونقلوا لنا عبر الجسور الصلدة التي أنشأوها، ثقافات بعيدة ما كانت ستنتقل لولا جهودهم.

وأذكر منذ سنوات حين ظهر كتاب "صدام الحضارات" لصامويل هنتغتون، بترجمة طلعت الشايب السلسة، التي

حولت الفكري، الفلسفي، المفترض أنه نظريات صعبة، إلى كتابة سلسة يمكن تذوقها وفهمها والمشاركة في النقاش حولها، وقد كان الكتاب تحليلا منطقيا عن تلك الحروب التي قد تنشأ من استخدام هوية الناس الثقافية والدينية، وأظن أن هذا حدث عندنا بالفعل، ولا يخلو صراع نشأ، أو حرب أعلنت، من بصمة الهوية الثقافية، الدينية.

طلعت ترجم أيضا كتاب "الاستشراق الأمريكي" لدوغلاس ليتل، وكما هو واضح، يحكي الكتاب عن تطلعات أمريكا في الشرق، وترجم روايات لأهداف سويف، المصرية التي تكتب بالإنكليزية، وأيضا كتاب صلاح الدين للبريطاني طارق علي، وهو رواية تاريخية عن زمن صلاح الدين الأيوبي، أظنه بذل فيها مجهودا كبيرا، لتقرأ بنزاهة في العربية، وهي أسوة بالروايات التاريخية التي أبطالها أشخاص معروفون، لم تحد كثيرا عما هم معروف أو مطروح عن صلاح الدين واكتفى التخيل في رأيي بزمن صلاح الدين، واشتغالات على أعوانه، ومجايليه في ذلك الوقت من الأنصار والأعداء، وبالنظر إلى حجم الكتاب أكاد أجزم أن طلعت قضى سنوات في ترجمته، وتقريبه من القارئ العربي من أجل الاستمتاع والمعرفة.

صالح علماني قصة أخرى، أقرب للقصص الأسطورية التي كان يترجمها عن الأدب اللاتيني، إنه مترجم استثنائي فعلا، مترجم يمنحك إحساسا قويا أنه صاحب النص وليس ناقلا له. وقد قلت في رثائه، إنه لم يكن يترجم الرواية الإسبانية، وإنما يكتب

المقابل العربي لها، وأن فقده هكذا فجأة، بمثابة يتم معرفي للذين تعودوا على رشاقة أسلوبه، وذلك السحر الذي يقرأ في كل كتاب أنجزه، حتى لو لم تكن القصة سلسة. وقد كانت هناك بالفعل قصص ليست جاذبة كثيرا في الأدب اللاتيني، حولها صالح إلى قصص جاذبة، مثل رواية اسمها "عشر نساء" ما كانت ستقرأ في رأيي لولا أنها من ترجمة صالح. وبالرغم من أن هناك مترجمين كثيرين عن الإسبانية من جيل صالح، وما قبله وبعده، إلا أنه الوحيد الذي لمع هكذا، وأصبح في كثير من الأحيان أشد لمعانا من المؤلفين الذين ينقلهم. طبعا لن أتحدث عن روايات ماركيز التي قرأتها بترجمته، ولا روايات إليزابيث أليندي، وماريو فارغاس إيوسا وكثير من اللاتينيين الآخرين، تلك التي ارتبطت باسم صالح دون غيره، فكل ذلك معروف، وذكرته وذكره غيري كثيرا، لكن أتذكر بعض العلامات مثل "مئة عام من العزلة"، إنها رواية علامة في تاريخ الكتابة، وعلامة في الترجمة إلى العربية أيضا.

الذي أحترمه كثيرا في صالح، أنه لم ينتج رواية أو حتى يفكر في ذلك، كما قال لي مرة حين التقينا في الكويت، كما فعل عدد من المترجمين، تأثروا بالأجواء التي ينقلونها، وسيادة جنس الرواية على الإبداع في كل مكان، وكتبوا. هو لم يفعل ذلك، وظل مخلصا لمشروعه، وأظنه فاق المئة كتاب، وجعل من الأدب اللاتيني أدبا عربيا بنكهة لاتينية.

بالطبع جاء مترجمون آخرون للغة الإسبانية من جيل الشباب،

نستطيع الثقة بما يقدمونه، خاصة أن فيهم كتابا للرواية، مثل محسن الرملي الروائي المعروف، وأحمد عبد اللطيف الذي أثق في رواياته وترجماته معا، وهو من الموهوبين النادرين. وجاء مترجمون من اللغات الأخرى أيضا، خاصة الإنجليزية والألمانية، ونستطيع أن نثق بترجمات عبد المقصود عبد الكريم، وسمير جريس، وإيهاب عبد الحميد، الذي ترجم كتب خالد حسيني، وترجم مؤخرا كتاب رحالة للبولندية أولغا توكارتشوك، وكتبت عنه منذ فترة، بوصفه كتابا سرديا مختلفا، ومعرفيا أيضا، ينقلك من أرض إلى أرض بخفة الحكايات الشيقة.

محمد عيد إبراهيم، خسارتنا الأخيرة، هو أيضا كان مجتهدا ومكتشفا للكنوز التي يجب ترجمتها، وأظن أن الأدب الراقي قلما يترجم، وفي الغالب يترجم الأدب التجاري، أو الأدب الذي يباع بكثرة في الغرب. عيد كان شاعرا كبيرا، وبذلك سنجد اختياراته المهمة، ولغة الشعراء التي تظهر في ترجمته للإبداع، وهو ما نطلبه، بمعنى أن لا تكون الترجمة مجرد أداة نقل من لغة إلى أخرى، وإنما أداة مبدعة أيضا.

وكما قلت في الذين ذكرتهم، إن أهم ما يميز ترجماتهم، أنها جعلت من الترجمة فنا إبداعيا ملهما. وقد ترجم عيد عن جلال الدين الرومي، وترجم عن نظريات قصيدة النثر، بوصفها من اهتماماته، وحتى في وسائل التواصل الاجتماعي كان ينشر عن شعراء ترجم لهم.

إذن حزن الترجمة كبير، برحيل أولئك الكبار، لكن يوجد دائما

رحيل، يأتي مبكرا أو متأخرا، لا أحد يعرف، فقط رحيل يأتي ذات يوم، ويغيب الناس عن الوجود الفعلي، لكن تظل للذين قدموا شيئا للناس خطوات تمشي بها الأجيال الجديدة. إنها خطوات المعرفة والمتعة في القراءة.

26

من الأعمال الإبداعية المهمة التي نشرت عربيا في عام 2019، كتاب «رحالة» للكاتبة البولندية أولغا توكارتشوك، التي حصلت على جائزة مان بوكر البريطانية في العام الماضي، وظهر اسمها فائزة في جائزة نوبل المؤجلة، كما ظهر اسم النمساوي بيتر هاندكه فائزا بنوبل التي تلت، والتي أعلن عنها مع المؤجلة في يوم واحد.

اسم أولغا لم يكن غريبا عليّ، وتعرفت إليه لأول مرة منذ سنوات، حين عثرت عليها، ضمن كتاب دار نشر إيطالية، كانت نشرت لي ترجمة لإحدى رواياتي، كان من الواضح أنها كاتبة لامعة، لأن الدار خصتها بمساحة أكبر، وكتبت عنها كلاما كثيرا بالإيطالية لا أعرف معناه، لكن دائما ما تهتم دور النشر بأولئك الكتاب الذين يشرفونها من ناحية السمعة، وأيضا تستطيع أن تربح بواسطتهم، باعتبار أن النشر أيضا عمل تجاري واستثماري في كل مكان، لذلك كنت أتابع مراحل الإعلان عن صدور كتاب «رحالة»، وحصلت على نسختي بسهولة، حين كنت في نشاط ثقافي في الكويت، من ضمن معرض الكتاب هذا العام.

كتاب «رحالة»، لا يمكن أن يكون رواية لأن لا أحداث واضحة، ولا معمار روائي موحد تتحرك في فضائه الشخصيات، وأيضا لا شخصيات مستمرة، تصنع دراما متصاعدة، كما نتوقع ونرى في

كل الروايات تقريبا، أيضا لا يمكن اعتباره قصصا قصيرة، كما جاء في تصنيف الكتاب على موقع أمازون، لأن معظم ما يحكى داخل الكتاب لا يشبه القصص القصيرة، حتى تلك التجريبية منها، مثل الومضة والدفقة الشعرية وغير ذلك، كما لا يمكن أن يكون خواطر نثرية لأنه ليس كذلك.

إذن يمكننا أن نقول إنه كتاب سردي فيه كثير من الغموض والوضوح أيضا، فيه شخصيات جيدة تصلح لأن تكون أبطالا في أعمال روائية، وشخصيات هامشية تصلح لأن تكون هامشية في الروايات ولأن ما يروى في الغالب يأتي بصوت الراوية المتنقلة من بلد إلى بلد، ومن حكاية صغيرة إلى أخرى أصغر أو أكبر، سيكون الكتاب مشاهدات لرحلات شتى يقوم بها شخص ما، هو الراوي أو الراوية، وأيضا مشاهدات أخرى لا تروى بواسطة الراوي المذكور. باختصار هو كتاب معقد وممتع ومغو للقراءة، وتستطيع أن تقرأه بسرعة وتحس بالجمال فيه.

أحيانا تتمنى لو كان رواية، ذلك حين تمسك بقصة مثل قصة الرجل الذي أضاع زوجته وابنه في غابة صغيرة، في بلدة ساحلية صغيرة، واستنفرت البلدة كلها للبحث عنهما ولم يعثر لهما على أثر. هبطا من السيارة لقضاء حاجتيهما في طرف الغابة، ولم يظهرا مرة أخرى. نحن نتابع الدرب الذي سلكاه عشرات المرات صحبة الزوج والشرطة والأهالي، ننتقل لأماكن أخرى قد يكونا طرقاها، مثل جبال ساكنة قريبة، وسفينة راسية على الساحل، نلتقي بوجوه كثيرة وجهود كثيرة ولا أثر، نحس بالضياع وأننا

بحاجة لمخرج، لكن الكاتبة تترك القصة هنا لتبدأ منحنى آخر في الغالب أكثر جاذبية، وأظن أن ثمة ذكاء كبير هنا لأن القارئ لا تقنعه النهايات المبهمة غالبا، وسيضع نهايته الخاصة لقصة المرأة وطفلها، وشخصيا وضعت نهاية تلائم تفكيري وهي أنه لم يكن يرافق الزوج امرأة وطفل قط، وأنه كان وحده، ويتوهم وجود أحد معه اختفى فجأة.

مشاهد أخرى للرواية تتحدث عن مطار ما وامرأة ثرثارة التقتها في صالة المغادرة الأخيرة، وتناولتا قهوة وأحاديث متشعبة عن حياتهما، هي قصة عادية وتصادفنا كثيرا في السفر، حيث لا بد من شخص ثرثار أو اقتحامي، يغتاظ من عزلتنا حين نكون نقرأ أو نتأمل، أو حتى نجلس بلا أي شيء، وتبدأ حكايات لا مناص من سماعها حتى موعد الطائرة. القصة المربكة التي راقت لي كثيرا، هي قصة الرجل الذي جاء من بعيد، واستقر في جزيرة صغيرة، ويقوم بقيادة سفينة صغيرة بين الجزر، ينقل فيها الموظفين من أماكن سكنهم إلى أعمالهم والعكس، ينقل طلاب المدارس، والسياح الذين قد يكونون متوافرين هناك، ويحلم دائما بالعودة لوطنه، الذي جاء منه، لكن لا وطن سوى البحر والسفينة الصغيرة والعمل اليومي، الذي لا ينتهي، ثم في النهاية يخالف كل ذلك وينطلق بسفينته الصغيرة المتهالكة إلى عرض البحر، وسط رعب الركاب. هذه قصة عن الهوية والأحلام والمكاسب الشاحبة أمام خسارة الوطن.

صحيح أن الأوطان ليست كلها طيبة، وليست كلها جميلة

وليست كلها ترحب بأبنائها أو تمنحهم ثدي الرضاعة والحضن الآمن، لكن الأبناء يخترعون الإيجابيات كي يبقوا فيها أو يعودوا إليها مهما طال الغياب، وكنت تحدثت كثيرا عن أحاييل الحنين التي تضفر في الغربة بحبال متينة، وتمنح المغترب مشاهد شديدة الإغراء لوطن لا يشبه تلك المشاهد، ولا يكتشف خدعة الحنين إلا حين يعود. أوطاننا نحبها كثيرا لكن لا نستطيع الجزم إن كانت تحبنا أم لا؟

مشاهدات كثيرة في كتاب «رحالة»، بعضها بسيط وبعضها متشعب، ولغة عظيمة تضفر المفردات المطلوبة ببعضها، لإخراج نص محترم وجديد وشديد الخصوصية، ولعل قدرة المترجم إيهاب عبد الحميد أيضا منحت النص روحا عربية، بحيث تقرأ النص كأنك تقرأه بلغته، على الرغم من أنه ترجم غالبا عن الإنكليزية، وهذا يشير إلى تطور الترجمة لدينا في السنوات الأخيرة، وأنها لم تعد حكرا على مترجمين معينين يغلقون على جمالياتها في خزائنهم، إنها فن كبير ومتسع الآن، وقرأت روايات لمترجمين جدد، أحببتها كثيرا.

في النهاية سنعتبر نص أولغا المعنون «رحالة»، من النصوص التي يجب قراءتها، هو نص للمتعة والمعرفة والتأمل ومتابعة التجريب في الكتابة.

27

كنت طرحت تساؤلا للأصدقاء في فيسبوك، عن جدوى ما يسمى بالأعمال الكاملة لمبدع ما، والتي تعني تجميع أعماله كلها، في مجلدات تتراوح في الحجم والعدد حسب منجزه، وطرح تلك المجلدات على القراء. قلت هل هذا مهم فعلا، وإيجابيا، أم ماذا؟

كانت الآراء التي تصدت للتساؤل كثيرة، وهذا جانب إيجابي من جوانب منصات التواصل الاجتماعي، أن هناك بالفعل مواضيع يمكن أن تناقش بجدية بعيدا عن ما يعرف باللايك، أو علامة الإعجاب التي يركض خلفها كثيرون من دون أن ينشروا ما يثير الإعجاب.

تلك الآراء كانت متباينة، فهناك من يؤيد الفكرة، ويعتبرها جزءا من إنجاز الكاتب، أن يسعى لجعل أعماله كلها تتوفر في مجلدات محصورة، وبالتالي يسهل العثور عليها عند الطلب. أيضا ذلك يسهل دراستها للذين يودون الدراسة من طلاب أو أكاديميين، إضافة إلى أن المجلدات عادة تحمل غلافا صلدا، يصعب أن يتمزق، وبذلك يمكن الاحتفاظ بالأعمال في مجلدها من دون أي تأثر بالزمن.

الذين رفضوا الفكرة، رفضوها لكونها مكلفة في الطباعة، وبالتالي غالية الثمن، وفي الوقت نفسه بعيدة عن طقس التغيير الذي

يحبه القراء دائما، أي أنهم يقرأون لكاتب معين عملا، ويذهبون لكاتب آخر أو كتاب آخرين، قبل أن يعودوا للكاتب الأول، في عمل آخر. إنها نزعة تحبها القراءة فعلا، وكلنا لا نستطيع أن نستمر في مطالعة أسلوب واحد لأشهر، ننتهي من نص، ونبدأ آخر مجاورا في المجلد نفسه. والحقيقة قد يكون القارئ يملك أعمال كاتب ما كلها، في مكتبته، لكنها مفردة، كل كتاب بنكهته ولون غلافه، وأجوائه، بالرغم من الأسلوب الواحد، وهنا لن يجد القارئ نفسه متورطا في تلك الأعمال، وعاكفا على قراءتها بالتتابع، سيقرأها ولكن حين يأتي وقت قراءتها.

ولو نظرنا إلى كاتب ضخم بأسلوب واضح ومميز، وعدد كبير من النصوص الإبداعية، مثل إبراهيم الكوني، لوجدنا ما ذكرته. فأنت تستطيع قراءة إبراهيم وأجواءه في أوقات متفرقة، كل كتاب وحده، بطقس قراءة له، وهنا تستطيع أن تستمتع وتنبهر، وتحس بطعم الجو الغرائبي، والأحداث المشوقة، بعكس تجميع تلك الروايات في مجلد، قد تحس بالملل، إن استمررت في مطالعة نصوصه لأشهر أو أعوام، من دون تغيير.

بعض الذين علقوا على التساؤل، تحدثوا عن جدوى الأعمال الكاملة في الشعر، أي أنها تناسب الشعر كثيرا، ولا يمكن أن تناسب الرواية، ذلك باعتبار الشعر نصوصا قصيرة، مربكة في أي لحظة، وكل دفقة شعرية لها معنى، وقوام مختلف. وقارئ الشعر في العادة حساس لتلك الإمكانيات الجيدة التي يملكها الشعر، ومتفاعل معها، ولن يهمه إن كان الأمر ديوانا شعريا

صغيرا، به عشرين أو أربعين دفقة شعرية، أو مجلدا ضخما يؤوي خمسة أو ستة أو حتى عشرة دواوين داخله.

أنا أؤيد هذا الرأي، وأرى أن قراءة الشعر، في كل الأوقات، هي قراءة ممتعة ولا تستهلك وقتا، ويمكن قراءة دواوين عدة لشاعر ما، مجمعة في مجلد، في ساعة واحدة. تلك الساعة التي لا تكفي لإنهاء صفحات قليلة من رواية، وقد جربت ذلك في دواوين لأدونيس، والسياب، ومحمود درويش، وكانت قراءة سهلة كثيرا.

بالنسبة للرواية في رأيي، يبدو الأمر مخيفا، خاصة للذين يكتبون روايات طويلة، متشابكة الصفحات، ولا يعرف القارئ متى تنتهي، وهناك من يكتبون ثلاثيات، ربما يضمونها في مجلد واحد، ويبدو شكل المجلد مرعبا، ولا ينادي القراء العاديين، الباحثين عن متعة في الكتب، وربما ينادي فقط محبي الكاتب، وعشاق قراءته.

رواية مثل "ظل الريح"، لكارل رويس زافون، تستغرق قراءتها وحدها أياما طويلة، وربما أشهرا إن لم يكن القارئ متفرغا للقراءة فقط، وتصبح المسألة غاية في الصعوبة، حين نعلم أنها جزء أول من ثلاثية تضمها و"لعبة الملاك" الضخمة أيضا، و"سجين السماء". ولنا أن نتصور إن وضعت تلك الثلاثية في مجلد واحد، إنه ببساطة سيكون قراءة العام كلها، أي سيسرق وقت القراءة المخصص في العام كله من دون أن يترك فرصة لكتاب آخر أن يبزغ في قراءة أحد. إذن لنقرأ تلك الثلاثية منفردة، كل كتاب ووقته، وبين كل قراءة وأخرى، نحاور كتابا آخرين،

وأجـواء أخـرى.

بالنسـبة لعشـاق تزيين المكتبات، أعتقـد أن المجلدات أو الأعمـال الكاملـة، أدوات تزيين جيـدة وفخمـة، ويمكـن أن تصمـد لتـورث للأجيال، ونشـاهد كلنـا في بيـوت نزورهـا، أو حـتى بيوتنـا، صفوفا من المجلدات، في الغالب مغبرة بسبب عدم اقتراب أحد منها. هذه المجلدات ربما تحوي كنوزا، لكن ذلك لم يكن سبب اقتنائها في الغالـب، لقـد وجـدت هنـاك في تلك الرفـوف، لتلفـت النظـر إلى ثقافـة غـير موجـودة، ثقافـة متوفـرة فقـط في إمكانيـة أن تشـتريها مـن مكان عرضهـا، وتـأتي بهـا. وقـد سـألت مـرة صديقـا لاحظـت أن مكتبتـه لا تحـوي سـوى المجلـدات، ولا يوجـد فيهـا أي كتـاب عـادي صغـير، هـل تعـرف شـيئا عمـا يوجـد داخـل تلـك الكتـب؟

رد ببساطة: أبدا.

هـذا الصديـق وآلاف غـيره، يعتمـدون بالضبـط عـلى المشـهد المبهـر، للإيهـام بالثقافـة، وقطعـا لا يتوقعـون أن يسـألهم أحـد، وإن سـئلوا لـن يكونـوا في الغالـب في مثـل صراحـة ذلـك الصديـق، سيخترعون إجابات يرونها ملائمة بكل تأكيد، مثل: قرأت بعضها، تصفحتها، قرأتها منـذ سـنوات ونسـيت مـا تحويـه... هكـذا.

خلاصـة الأمـر، لتكـون الطبعـات المنفـردة للكتـب موجـودة، بأغلفتهـا وشـخصياتها الحميمـة القريبـة لقلـوب القـراء، ولتكـن مجلـدات الأعمـال الكاملـة أيضـا موجـودة بغـرض التوثيـق،

والدراسة، والتزيين أيضا، وليختر كل منا ما يلائمه. وشخصيا أحب التنوع في كل شيء، وحتى في الطباعة العادية بالأغلفة الورقية، طالما ناديت بوجود طبعات فاخرة وأخرى شعبية للكتاب نفسه، ولكن لا استجابة حتى الآن. الناشرون يتبارون في تصميم الكتب وبيعها بأسعار غالية، وتلك سلع أصلا غير رائجة، فلماذا تحول إلى سلع استفزازية؟

28

إذا اتفقنا بأن الرواية أو السيرة الروائية، هي في النهاية مجتمع متجذر، بكل شروط المجتمعات ومعطياتها، يتكون داخل نص شبيه بنصوص الحياة العادية، فلا بد إذن من مكان جغرافي حقيقي أو مخترع، لتجري فيه الأحداث.

والمكان ولكي يمنح هبة احتضان النص كاملة، لا بد من رسمه بإتقان، لا بد من رصد تفاصيله، ووضع مكوناته، كل في مكانه الطبيعي، بمعنى أنه لا بد من بيوت للسكنى، من شوارع للمشي فيها، من أسواق للشراء، وأركان مضيئة أو معتمة للثرثرة. لا بد من قرية أو مدينة أو وطن لتمجيده أو عتابه بحسب ما يحكى في النص. وقد اعتدت في قراءتي للأعمال الروائية، أن أتعمق في تذوق مكان الأحداث أولا، وجمع تفاصيله للاحتفاظ بها في الذهن، ومن ثم متابعة العمل الروائي، ورؤية مدى حنكة الروائي في جعل القارئ، ماشيا أو راكضا أو متعثرا، حتى غافيا باطمئنان داخل مكانه النصي.

كان غبرييل غارسيا ماركيز يبهرني بمكانه الأسطوري، ذلك المكان المخترع لنصوصه باستفادة كبرى من بيئة الكاريبي، وما تمنحه من تميز حتى على صعيد الفقر والتشاؤم وتذوق الأساطير المتجذرة والعابرة، والذي يتعرف إلى قرية ماكندو التي أنشأها الجد خوسيه أركاديو بوندیا، في "مئة عام من

العزلة"، وأضحت بعد ذلك مكانا جغرافيا محتملا، بملامح القرى الكاريبية، لا يحتاج لكثير عناء، أن يلم بكتابة ماركيز بعد ذلك، سيلم جيدا بأحداث روايته العظيمة "الحب في زمن الكوليرا"، والعظيمة الأخرى "أحداث موت معلن"، وحتى في قصته الحقيقية "حادث اختطاف"، حين حكى عن صديقته التي اختطفتها عصابات بابلو أسكوبار، سلطان المخدرات في كولومبيا وأطلقتها وهي على حافة الانهيار. في كل تلك القصص، تتنوع الحكايات وقد تتنوع أسماء القرى والمدن التي تجري فيها الأحداث، لكن في النهاية، نحن إزاء المكان الجغرافي المستوحى نفسه، المكان بما وهبه وما قد يهبه مستقبلا.

هاروكي موراكامي، ذلك الياباني الملهم، هو أيضا وضع لبنات مكانه النصي في البداية ومن ثم نوع حكاياته بحيث لن تخرج من خريطة طوكيو الحقيقية، بالرغم من جعل العالم غرائبيا ومزدحما بتفاصيل كثيرة، القارئ لا تهمه أشياء كثيرة في النص، بقدر ما يهمه خيط قوي، أو عصا سحرية مستعدة لقيادته داخل النص، المكان، وإتاحة الفرصة له ليلم بالمعالم المهمة. لذلك ستبدو القراءة لموراكامي في البداية مغامرة كبرى، لكن بعد الإلمام ببيئته جيدا، تصبح القراءة ممتعة.

من الروايات التي قرأتها وما تزال أصداؤها ترن في ذهني بسبب ما قدمته من خدمة جيدة بالتعريف بالمكان جغرافيا واجتماعيا واقتصاديا، رواية "الوله التركي" لأنطونيو غالا، إنها رواية ضخمة تدور أحداثها في اسطنبول، قصة حب قد تكون غير متكافئة بين فتاة إسبانية مرفهة، ودليل سياحي تركي على حافة الفقر،

ويعيش بشخصية تحتوي على كل الصلف العثماني القديم.

لقد نقل غالا ببراعة شديدة، مكانا قطعا زاره، وتمعن فيه، وحفظ جزءا كبيرا من تفاصيله، وأظنها كانت رواية قصدية، أن تكتب فقط عن اسطنبول إحدى المدن المثيرة للجدل بتنوعها الكبير، واحتضانها لتاريخ قوي، يصعب تخيله أو الإلمام به، وستكون مهمة الدليل السياحي في البداية وقبل أن يأسر الإسبانية في حبه، أن يصحبها في جولات سياحية مع الوفد الذي أتت معه. وسنرى في تلك الجولات السياحية، عددا من المساجد القديمة الضخمة، عددا من القصور التي لا يمكن التخيل، كيف بنيت أصلا، سنرى البازار الكبير، ونشم رائحة التوابل فيه، وسنرى السجاد المتنوع، المنسوج ببراعة والمنسوج بإهمال، وأيضا سنرى مغيب الشمس في خليج البوسفور، وكل ما يمكن أن تضمه خريطة سياحية لمدينة مثل إسطنبول. وأظن أن المدينة هنا جاءت بالثوب المزركش أكثر من اسطنبول نفسها التي تجيء في كتابات الأتراك مثل أورهان باموق وإليف شفق، هنا المكان تلقائي بكل حسناته ومساوئه، فالكاتب التركي ليس سائحا ولن يقدم خدمة سياحية لبلده، هو يصنع مكانه الموازي لمدينة فيها الخير والشر، الشوارع الواسعة والأزقة، الأمن والرعب، النساء الجميلات والخاليات من صيغة الجمال، هكذا.

أيضا رواية مثل "ظل الريح" للإسباني كارل رويس زافون. هذا كاتب من برشلونة، ومؤكد هو ملم بخارطتها الجغرافية

والإنسانية، وحين كتب حكايته عن الكتب المنسية في أحد الأماكن، بكل تلك الغرابة والفن، لم ينس أن يسير بنا في الشوارع البرشلونية، متبعا اللافتات نفسها التي تسمي بها البلدية تلك الشوارع. هو لن يقول مثلا: انحرفت إلى شارع واسع، ولكن سيسمي الشارع باسمه الرسمي، كذلك سيسمي المكتبات، وأماكن بيع التحف والملابس بذات الاسم الموجود في الواقع، فقط سيكون النص خياليا، تم استلاف مكان مزدحم بالتفاصيل لاحتضانه.

هذا يقودنا لمسألة الإلمام بالمكان التي ينبغي توفرها لدى الكاتب من أجل صياغة مكان مواز، أي البيئة التي يخبرها الكاتب بحكم نشأته فيها، أو خبرها مؤخرا بعد أن سافر إليها بغرض العيش فيها أو لمجرد الزيارة السياحية كما شاهدنا في "الوله التركي". تلك البيئة في رأيي أول ما يتبادر لذهن الكاتب حين يضع قدمه في درب الكتابة، سيطرقها على الفور مستوحيا مكانه النصي منها، وسيستمر في طرقها في كل نص جديد، في الغالب، ما لم يكن نصا تاريخيا أو عن مكان بعيد، وسينتبه إليها القارئ، ولن يلهث خلف التفاصيل مجددا، ذلك أنه يعرف المكان، فقط سيتابع الحكاية الجديدة.

وبحكم عملي منذ سنوات في التدريب على الكتابة الإبداعية للشباب ممن شغفوا بالكتابة وأرادوا قواعد علمية لاتباعها، كنت أنبه إلى رسم المكان أولا قبل أي حوار أو حدث مهم، لأنني كقارئ لن أتفاعل مع الحدث جيدا، ولن أهضم الحوار الذي

يدور بين شخوص معينين ما لم أتعرف إلى المكان الذي تدور فيه الحكاية، والشخصيات التي تتحاور داخلها. غير مقبول أبدا أن تضعني في نص بلا معالم، وتطلب مني الاستمرار، إنه أشبه بوضعي داخل غرفة من الصلب، وبناء حائط مكان الباب، ومن ثم تطلب مني الخروج منها.

29

لا شك في أن مسألة ارتباط الرواية بالسينما، والسينما بالرواية، من الموضيع الأثيرة لدى المحاورين، في الزمن الحاضر، ودائما ثمة أسئلة في الحوارات الصحافية والاستطلاعات العامة التي تجري بين حين وآخر، عن هذا الموضوع، وتوجد في الأذهان روابط كثيرة، عمقتها موجة من الأفلام الجيدة، التقطت حكايتها من روايات منشورة، وذاع صيت الرواية والفيلم في الوقت نفسه.

وفي حوار أخير هادئ لقناة تلفزيونية، تحدثنا عن هذا الموضوع باستفاضة، وكان لديّ رأيي الذي أردده دائما، من أن القصة السينمائية التي تؤخذ من نص سردي، لن تكون أبدا هي النص السردي، والذي سيحدث حين نرى الفيلم هو مشاهدة نسخة أخرى من القصة، نسخة قد تكون أجود من التي كتبت، وقد تكون أسوأ، وقد تكون مجرد قصة طافت بجو الرواية المكتوبة وقدمتها للمشاهدين.

وحين نريد قراءة آراء من قرأوا نصا في كتاب، وشاهدوه في السينما أو التلفزيون بعد ذلك، سنجد آراء متباينة، خاصة من عشاق القراءة المدمنين على الكتب، وهؤلاء هم من سيغضب، ومن سيرى أن الرواية التي قرأوها قد شوهت بإضافة تفاصيل لم تكن مكتوبة، وحذف تفاصيل كانت موجودة وتزين النص.

آخرون لن يحسوا بشيء إن كانوا قرأوا الرواية بعد أن شاهدوا الفيلم، أي أن الفيلم هو من روج للرواية وليس العكس، وهؤلاء هم الغالبية الموجودة الآن، وتدعم القول إن القراءة في انحدار، ولا تقترب كثيرا من الفنون البصرية، وأهمها السينما طبعا، المهم أنهم شاهدوا الفيلم واقتنوا الرواية وقرأوا بلا مقارنة، لمجرد معرفة لماذا اختير النص ليقدم دراميا.

الذي يجب ملاحظته أن كاتب السيناريو، وبمجرد حصوله على موافقة المؤلف لتحويل نصه الروائي إلى فيلم سينمائي أو مسلسل تلفزيوني، يأتي برؤيته الخاصة، وسيعمل على إعادة تفصيل قصة الفيلم، وتفاصيله وأجوائه، ويحاول بقدر الإمكان أن لا يبتعد كثيرا عن الأصل، خاصة إن كان الكاتب قريبا من نصه، ويزعج كاتب السيناريو بين حين وآخر بالسؤال عما يحدث، وحين يفرغ ويقدم رؤيته المكتوبة، لا بد من حصول انفعال ما، سيردد الكاتب، أنها ليست قصته، ويعلم تماما أنها قصته فقط أضيفت لها رؤية أخرى، ومؤكد متعة جديدة، حين تمت قراءتها ببصر السينما المختلف تماما عن بصر القراءة العادية.

هناك مشاهد سينمائية كثيرة داخل النص، هناك صور تتحرك أمام القارئ بتشويق عجيب، أيضا لا نجد تلك الغرائبية المعروفة عند ماركيز كثيرا، لأنه كما قلت، كان يكتب رواية سيناريو، بوعي تام.

كثير من التفاصيل لم تكن موجودة، ووجدت لأن السينما تريدها، كثير من التضاريس الموجودة في النص، أزيحت لأنها

قد تزعج رؤية السيناريست، وتؤخر من نضج الفيلم، الذي سيعرض بعد ذلك، ويقول فيه الجمهور كلمته. ولأن الروايات التي تصلح للسينما باتت كثيرة، ومن الصعب الحصول على نص وسط هذا الكم من الكتابة، نلاحظ أن السينما لم تعد في السنوات الأخيرة تعتمد على الروايات المنجزة أصلا، وأصبح كتاب السيناريو، ينجزون قصصهم بأنفسهم من دون اللجوء إلى كاتب روائي.

أيضا تحول عدد من الكتاب الروائيين إلى السيناريو هاجرين الرواية، لأن السيناريو يمكن أن يكون مهنة ذات عائد مادي، يساعد على الحياة، بعكس الكتابة التي تأكل العمر بلا عائد جيد، وأصلا لا يمكن الاعتماد عليها في الحياة الرغدة، أو حتى غير الرغدة، ولو صادف وحصل كاتب على حقوق جيدة في أحد الأعوام وفرح بها، فالأمر في الغالب فرحة مؤقتة، ما تلبث أن تموت في الأعوام التالية، حين تأتي الحقوق كسيحة وذابلة، وكسيرة الطرف.

تطرق حوارنا إلى أعمال عديدة تحولت إلى أفلام سينمائية ونجحت، وكان الأمر حقيقيا، إما لأن الرواية كانت عملا مهما مشهورا، وذهب الجمهور إلى الفيلم بناء على ذلك، أو لأن الفيلم كان جيدا وشجع الجمهور، الذي لا يقرأ كثيرا أن يبحث عن الرواية ويقرأها، ونجد من نوعية هذه الأعمال روايات مهمة مثل «الحب في زمن الكوليرا»، و«أحداث موت معلن» لماركيز، و«عداء الطائرة الورقية» للأفغاني خالد حسيني، وكلها روايات

مليئة بتفاصيل كثيرة تم اختصارها عند كتابة السيناريو، لكن الأعمال في النهاية، كانت مؤثرة في رأيي، أعني الروايات والأفلام التي أنجزت منها، بالنسبة ماركيز، صاحب الخيال الكبير، لن نقول بأن أحدا اعتدى على خياله، وقدم نصه بلا بهارات للسينما، ولكن نقول إن خيالا موازيا نشأ في تلك الصنعة الأخرى، وامتلك زمام الأمور، ولأن ماركيز اهتم بكتابة السيناريو، بجانب كتابته للرواية، كان يعرف ما ستؤول إليه الأمور، حين يؤخذ فيلم من قصته، وتبدو لي رواية «أحداث موت معلن»، مكتوبة بحيث تصبح فيلما في يوم ما، هناك مشاهد سينمائية كثيرة داخل النص، هناك صور تتحرك أمام القارئ بتشويق عجيب، أيضا لا نجد تلك الغرائبية المعروفة عند ماركيز كثيرا، لأنه كما قلت، كان يكتب رواية سيناريو، بوعي تام. شيء مهم تحدثنا عنه، وهو مواصفات النص الذي سيتحول إلى سيناريو، وهل توجد فعلا مواصفات؟ الإجابة في رأيي توجد روايات تسهل عمل السيناريست، وروايات تصعب عمله، وتملي عليه كثير من الاجتهاد، فالتي كتبت بطريقة واضحة، وصور واضحة، هي التي تسهل، بينما المعقدة جدا، تبدو مهام عسيرة، لكن بالمقابل هناك كتاب سيناريو موهوبون، ويستطيعون تحويل قصة قصيرة، وقصيدة شعرية، إلى فيلم سينمائي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مؤكد نشتري جميعا الكتب بدوافع مختلفة، قد تنتهي كلها عند القراءة، وقد تظل مجرد دوافع نملكها، ونشتري بها دائما، باستثناء القارئ النهم الذي تسكنه الكتب أبدا، ويظل وفيا لعادة الشراء حين يزور المكتبات العامة بصفة دائمة، ويرتبط بعلاقة وثيقة بمنافذ التوزيع في أي مكان بما في ذلك، الأزقة الضيقة شبه المهجورة التي تعرض فيها كتب قليلة، والمطارات التي يختلط فيها الكتاب بسلع أخرى رائجة مثل البطاطا والتبغ والحلويات والفواكه المجففة، ومسند الرقبة المطلوب بشدة للمسافرين إلى الأماكن البعيدة، وقد لاحظت في هذه المتاجر المختلطة في المطارات، أن الكتاب غير مميز فعلا، لا تجد لافتات تشير إلى نوعه، إن كان إبداعيا أم غير إبداعي، إن كان عربيا أو بلغة أخرى، مجرد رفوف ثانوية مكدسة بالسلعة المهجورة، ويوحي منظرها بأنها حشرت هنا قسرا، وليست من ضمن بضاعة الربح.

مقتنون آخرون لا يحسون بالكتاب مثل إحساس القارئ المزمن، وهؤلاء معظمهم موسميون، ينتظرون إعلانات الجوائز، حتى تذاع، فيسارعون إلى اقتناء ما ورد ذكره في القوائم، إما ليقرأوه فعلا، وإما ليكتبوا هنا وهناك، إنهم يملكون كتابا معينا مرشحا لجائزة، وبعضهم لا يقرأ للعرب أبدا، ويصرح كثيرا

في النقاشات التي تدور هنا وهناك، بأن العرب مقلدون وليست لديهم خصوصية في الكتابة، أو كتاب عظماء، ولم يبتكروا في السرد أي ابتكار ذي قيمة، وهذا بالطبع خطأ كبير يؤدي إلى أخطاء أكبر، من دون أن يدري المخطئ شيئا. شيء أشبه بالاستعمار يسيطر على عقول هؤلاء ويغيب تقديرهم للأمور، وأذكر أنني كنت مرة أقرأ مراجعات الكتب في موقع «غودريدز» المعروف، وقرأت تعليقا لأحدهم يصف فيه رواية عربية تدور أحداثها في افريقيا، وتتحدث عن وباء انتشر هناك، وقال إنها من الروايات القليلة التي قرأها للعرب، وللأسف خاب ظنه لأنها مأخوذة بالكامل من رواية لميلان كونديرا، وكان شيئا مضحكا لأنني أعرف هذه الرواية جيدا، وأعرف كونديرا الذي لم أسمع أنه زار افريقيا ذات يوم، ناهيك أن يكتب رواية عن أجوائها، ومعروفة أعماله كلها إنها أعمال في الغالب فلسفية، جادة، فيها بعض السيريالية، والغموض المعرفي، حسب رأيي، ولو كان ذلك القارئ حقيقيا، لأورد رواية كونديرا في مراجعته.

يوجد كذلك قراء ينصاعون للهوج الإعلامي الذي يحدث من حين لآخر في حق كاتب أو كتاب، ذلك حين يكتبون في الصحف والمجلات، ويتحدثون في الأجهزة المرئية والمسموعة عن كتاب عرضته أوبرا وينفري في صالونها أو أحد برامجها الجماهيرية، أو كتاب فيه قضية دينية أو اجتماعية مسكوت عنها، أو عرّض كاتبه للسجن والمقاطعة، وأن تسحب منه جائزة، منحت له عن استحقاق، وكنت أوصيت صديقة أن تحضر لي رواية جديدة للباكستانية كاملة شمسي، صاحبة رواية «الظلال

المحترقة البديعة»، التي قرأناها كلنا وتعرفنا من خلالها على أجواء بعيدة، ثرية، صدرت حديثا مترجمة من معرض عمان للكتاب، وعرفت أن الرواية نفدت سريعا، ليس بسبب أن كل قراء المعرض قرأوا لكاملة شمسي ومعجبون بأسلوبها، ولكن لأن الكاتبة تحدثت عن إسرائيل بسلبية، وأدانت قرارات نتنياهو بالتوسع الاستيطاني، وسحبت منها جائزة ألمانية، كانت منحت لها حديثا. هذه من المواقف الجيدة للكاتبة بلا شك، وأظنها تعرف ما يمكن أن يحدث حين يصرح كاتب مشهور بتصريح مثل هذا ولم تأبه. أشخاص كثيرون متعاطفون مع القضية الفلسطينية، أو من أهل القضية، سيشترون كتاب شمسي، وقد لا يقرأونه أبدا، ويظل مجرد كتاب في مكتبة، ساكن ومغبر. وأذكر أنني قمت منذ عدة أيام بغزوة صغيرة لمكتبتي التي تضم كتبا عديدة، اشتريتها أو حصلت عليها كهدايا على مدى سنوات، وعثرت على مئات الأعمال الروائية التي نسيت أنها عندي، مئات كتب النقد والقصص والشعر، وحقيقة لا أذكر ظروف شراء كل كتاب، وإنما أعرف فقط أنني أشتري الكتاب، وأبدأ قراءته محاولا أن أكمله وسط المشاغل المتعددة، ولكن تظل كثير من الكتب مثنية على صفحات ما، لم تكتمل قراءتها، وضاعت بداياتها من الذهن، ما يحتم إعادة القراءة من جديد، عثرت مثلا على رواية «نصف شمس صفراء» للكاتبة النيجيرية تشيماندا نجوزي، مثنية في الوسط وحاولت أن أتذكر أحداثها فلم أستطع تذكر أكثر من وجود ولد صغير، عين خادما لدى رجل ثري عجوز يقيم وحيدا، ومؤكد أحاول إعادة القراءة منذ

البداية.

القراء الذين أحس بأنهم يستفزون الكتب والكتاب كثيرا، أولئك الذين أسميهم اللاقراء، الذين يلتقون بكاتب في معرض أو أمسية، أو حتى في الطريق العام، يلتقطون معه الصور في هستيريا غريبة، ليعرضونها على أصدقائهم في صفحات التواصل، من دون أن يعرفوا عن الكاتب شيئا، وكنت مرة في معرض عربي كبير وغاص بالجمهور، حين أوقفني شاب وفتاة، قالت الفتاة، نريد صورة معك ووافقت، والتقطت الصورة، ثم قالت الفتاة: عفوا نريد وضعها في تويتر، ما اسمك لو سمحت؟ إنها تلتقط صورة مع كاتب لا تعرف اسمه، وبالتالي لن تعرف كتبه، ولم تقرأ له حرفا واحدا. بالقدر نفسه، يلتقيك آخر، يخبرك بأنك من كتابه المفضلين، ويسرد لك قائمة من العناوين التي هي ما قرأه لك وتكتشف أن لا عنوان منها أنت كتبته.

عالم الكتابة والقراءة، مزعج جدا، ومتناقض وفيه فجوات كثيرة، حاولنا أن نردم بعضها، وتنجح المساعي حينا وتخفق أحيانا، لا شيء يشبه المثالية هنا، وعلى الذين يحسون بالانبهار لكونهم كتابا أن لا يغضبوا أو يحسوا بالمغص حين لا يتعرف عليهم أحد، أو يكبروا ويظلون في بيوتهم لا يتحدث الإعلام عن كتابتهم وبالتالي، يبتعدون عن سكك القراءة.

31

اعتدنا

جميعا بمجرد صدور كتاب لنا، أو اقتراب صدور كتاب، أن نشارك بغلافه في مواقع التواصل الاجتماعي، إن كان الغلاف حاضرا، أو مجرد الإعلان، إن لم يكن موجودا، ثم الجلوس فرحين ونشيطين، لتلقي التهاني التي في الغالب يشارك بها أصدقاء عديدون موجودون على صفحة كل واحد منا، وقد يأتي الإعجاب بالأمر أيضا، من متابعين، غير مسجلين في قائمة الأصدقاء، وهكذا يصبح الكتاب الذي سيصدر، محورا لا بأس به لدى مبدعه ومن حوله، حتى يجدّ جديد ويطغى على ذلك، أو حتى يصدر فعليا ويتم تداوله أو لا يتم، لتبدأ حكاية أخرى، قوامها التي تبين وجوده في المكتبات العامة والخاصة، أو مفتوحا في أيدي بعض الناس، أو ملقى على الرمل في أحد الشواطئ، بجانب حسناء تقضي عطلة، وقد يكون البعض محظوظا، حين يعثر على لافتة في مكتبة، فيها كتابه ووضعت أعلاه، لافتة كتب عليها: بيست سيلر. وهذا الفعل الأخير بالذات يمكن افتعاله أو صناعته، حين يذهب واحد إلى مكتبة، يستعير لافتة بيست سيلر من كتاب آخر، يضعها على الكتاب المراد تسويقه، ريثما يلتقط صورة، ثم يعيدها إلى موطنها.

شيء آخر نفعله أيضا وبكل جدية، وهو نشر الصور بكثافة

لكتبنا إن صدرت مترجمة، أو نشر أخبار عن ترجمات ستصدر لكتاب معين بعد توفره فترة لا بأس بها في اللغة العربية، وهنا أيضا نتلقى التهاني والتبريكات، من الأصدقاء، وغالبا ما ترد في سياق التهنئة، كلمات يحبها البعض مثل: الإنجاز، والعالمية، وغير المسبوق.. هكذا.

حقيقة تساءلت كثيرا عن مغزى أن نشارك بإعلانات من أي نوع عن كتبنا، الإعلان عن الصدور، عن التوفر في المكتبات ومعارض الكتب، الإعلان عن وجوده عند قراء، في الغالب فتيات جميلات، أو أشخاص ذوي شهرة ونفوذ مثل السياسيين والفنانين، والرياضيين، ثم نشر أغلفة الترجمة، روايتي بالتركية، بالإنكليزية، بالفنلندية، وبعضهم يكون مغامرا ويعلن عن ترجمة عبرية، بلا حذر، والبعض الآخر يكون مغامرا جدا، أو لنقل متفائلا حين يعلن قرب صدور ترجمة بلغة ما من دون أن يكون ثمة عقد أو التزام من أي جهة، مثل أن يلتقي بمترجم أوروبي، يعطيه نسخة من كتاب له، ويقول المترجم في تلك اللحظة، سأرى إن كنت سأترجمه، ونعثر في اليوم نفسه على منشور كامل يتحدث عن قرب صدور ترجمة للكتاب.

وأذكر في بداياتي في منتصف التسعينيات من القرن الماضي، أن التقيت بمستعرب متوسط العمر، من جنوب أفريقيا، كان يتجول بلا هدف في مقاهي الدوحة، ويزور معارض الفن التشكيلي، ليقتني لوحة من هنا ولوحة من هناك. تعرفت إليه بواسطة صديق، وأخبرته مباشرة، أن لديّ كتابا اسمه:

مرايا ساحلية، هو سيرة لمدينتي بورتسودان التي تقع على شاطئ البحر الأحمر، وفيه الكثير عن أيام طفولتي، ومراهقتي، وسيعجبه كثيرا. المستعرب لم يبد متشوقا لقراءة الكتاب، لكنه طلبه مني وأعطيته له بإهداء باذخ، كتبت بالإنكليزية: شكرا.. ريتشارد، لعلك بساط الريح الذي سيقفز بمراياي إلى العالم.

كان شيئا مضحكا بالطبع والرجل استلم الكتاب، قرأ الإهداء، وردد: بالطبع، اعتبره في مكتبات نيويورك من الآن، ثم مضت سنوات طويلة، تكونت فيها تجربة كبيرة، بملامح مختلفة ولم يظهر أي أثر لريتشارد أو مراياي الساحلية.

تفاؤل آخر حدث، حين تعرفت إلى جيرالد مارتن، الذي كتب سيرة ماركيز الشهيرة، بعد أن لازمه ثمانية عشر عاما، لم يترك عنده صغيرة أو كبيرة حتى دونها. قال مارتن حين أعطيته كتابي "العطر الفرنسي"، وكان صدر حديثا بالفرنسية: ما دمت من عشاق ماركيز، سأقرأ كتابك بالفرنسية، وأعدك أن أوصي بترجمته للإنكليزية في أقرب وقت، لكن ذلك لم يحدث أبدا، مجرد لقاء انتهى سريعا، أعقبته أحلام غبية، ثم انتهى كل شيء. وبعد سنوات، جاءت ترجمات متعددة لـ"العطر الفرنسي" ليس لمارتن دخل فيها، ولا أظنه حتى قرأ تلك النسخة الفرنسية وكانت النسخة الوحيدة التي أملكها.

أردت هنا أن أتحدث عن موضوع مشاركة ثرثرة الكتب، وهي في الغالب ثرثرة فرحة، دغدغت شعور الكاتب أولا وأراد أن تصل إلى آخرين. هل هذا ضروري فعلا؟ أعني مشاركة البهجة مع

آخرين، أم مجرد إجراء غير ضروري، يؤدى هكذا أتوماتيكيا بلا تفكير. فالكتاب حين يصدر، يتوفر في الأماكن التي يتعامل الناشر معها، بلا شك ويكون متاحا للقراءة، بلا أي ضجة، وهناك أصلا من لا يملكون صفحات تواصلية في أي من المواقع، ويجدون الكتب حين يريدون إيجادها.

لن أقلل بلا شك من أهمية التواصل، لكن أقول فقط وبناء على تجارب عديدة ومطولة .أن الأخبار الجيدة أو الحزينة التي تترنح في مواقع التواصل، لا تبقى مسيطرة على أذهان الناس كثيرأ، أياما فقط ويتم تداول أمور أخرى أحدث، بينما التواجد في أماكن بيع الكتب أو عرضها، يبقى مهما جدا، هناك يوجد الظل الذي يقي الكتب من هجير النسيان، وحتى الذي لن يشتري كتابا، سيقلبه بين يديه وقد يعود لشرائه في مناسبة أخرى.

32

كان أعلن الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما عن قراءاته لهذا الصيف؛2020، وهو طقس اعتاد عليه كل عام، أن يعلن عن تلك القراءات عبر حسابه في تويتر، ولعل القائمة التي يذكرها ويظهر فيها كتاب لمؤلف ما، تعتبر قائمة حظ فعلا وأشبهها بقوائم الجوائز التي تستدعي شغف القراءة، لدى الناس، حتى لو كانت الأعمال مغمورة والمؤلفين غير معروفين. وحتى لو لم يقرأ أوباما كتابا واحدا من تلك القائمة. هذه ليست مشكلة على الإطلاق، فهناك من سيتتبعها ويحصل على الكتب كلها، ويقرأها أو لا يقرأها، ليس مهما أيضا والمهم أنها كانت قائمة وضعها رئيس سابق يعشق القراءة ويكتب أيضا.

وأذكر في العام الماضي أن كاتبة أمريكية ليست معروفة كثيرا وجدت روايتها من ضمن قائمة الرئيس، ولم تصدق، وكتبت ذلك بصدق وأنها ممتنة كثيرة لباراك أوباما لأنه قفز بروايتها من رفوف البيع العادي، إلى رفوف الأعلى مبيعا، وقائمة "نيويورك تايمز" التي تعتبر أيضا جسرا واسعا جدا، تعبر عليه الأعمال الكتابية إلى جمهور واسع أيضا.

قائمة أوباما ضمت هذا العام كتبا روائية وقصصية لكتاب أمريكيين وغير أمريكيين، ومنهم هيلاري مانتل وروايتها "عين الذئب"، التي حصلت على جائزة مان بوكر البريطانية منذ

خمس أو ست سنوات، ولعل أوباما تأخر كثيرا في قراءتها، فقد طبعت مرات عدة، وأعتقد أنها تحولت إلى مسرحية أو شريط سينمائي، وهي رواية تاريخية عن حقبة من حقب إنكلترا وتاريخها الوطني بما فيه من خير وشر، وكانت برغم رتابتها، رواية معرفية اجتهدت الكاتبة في نحتها، بلغة عادية وسهلة.

أيضا توجد بين قراءات أوباما رواية لكاتبة شابة، أظنها روايتها الأولى، وهذه سياحة في المجتمع الأمريكي، وهي محظوظة بالطبع لأن الرواية وردت في قائمة سيتفحصها الملايين، بعين تتفحص ما يقرأه الرؤساء. وغالبا ستحصل على جائزة ما لأن الجوائز أيضا تشدها قراءة المشاهير وإشاراتهم، وأي كتاب يتم تداوله على مستوى كبير في سنة ما، إن لم يحصل على جائزة، فهو يحصل على الاحترام. وقد أشرت مرارا إلى تجربتنا العربية بعد تفعيل عدد من الجوائز الأدبية، واختيارها لقوائم سنوية، حيث ينتظر آلاف القراء تلك القوائم وكثيرون لا ينظرون إلى أي عمل خارجها حتى لو كان عظيما جدا، بالرغم من الإشارات الكثيرة التي يرددها مختصون وتوضح أن قيمة النصوص لا علاقة لها بالجوائز، وإنما بالتذوق الشخصي لمن كان حكما في لجنة.

هاروكي موراكامي دخل هذا العام قائمة أوباما، وموراكامي بالقطع دخل قائمة قراءات كل من أمسك كتابا ليقرأه، في أي مكان، ليس لأنه الأفضل في كتابة الروايات، بل لأنه الأشهر حاليا، الرجل الذي يكتب روايات طويلة جدا مليئة بالأعاجيب، ويقرأها الناس بلا ملل. إنها القراءة للظواهر، وموراكامي ظاهرة، سيقرأ

بجدية ومتعة حتى لو كتب مجرد خربشة على الورق، ولكن لديه روايات مهمة فعلا مثل "كافكا على الشاطي"، و""IQ84، التي صدرت بعدة أجزاء لا أدري لماذا؟ وكان يمكن أن تكون جزءا واحدا، وحقيقة لا يمكن إلزام كاتب بطريقة ما، فهذه طريقة موراكامي وتعجب محبيه، مثلما الأعمال القصيرة والمتوسطة تعجب آخرين.

هناك كتاب صينيون وآخرون من عوالم مختلفة، دخلوا قراءات أوباما هذا العام، وقد ذكر الرئيس الأمريكي السابق مرة، أنه يحب كتابة الخيال القادمة من أي مكان وأنه يستطيع بإيغاله في هذا النوع من الكتابة، معرفة أحوال الشعوب، وهذا صحيح لأن الخيال ليس اختراع نص من العدم، فقط وإنما عناقا للأساطير والميثولوجيا وأشياء كثيرة توضح ثقافة الشعوب وعلاقتها بالواقع.

الكاتب الليبي باللغة الإنكليزية، هشام مطر الذي وصل مرة إلى القائمة القصيرة لجائزة مان بوكر البريطانية، بروايته "في بلاد الرجال"، وصل إلى قراءات أوباما في العام الماضي برواية اسمها "العودة"، حصلت على جائزة بوليترز وهي جائزة أمريكية معروفة، ويمكن أن تحدث تغيرا كبيرا في حياة من يحصل عليها من الكتاب. أنا لم أقرأ هذه الرواية ولكن أذكر "في بلاد الرجال" التي صدرت مترجمة للعربية عن دار "المنى" السويدية، وكانت من الروايات القليلة التي يتشبث الذهن بعوالمها ولا يكاد يفلتها، رواية ذات أسلوب خاص وبنية متماسكة وعالم جديد خصيب، وهنا أؤكد أن مطر من الكتاب الذين خطوا لهم أسلوبا خاصا في

الكتابة الروائية.

خيارات أوباما كثيرة بالنسبة لصيف فيه أيام قليلة، في رأيي ولا أدري هل هي حقا خيارات للقراءة، سيقضي الرئيس السابق وقته فيها؟ أم سيطلع على بعضها ويؤجل الآخر، أم لن يقترب منها، وينفق صيفه في أجواء أكثر سحرا من القراءة، مثل الرياضة والسينما، والتزلج على الجليد الصناعي، وإن كانت القراءة عموما في الغرب من العادات الروتينية، وكلنا يشاهد الغربيين يقرأون في القطارات والمطارات ومحطات الانتظار حتى لو كانت ردهات المستشفيات، ومع ذلك لن يكفي شهر أو شهران أو حتى عمر كامل ليقرأ الشخص ما أراد قراءته.

وشخصيا لدي في مكتبتي مئات الكتب التي أتمنى أن أجد وقتا لقراءتها، وكنت حين اقتنيتها، فعلت ذلك بغرض التهامها، ولم يمنحني الوقت أسنانا ذهنية ألتهم بها.

تحية لرئيس سابق يقرأ ويكتب أيضا، ومعروف أن أوباما كتب مرة مذكراته بصيغة أدبية جيدة، وطبعا بمساعدة محررين أدبيين لأن النص الأدبي وغير الأدبي في بلاده، لا ينجز وينشر إلا لو وضع فيه محرر متمكن بعض بصماته.

إنها صناعة الكتابة التي نحتاجها بشدة هنا والتي لا يقوم بها في الوطن العربي إلا ناشرون قليلون.

33

في الفرع التركي لمتحف مدام توسو لتماثيل الشمع، الذي افتتح منذ حوالي ثلاثة أو أربعة أعوام، في وسط شارع الاستقلال الشهير في إسطنبول، وضم تماثيل بالغة الدقة لمشاهير أتراك وعالميين، من التاريخ والعصر الحاضر، وقريبا من المدخل يوجد تمثال لرجل جالس على مقعد، يرتدي بدلة زرقاء ورباط عنق أزرق، وتبدو يداه متحركتين، كأنهما تفسران حديثا غامضا مع أحد ما.

قد يبدو ذلك الرجل غامضا لكثيرين جاءوا لالتقاط الصور مع الممثل توم كروز، الذي يركب دراجة بخارية، لا بد شارك بها في مغامرة، أو ليونيل ميسي، ساحر الكرة، أو ديفيد بيكهام، أو حتى مع ممثل مثل بروس ويليز، أو مغن مثل التركي باريش مانجو، الذي كان من رواد الروك في تركيا، وصنع مجدا للموسيقى في تلك الأنحاء في فترة ما، ومات في سن مبكرة، لكن الرجل الجالس، لن يكون غامضا لمن يتابعون حركة الأدب، ويلتقطون السير والكتابات الجيدة من هنا وهناك، إنه يشار كمال، أحد أهم كتاب القصة والرواية في تركيا، وتبدو أهميته من كونه رائدا حقيقيا لفن الكتابة، ورجلا عاش سنوات طويلة، ظل ينتج فيها بلا كلل، فكان أن كتب القصة والرواية والسيناريو، وشارك في أحداث ثقافية وسياسية، وحصل على جوائز أيضا.

تعرفت إلى تمثال يشار كمال بسهولة، وجلست أستمع إلى حديثه المتخيل، الذي توضحه حركة اليد، وربما كان حديثا ساخرا لأن عينه اليمنى كانت مغلقة، أو في حالة غمز، وتلك من علامات حديث السخرية، الذي أتقنه يشار كمال في كتاباته، ونجد حتى عناوين بعض رواياته، يحمل تلك المعاني المغطاة بالسخرية، هنا أشير إلى كاتب آخر من جيل كمال، وترجم الكثير من سخريته إلى اللغة العربية، هو عزيز نسين، صاحب القصص القصيرة التي تنسج بفن عال، وتحول فكرة بسيطة جدا، إلى مؤثر انفعالي رهيب، ينتزع الضحكة من أي عمق تكون فيه.

كان الزوار يمرون بسرعة في تلك الحجرة، فارين إلى مواقع نجومهم، وبالتالي كان ثمة متسع من الظروف لأحاور كمال بخيال تعود على مثل تلك الحوارات، وأتلقى منه إجابات يصيغها الخيال أيضا، ولعلها تكون قريبة من لغته التي كتب بها «محمد النحيل» و«جناية سوق الحدادين» و«الطيور المجنحة» وغيرها من عشرات الروايات والقصص القصيرة والمقالات، وحقيقة أنا يعجبني مثل هؤلاء الكتاب الذين لم يستلوا المعرفة من المدارس والجامعات، وإنما من دروب الحياة ودهاليزها، وسراديبها أيضا، وقد ولد كمال في زمن بعيد، زمن كانت تسيطر فيه عصابات محلية على القرى، وكان خاله من زعماء تلك العصابات، ولعل وجوده في وسط كهذا منحه قدرا من الحكايات لن يتوفر لغيره من الكتاب، وحتى الكتاب الأتراك الذين أتوا بعد ذلك، مثل أورهان باموق، وإليف شافاك، ونديم قل، هؤلاء سيكتبون الحاضر كما عاشوه، وسيكتبون

التاريـخ كما يتصورونه، أو كما ورد في الكتب التي دونته، لكن الحكايات القديمة الحية، صعب توافرها في الحياة الروتينية التي نعيشها الآن، وقد جربت ذلك في كتابتي، حين كنت أعيش لفترة في بلدة بعيدة في شرق السودان،حيث تتوفر مثل تلك الأجواء والحكايات وقد شكلت تلك الامتصاصات من هناك، خامات جيدة ما تزال تنسج في كتابتي حتى الآن، أشياء يمكن تصديقها، وأشياء لا يمكن تصديقها أبدا، فقط للذين يعرفون بإمكانية حدوثها.

لم يكن المتحف مزدحما، قريبا من موقع يشار كمال، كان يشاركه الحجرة وليام شكسبير، الذي تحسه واقفا متعجلا، بعكس كمال الذي تبدو جلسته راسخة كما قلت، ومستعدا للحديث.

جلست كثيرا أحاور الكاتب العجوز الموهوب في زمانه، الذي ترك إرثا جيدا لعشاق الكتابة القصصية الجيدة، سواء كانوا من مواطنيه المحليين، أو غيرهم، حيث أن بعض أعماله ترجمت للغات كثيرة مثل الإنكليزية والفرنسية، والفارسية وغيرها. وحين نهضت لأذهب وأتفقد باقي تماثيل المكان المتنوعة، خلت عينه المغمضة تنفتح فجأة وتنغلق مرة أخرى.

أيضا لفت نظري أن حجرة يشار كمال، تأتي مباشرة بعد الحجرة التي يوجد فيها تمثال المعماري المشهور سنان، وهو كما تصوره النحات، رجلا متوسط القامة، شعره كثيف وأبيض يتدلى حتى كتفيه، ولعل سنان من مشاهير المعمار في العالم،

وهو الذي وضع أساس العمارة الإسلامية الذكية، ليس من ناحية الشكل فقط ولكن من ناحية دخول الشمس إلى المكان، وانعكاسات الضوء، وغير ذلك من المميزات المكانية التي يعرفها مهندسو المعمار.

الحقيقة، إن وجود كاتب مثل يشار كمال، من ضمن مجموعة مختارة من السلاطين القدامى والنجوم الموسيقيين والرياضيين، وكمال أتاتورك، مؤسس تركيا الحديثة، يعطي انطباعا جيدا على احتفاء تلك الدولة بكتابها أيضا، واعتبارهم نجوما يستحقون أن يخلدوا مثل الرياضيين والفنانين، صحيح أنه كاتب واحد فقط بينما يوجد عشرات غيره، غائبين عن المكان، «وكنت أتوقع وجود أورهان باموق باعتباره التركي الحاصل على جائزة نوبل، لكن لم أجده»، إلا أن المكان يعتبر صغيرا، وكان لا بد من اختيارات، وتم اختيار ممثل للكتابة الجيدة، ولعل كتابا آخرين يضافون في المستقبل، وكان من الممكن أن يكتفي المتحف بالسلاطين والممثلين أمثال (مهند) الذي يحظى بأكبر قدر من الصور معه، لذلك لا بأس.

اسطنبول عموما، تحتوي على علامات كثيرة بجانب متحف الشمع، يمكن الوثوق بإبهارها، والذهاب إليها في نزهة، ولا أعني أماكن الترفيه، فتلك يمكن العثور عليها في أي مكان وأعني أماكن المعرفة، فنحن نعيش في زمن كثرت فيه مصادر المعرفة، لكن ليست كلها صحيحة، خاصة مع وجود الإنترنت، فالذي يستطيع دخول الإنترنت، يستطيع أن يكتب ما يخطر بباله،

وهناك من يؤلفون تاريخ الأمكنة وينشرونه، ومن يكتبون سيرا خاطئة لرموز رحلوا وينشرونها أيضا، وتبقى الآثار والكتابات الأصلية، في الأماكن المتخمة برموز الحياة الماضية، هي معيارنا لمعرفة شيء من تلك الحقب.

34

كنت أتعامل منذ سنوات، مع وكيلة أدبية غربية، وفي أحد الأيام كان في ذهني سؤال ملح عن النص الذي تعمل ترويجه، أردت أن أسألها إياه، كان الوقت مساء الأحد، حين أدرت رقمها وظل الهاتف يرن لوقت طويل ولكن لا إجابة، رننت مرة أخرى ولا إجابة أيضا، وفي صباح الإثنين كلمتني الوكيلة، وكانت محتدة، لتذكرني بجريرتي الكبرى، حين أردت مكالمتها عن عمل في يوم العطلة الأسبوعية، أوضحت أن العطلة شيء مقدس، وشأن خاص ينبغي عدم إفساد أجوائه برنين الهواتف، وتنبيهات البريد الإلكتروني، ومنشورات تويتر وفيسبوك، وكل تلك المنغصات التي اقتحمت حياة الإنسان مؤخرا، ومنعت عنه حتى مجرد لحظات من العزلة يحتاجها بشدة.

وفي أي عطلة أقوم بها، كنت أتذكر ذلك الكلام جيدا، وأقرر بيني وبين نفسي أنني سأكون معزولا عن كل شيء، لا مراسلات ولا استشارات ولا كتابة، ولا إجابة لأي رنين هاتفي، بل في الحقيقة إغلاق الهاتف، وإعادة تشغيله مع بداية العودة للعمل، وبالنسبة لي تعني العودة للعمل، ممارستي لمهنتي الاعتيادية، بالإضافة لتلك الأعباء الأخرى التي تتبع الانغماس في الكتابة عادة، مثل المشاركة في الحوارات واستطلاعات الرأي، وكتابة

الشهادات والتجارب، والمقالات التي ألتزم بها للصحف.

الذي يحدث في الحقيقة، أن لا شيء مما أفكر فيه يحدث عادة، وربما هي الثقافة العربية التي تدمج الفرد داخل المجتمع، ونادرا ما تسمح له بالانفراد بأفكاره ووساوسه، وحتى أوهامه التي يتوهمها، ولأن المجتمع في زمننا هذا، هو في الغالب مجتمع افتراضي، بعيد، وننـدمج فيه عبر الإنترنت، ستظل الصلة قائمة، وتظل تلك الأواصر والوشائج القوية بين أناس لم تلتق بهم، وربما لا تلتقيهم أبدا، موجودة كما هي، لن تتبع قواعد الوكيلة الغربية، ولن تحس باستياء كبير أو صغير، حين يرن هاتفك، ويأتي إعلان عن وجود بريد إلكتروني، أو رنة في المسينجر نتيجة لورود رسالة من صديق، سترد بكل أريحية، ورضى، حتى لو كانت الرسالة مجرد كلمة: سلام، أو ملصق لقلب أو وجه باسم.

وحتى لا تكون محاربة العزلة التي ننهزم بها، أمرا نظريا، فبمجرد الهبوط في أي أرض حتى لو كانت جزر المالديف البعيدة، شبه المنقطعة عن العالم، أو أي قرية في أي بقعة أخرى، ستجد من يبتسم في وجهك ويعرض عليك شريحة للهاتف، خاصة بالبلد الذي تزوره مع ذاكرة قوية، وإمكانية استخدام واسع للإنترنت، وتفعيل ذلك فورا، وهكذا تقتني تلك الشريحة، وتندحر تماما أمام رغبة العزلة، ذلك أنك لا تملك عدة لمنازلة الفرسان الإلكترونيين الذين جندتهم التكنولوجيا الحديثة لقتل عزلتك، بينما الغرب الذي اخترع التكنولوجيا يملك عدة منازلتها، وينتصر عليها، ونلاحظ جميعا أننا نظل نعبث بهواتفنا في

الأسواق وصالات الانتظار في المستشفيات، والمطارات والبنوك وهناك من يرد على رسائله وهو يقود سيارة في الطريق، بينما تجد الأجنبي أو الغربي، لديه هاتف، ولكنه يفضل أن يقضي ساعات الملل تلك في تصفح كتاب، وقد يكون الكتاب عنده من أدوات العزلة الكبرى، في إجازته، حين يذهب إلى شاطئ ما، أو منتجع في الصحراء، وكتابه في يده لا يفارقه، بينما الهاتف الذي قد يضج ويفسد العزلة، مغلق وراكد في أحد جيوبه.

وكثيرا ما نقرأ في الروايات المترجمة عن اللغات الغربية، عبارة مثل: أغلق هاتفه، وضعه في جيبه، وأمسك بكتاب كان موضوعا أمامه على الطاولة، وغرق فيه.

إنها عبارة حالمة عن مقاومة التكنولوجيا بالكتاب، والغرق لا يعني أن كتابا قد انفتح، وإنما كتاب تبوح صفحاته بأعماقها، وتهب تلك الأعماق لقارئ حقيقي. من الأشياء المهمة أيضا في الحرب ضد التكنولجيا، ومحاولة اكتساب العزلة كاملة في العطلات، هو محاولة القراءة عن المكان الذي سيزوره الشخص، بعنى أن تقضي جزءا من وقت التنقل داخل البلد الذي تزوره، في محاولة اكتساب المعرفة عنه، فلا تذهب مثلا لزيارة جامع السليمانية في إسطنبول وأنت لا تعرف من الذي أنشأ الجامع وكيفية الإنشاء، ومن أي باب ستدخل وما الذي ستشاهده هناك، قد تكون القراءة التاريخية هنا مهمة بالفعل، على الرغم من أنك قد تكون شاهدت مسلسلا دراميا يتعرض لذلك الأمر، فالدراما كما هو معروف لها أدواتها أيضا،

من استخدام للمعطيات التاريخية مع شيء من خيال الكاتب، لتكتمل الصنعة، تماما مثل الرواية، وأي عمل إبداعي آخر.

وكنت مرة قد زرت بلدا من تلك البلاد التي استقلت بكيانها عن الاتحاد السوفييتي، ومشيت في شارع ضخم ومميز، فيه مسرح وأناقة كبيرة، وضجيج ومطاعم، كان يحمل اسما لم أسمع به قط، وحين سألت موظف الفندق بعد ذلك عن الشخص الذي يحمل الشارع الجميل اسمه، بدا مستغربا، أنني لم أسمع برمز من رموز البلد الذي أزوره، وكان محقا، ذلك أنني كنت أحمل هاتفا مشتعلا بشريحة البلد، في جيبي، أرد به على التحيات والسلامات، وأجيب على استطلاعات الرأي عن نشاطات أدبية ليس من المنبغي أن تكون في عطلة للاسترخاء. وكنت متأكدا تماما أن أي أوروبي صادفته في ذلك الشارع، كان يعرف تاريخ صاحب الاسم، ولا يستخدم الهاتف إلا في التصوير فقط، لأن الصور في الواقع مهمة جدا، سيحتفظ بها الشخص ويستعيد بها وقائع رحلته، ولن يتعجل وضعها على الإنترنت، ذلك أنه قد لا يستخدم الإنترنت إلا حين يعود إلى بلاده.

في النهاية، نحن مستهلكو التكنولوجيا، نجيد استهلاكها تماما، لدرجة أن مجتمعنا الافتراضي يرافقنا حتى أسرة نومنا، أكثر من ذلك، يصاحبنا في تلك الاستيقاظات التي تحدث أحيانا أثناء النوم، نتيجة كابوس أو بلا سبب، فأول ما يفعله المستيقظ، هو إشعال الهاتف والاطمئنان أن المجتمع البديل حي يرزق، ويتقبل الاندماج فيه في أي لحظة.

35

كتب الأديب المصري سمير المنزلاوي على صفحته في فيسبوك، إنه استفاد لأول مرة من الكتابة، وابتهج بشدة، حين كان يجلس في مقهى، وتعرف إليه أحد الشباب من الرواد، وأرسل له قهوة مدفوعة الأجر.

وذكر مرة أحد الأصدقاء الشعراء، إنه استفاد في أحد الأيام من الشعر، ذلك أنه دخل إحدى الكليات الجامعية لزيارة أحد معارفه، وفوجئ بفتاة جميلة تمسك بديوان شعري له، وأسرعت إليه حالما لمحته، لتطلب توقيعه على الكتاب، وتدعوه بعد ذلك إلى إفطار جيد في مطعم الكلية.

ومرة كنت أجلس في مقهى في شارع إدجوار في لندن، أتأمل الضجيج العربي في ذلك الشارع القديم الممتلئ بروائح الشرق، وخيالاته، وأطعمته، وحتى احتياله، حين اقترب مني شاب يجر حقيبة متوسطة الحجم، وكان من الواضح أنه قادم من سفر، قال إنه جاء من دولة أوروبية، وهبط من القطار في محطة بادنغتون القريبة، وكان ذاهبا إلى موقع ما في الشارع، حين شاهدني، وأراد أن يتعرف إليّ ويبلغني بوجود أشخاص كثيرين حيث يعيش، يتابعون ما أقدمه، جلس معي دقائق وأيضا أصر على دفع قهوتي التي كانت قد بردت ولم أمد يدي إليها.

وأيضا مثلما حدث للصديق سمير، وللشاعر الذي جلس مع

الجمال في مقهى الكلية الجامعية، أحسست بكثير من البهجة، والأمل وأن الكتابة أيضا ليست صنعة بائرة تماما، وهناك من يقدرها، ويمكن ببساطة أن يدفع لكاتب أو شاعر، ثمن وجبته، ويمكن بقليل من الحظ، أن تعثر على عشاق للكاتب، يتبنون إبداعه، ويروجون له.

هذه الابتهاجات الكبيرة، أمام فوائد صغيرة جدا، تبدو للأسف إنجازا عند الكاتب العربي، الذي تصيبه جراثيم الصنعة، ويظل يدور بإبداعه زمانا، يترجى الناشرين حتى يقومون بنشره، ولن ينشر إلا بعد أن يدفع قيمة النشر كاملة، ثم يجلس لينتظر الحقوق ولا حقوق أبدا، أو هي حقوق ضئيلة لا يمكن أن يعتمد عليها في أي ضرب من ضروب الحياة، لأنها ببساطة لن تشبع ذلك الضرب، بمعنى أنه لن تنصب مائدة للطعام في بيت من حقوق الكتابة، لن يتعلم ولد ولن يشفى مريض، ولن يسافر أحد من بلد إلى بلد، وفي جيبه حقوق غنمها من كتاب، ولطالما أشرنا إلى ضرورة أن لا تتسع أحلام الداخلين الجدد إلى سكة الكتابة، وأن يكتفوا بحلم أن يتعرف إليهم الناس فقط، ولا يكونوا نكرات، إن ولجوا مجتمعا ما.

وكنت وما زلت أقول لكل من يطلب مني تقديمه إلى القراء، بكتابة أسطر على ظهر كتابه الأول، إنني أستحي من تقديم الأحلام المجهضة، وحين يصر على ذلك، أكتب بغير رضى، ويخوض المبدع الجديد مغامرته، لينتهي إلى ما انتهى إليه من سبقوه.

أنا أيضا في بداية تجربتي، كانت أحلامي متسعة جدا، وفي ذلك الوقت كانت الكتابة، وكان الرسم، وكرة القدم، كلها هوايات بلا أي فائدة مادية، والحلم كان في أن يحس المهتمون بالأدب، بتجربتي التي ظننت بتهور شديد، أنها تجربة جديدة وجديرة بالاحتفاء بها، ذهبت إلى عدد من الكتاب الكبار، طالبا تقديمي، ولم يقدمني أحد، وأذكر أن ناشرا كبيرا صرّح بأنه سينشر كتابي بلا أي تكلفة لو أتيت له بتقديم من كاتب معين، كتبت لذلك الكاتب مرات ولم يرد عليّ، وكان أن نشرت عن طريق رهن الساعة الروليكس، تلك القصة التي رويتها مرارا، ليس بغرض أن أثبت عشقي للكتابة، وإنما لأثبت مقدار تهوري، وأن تلك الهدية القيمة من والدي، كان يمكن أن تضيع بلا أي ضرورة للضياع.

في السنوات الأخيرة، بدا أن الأدب أصبح من الممكن جره في بعض الكسب، الكسب الأكبر من ثمن قهوة أو شاي أو شطائر همبرغر في كافتيريا جامعي، ذلك حين ظهرت الجوائز، حين تمددت الجوائز، وحين اختالت الجوائز في المشهد الأدبي حتى خنقته. وبدا أن كل من يريد أن يكتب، لا يفعل ذلك بسبب عشق، أو جرثومة أصابته، وإنما ليغازل جائزة، أصبحت الأفكار تتصارع في كل بيت فيه واحد يستطيع أن يصنع أفكارا، يمكن جرها في معركة سردية حامية أو غير حامية، لا يهم، الناشرون يستلمون حقوق النشر مقدما، المطابع تعمل، والبريد يحمل طرود المشاركات إلى مقار الجوائز في كل مكان، ويأتي الانتظار القلق لقوائم الجوائز، ليكسب من يكسب ويخسر من يخسر، ومن ثم تعاد الكرة مرة أخرى، إلى أن يأتي يوم تتعب فيه الجوائز،

وتترجل عن المشهد أو ينزوي المبدع صحبة أحلام تهيجت سنوات، ثم خمدت..

هل ترى سنعود حين يحدث ذلك، أي حين تتلاشى الجوائز، إلى مشهد استلام سمير المنزلاوي لقهوة مدفوعة الأجر؟ إلى مشهد ضحكات الشاعر مع سندوتش الهمبرغر؟

لن أعيد المقارنة مع الغرب، وأقول أن المبدع هناك يحصل على قيمته مضاعفة من أول عمل ينشره، فقد اتضح أن الغرب نفسه ليس راعيا للأحلام الكبيرة عند كل من يبدع، هناك كتاب يحصلون على تلك القيمة، وآخرون يبقون في الظل مهما قدموا، وقد لا يحصلون على حقوق مادية أبدا.

وبالنسبة للأدب المترجم من العربية إلى اللغات الأخرى، هنا أيضا توجد أحلام مجهضة، وقليل جدا من ذلك الأدب ينجح ويحتل مكانة هناك، لذلك كل من يردد أن الترجمة حل ممكن لنا ككتاب، ستحملنا إلى التقدير الكبير، هو مخطئ أيضا.

دعونا نغير المشهد بعيدا عن القهوة مدفوعة الأجر، والجوائز التي لو أرادوا تقسيمها على كتاب الوطن العربي بلا أي مسابقات أو لهاث، لن تكفي كل المبدعين طبعا.

تغيير المشهد صعب، وربما هذا الجيل الجديد، الذي غير بمفاهيمه وصلادته أنظمة ديكتاتورية مرعبة، يستطيع أن يطور في المستقبل، العلاقة بين المبدع وحقوقه الضائعة.

36

من الأشياء التي أتوقف عندها في مواقع التواصل الاجتماعي، بقوة أحيانا، وبحذر، أحيانا أخرى، تلك العبارات التي يأتي بها البعض، إما من كتب قرأوها أو تصفحوها مجرد تصفح، أو في شكل أقوال لشخصيات قد تكون معروفة لنا، من سياسيين وأدباء، وفنانين، وحتى لاعبي كرة.

هذه العبارات أو الأقوال من المؤكد أعجبت الذي وضعها على صفحته، وشكلت له في فترة تعرفه إليها معنى معرفيا وجماليا معينا، أراد أن ينقله للآخرين. وفي الحقيقة تبدو المسألة محبطة أحيانا حين يمر المتابع على بعض تلك الأقوال التي تحيط بها علامات الإعجاب، ليخرج بلا شيء، مجرد سطور اقتطعت من رواية، قطعة نثرية، خاطرة، لن تمنحه تلك الإيحاءات التي منحتها لمن وضعها على الصفحة.

وقد قرأت في صفحات كثيرة بالفعل سطورا مجتزأة من روايات، لم أجد فيها جمالا أو حكمة، وقرأت أيضا جملا منسوبة لكافكا وأيزنهاور وبنيامين فرانكلين ومحمد علي كلاي ومارلين مونرو، لم تكن خلاصة لتجربة أي منهم، مجرد جملة، لا أعرف حتى مدى صحتها.

أعتقد من أهم وظائف مواقع مثل تويتر وفيسبوك، الاحتكاك وتبادل الخبرات والمعارف، كل يمنحنا شيئا مما يعرفه، ونمنحه

بالمقابل شيئا مما نعرف، إضافة للدعاية المعروفة للأعمال الفنية والإبداعية، والندوات والأمسيات الثقافية، والمعارض. ولأن هذه الوسائط مفتوحة، ولا يحتاج التسجيل فيها، والتفاعل بعد ذلك لأي مجهود، نجد أنها تحولت إلى بيت كبير، حقيقة تحولت إلى قارة تضم من يعرف ومن لا يعرف، من يشارك بعمق، ومن يود أن يشارك حتى ولو بسطحية، وبالتالي تنبت مثل تلك المشاركات التي وصفتها بالهشة، أو التي لا تستند إلى دليل حقيقي، ينقلها أحدهم من كتاب، ويأتي من ينقلها من صفحة، ويضعها على صفحة أخرى، وفي كل الأحوال تجد من يعجب بها ويضع تلك العلامة السحرية التي يسعى إليها الكل.

ولعل السعي إلى علامة "لايك" من تلك الأشياء الغريبة التي تحتاج إلى دراسة عنها، ليس مهما ماذا كتبت، ولمن توجهت في منشورك؟

ليس مهما جمال الصورة التي وضعتها، والحالة المزاجية التي وصفتها؟

وليس مهما أي شيء، في أي شيء، وفقط علامة " لايك"، تحسن مزاج من طرح شيئا على صفحته وجلس ينتظر، وقد يصبح الانتظار قاسيا حين يرى صاحب المنشور أصدقاء له موجودين، ونشطين من حول منشوره، من دون أي التفات له. وقد أخبرتني صديقة مرة، اعتادت أن تضع تلك الأقوال المجتزأة من روايات، أو المنسوبة لشخصيات عامة، أنها تضع قائمة بالذين تود أن تحصل على إعجابهم، وتظل مرابطة حول

منشورها، تحذف من القائمة، كل من يمر، ويعجب بالمنشور أو يعلق عليه، وتتكدر جدا، إذا ما انتهى اليوم، من دون أن يمر كل الذين توقعت مرورهم، وقد ترسل عتابا عبر الرسائل الخاصة للبعض.

أعود لمسألة المعاني المراد توصيلها وقد تصل أو لا تصل من وضع الجمل المأخوذة من الكتب، والأقوال المنسوبة للشخصيات، وأؤكد أنني أكون سعيدا جدا حين أجد جملة محفزة من رواية لماركيز أو يوسا، أو قصيدة لمحمود درويش ولوركا، وبابلو نيرودا، أجد فيها معنى جديدا وجديرا، وأجد داخلها حكمة تدهشني، وقطعا لن أتفاعل جيدا، حين لا أجد شيئا من ذلك.

المعنى مهم جدا، والمغزى الجمالي والفلسفي مهم أيضا، وكلنا نستمتع وننده‍ش من جملة شعرية مثل "نحب الحياة إذا ما استطعنا إليها سبيلا"، التي تكتب كثيرا، وتدهش في كل مرة، أكثر من جملة شعرية أخرى مثل "مطر... مطر"، التي تكتب أيضا، ولن تمنح أي إيحاء هكذا ما لم تقرأ القصيدة الكاملة الجميلة للسياب.

منذ سنوات وقبل انتشار وسائط التواصل الاجتماعي، كنا نتحدث أنا والكاتب المصري الراحل يوسف أبو رية عن المعاني العالقة بالجمل التي يتناقلها الناس. كان يوسف يرى أن تلك الجمل التي تكتسب صيتا معينا، حتى ولو لم تكن ذات مغزى واضح، هي جمل محظوظة، والذين كتبوها هم محظوظون بلا

شك، وأذكر أنه صرح بأمنيته، أن يتناقل الناس جملة له. تلك الأيام كنت نشرت روايتي "مهر الصياح"، وهي للذين لا يعرفونها ملحمة تاريخية كبيرة عن القهر، في كل العصور، استللت عدة جمل من تلك الرواية، قلتها ليوسف، وسألته عن إمكانية أن تصبح جملا، قد يرددها أحد، فاختار واحدة، سعدت كثيرا أنها حققت توقعه في ما بعد. لكن الأمر ليس مكسبا في الحقيقة، ويمكن تأويل مثل تلك الجمل أيضا وإقحامها في ما لم تقل من أجله، كأن تستخدم جملة قيلت في مناسبة عرس داخل نص روائي، كأداة سياسية ضد نظام ما، وهذا ما لم يقله الكاتب.

بالتأكيد الرغبة في المشاركة ما دام الإنسان يملك صفحة مفعلة في موقع اجتماعي، هي ما يدفع بالكثير المنطقي وغير المنطقي لينشر على الناس، وتجد من ينشرون صور أطباق الطعام، ومن ينشرون صور الغسيل المنشور على حبل، ومن يقتحمون عالم البسطاء، الذي يجاهدون في الحفاظ عليه نقيا، ليلتقطون الصور، ويعممونه، وهكذا رغبات قوية في المشاركة، والحصول على" لايك".

والمتابع إما تطربه تلك الأشياء فعلا وإما تضجره، وفي النهاية لا غنى عن الوسائط الاجتماعية، إنها المجتمع الحداثي الذي يعيش فيه معظم من يملكون طريقة للوصول للإنترنت، وهجروا من أجله المجتمع الحقيقي. وأظنني كتبت مرة: أنك حين تعلن عن أمسية أو ندوة أو توقيع كتاب في بلد تزوره، ولك فيه أصدقاء كثيرين، سواء أن كانوا حقيقيين أو افتراضيين، ستجد من يتفاعل

ومن يكتب: أول الحضور. وتذهب وتقيم ندوتك، ولا تجد أحدا من الذين أكدوا حضورهم، لكنك ستجد علامة "لايك" منهم، بمجرد أن تضع صورا للأمسية.

ذلك ببساطة أنهم يعيشون في المجتمع الآخر، ولن يغادروا مواقعهم من أجل أمسية واقعية.

37

كنت أتجول في القسم العربي من مكتبة ضخمة، تضم آلاف العناوين العربية والأجنبية، وبلغات شتى، لم أكن أبحث عن كتاب معين، لكنها العادة، أن أطرق المكتبات من حين لآخر، أو خلال زيارتي لبلد ما، أستمتع بمنظر الكتب الحديثة على الرفوف، وربما يناديني كتاب منها وأسرع باقتنائه، وأظن كل قارئ تدرب على القراءة سنوات طويلة، لا تكتمل بهجته إن لم يمر على المكتبات، وبالطبع ستصبح حياة هؤلاء كئيبة جدا، في اليوم الذي تنقرض فيه الكتب الورقية، وتصدر القصص والقصائد والدراسات في كتب إلكترونية، تضطرهم إلى التحديث في الشاشات.

كان أحد المشرفين على القسم، يتحاوم أيضا، قد يغير من وضع كتاب على رف، وقد يضيف كتابا جديدا، أو يستبدل كتابا طالت جلسته على الرف بواحد صدر حديثا، ولعلها مهنة شاقة، أن تعمل في هذا المجال بلا دراية، لكن يبدو أن اكتساب الخبرة ليس أمرا صعبا، حتى لو لم يقرأ المشرف حرفا، سيلم بكل المؤلفين تقريبا، وسيحفظ عناوين كثيرة، من تلك التي يداوم القراء على السؤال عنها.

في لحظة ما اقترب شاب من المشرف الذي كان قريبا مني، سأله بصوت منتفخ كما بدا لي:

هل لديكم كتاب لعلي ملهم؟

سأله البائع بدوره: أي نوع من الكتب؟

رد: رواية.

بدا المشرف مستغربا أو لعله تضايق من ورود اسم يسأل الناس عنه ولا يعرفه، ومن جانبي لم أكن مستغربا، ففي السنوات العشر الأخيرة، كتب آلاف الناس، آلاف القصص والروايات، وأصبح من الصعب أن تعرفهم كلهم، ولعل هذا الشاب يحمل ترشيحا من قارئ صديق، قرأ ملهم، وأعجبه أسلوبه، ورشح أعماله لغيره، وهذه أيضا من أساليب القراءة، أن تقرأ كتابا، تمتلئ به، وترشحه لصديق، قد يرشحه لصديق آخر، هكذا، وساهمت تقنية الوسائط الحديثة في انتشار هذا الأسلوب، ويمكن جدا أن يصبح كتاب مغمور، فجأة تحت الضوء، لأن مئات الناس تناقلوا طعمه عبر الوسائط، وكنا في البدايات نحصل على هذا الطعم من الجلوس في المقاهي، حيث يحضر المثقفون، كل بطعم مختلف لكتاب قرأه، يطرح الطعم على الجالسين، ويدون الناس أسماء الكتب في ذاكراتهم، أو في أوراق صغيره، بنية البحث عن الطعم الذي لا بد أنه فذ، ليعجب من قام بطرحه، وبهذه الطريقة قرأنا رواية: «المسيح يصلب من جديد»، و«زوربا اليوناني»، ورواية «العطر» لباتريس زوسكيند في أوج توهجها بعد أن ترجمت من الألمانية، وأيضا لأدونيس وحجازي وكثيرين غيرهم.

البائع، أو المشرف طلب قليلا من الوقت ليراجع حواسيبه التي تحمل عبء تبويب هذه المكتبة الضخمة، ويمكنها أن تأتي بالجواب في لحظات، اختفى عشر دقائق وعاد ليقول للشاب: للأسف لا يوجد كتاب لهذا المؤلف عندنا. لم يقل الشاب الذي كان يرتدي زيا قديما متوعكا، ويحمل حقيبة جلدية صغيرة من التي تحمل فيها الأوراق، أي شيء، مد يده إلى أحد الرفوف، انتشل كتابا صغيرا غارقا بين مجموعة أكبر منه، قلّبه بين يديه، وكان رواية مترجمة لاستيفان زفايغ، ذلك الكاتب النمساوي القديم من أصل يهودي، الذي أحيته القراءة العربية مؤخرا، أعاد الكتاب إلى الرف، والتفت ناحيتي. كان وجهه عاديا لكن بدا شاحبا، تلك اللحظة أردت أن أعرف من هو: علي ملهم الذي جعل قارئا لا يلتفت لتلك العناوين كلها، ويسأل عنه فقط، مؤكد كان ترشيح الكتاب قويا. مددت يدي، سلمت على الشاب وقلت: معذرة لكن من هو علي ملهم، وما اسم روايته؟

نظر إليّ الشاب بلا أي اهتمام، سألني:

هل تقرأ الروايات؟

قلت: عمري كله ضاع في قراءة الروايات.

قال: سأكون صريحا معك، على الرغم من أنني لا أعرفك، لا يوجد كاتب بهذا الاسم حتى الآن، إنه اسم سميته لنفسي، وكتبت رواية، وقعتها به، وعجزت عن نشرها بسبب تكاليف النشر التي لا أقدر عليها، وأطوف بالمكتبات أسأل بلا أي معنى،

إنها في هذه الحقيبة. قال وأشار للحقيبة التي يحملها، ثم انفلت من أمامي واختفى قبل أن أواسيه بكلمة، أو أشخص وجهه إن كان وجه كاتب حقيقي، أم لا؟ وأيضا حالته التي تبدو بالفعل حالة غير اعتيادية.

هذا الموقف الذي صادفته في إحدى المدن العربية، ليس مدهشا بقدر ما هو مؤلم، أي أن تكون شابا وتحلم بحياة ذات تفاصيل معينة، ولا تحصل عليها أبدا، ربما تكون موهوبا، وربما لا تكون، لكن الحلم لا يفرق بين حاملي الموهبة وحاملي غير الموهبة، الموضوع ليس في الكتابة فقط، بل يمتد ليشمل كثيرا من المجالات الحياتية، مثلا أن تكون ممثلا ولا تستطيع أن تظهر كممثل، أن تملك صوتا فخما ولا تصل به لأبعد من باب بيتك، وأن تصلح مذيعا يستطيع قراءة أخبار الدنيا كلها، ولا يكتشف موهبتك أحد، وكنت أصادف أيام الطفولة رجلا يقف في الشارع، ويحمل أوراقا، يقرأ منها أخبارا ملفقة عن فيضانات وعواصف وزلازل، بصوت قوي جدا، يقولون إنه مجنون وحين أستعيده الآن، أتخيله واحدا كان يحمل حلما وسقط الحلم عند حافة الجنون، حتى أولئك الثوار الذي خاضوا عراكا سلميا مع الرصاص في السودان مؤخرا، وسقطوا، كانت أعماقهم تمور بأحلام كبيرة هي أحلام وطن، وأظن هؤلاء انتصرت أرواحهم على الرغم من غيابهم المرير.

لا فرق إذن بين ذلك الرجل القديم الذي كان يقرأ الأخبار في الشوارع، وهذا الشاب الحديث الذي يسأل عن رواية، هي في

الحقيقة داخل حقيبة، وقد لا ترى النور أبدا.

غادرت المكتبة الكبيرة، وفيّ هم كبير، لقد كنت حالما مثل هؤلاء في يوم ما، لكنني أصررت أن يتحقق شيء، وعشت على ذلك الأمل.

38

منذ فترة قليلة، أعدت قراءة رواية «خزي» للكاتب الجنوب افريقي الحاصل على جائزة نوبل، جون ماكسويل كويتزي، وكنت قرأتها للمرة الأولى منذ أكثر من خمسة عشر عاما، في ترجمتها العربية، الصادرة عن دار ورد في سوريا.

في الحقيقة لم أعد قراءة تلك الرواية بسبب عدم وجود ما يمكن قراءته، وهناك دائما ما يحتاج إلى قراءة، بل بغرض متابعة رصد التطور لديّ كقارئ، وإن كان ثمة اختلاف في تذوقي الآن عن سابقه أم لا؟ بخصوص بعض الأعمال التي أعتبرها مهمة، وهو شيء جربته في أعمال عديدة لعدد من الكتاب المفضلين، كما سأوضح.

رواية «خزي»، رواية متوسطة الحجم، وتدور أحداثها في كيب تاون، في جنوب افريقيا، أي بلد الكاتب، ومسرح جميع أعماله كما أعتقد، وهي رواية عن الأخلاق إن صح التعبير، وكما يتضح من عنوانها أن ثمة خللا ما، أو شرخا ما في الأخلاق قد حدث، وهذا ما سنقرأه في الرواية، في قصة الأستاذ الجامعي، المطلّق، الذي يعيش أعزب في المدينة، ويبحث باستمرار عن ما يملأ فراغ اللذة الحسية لديه، سواء عند زميلات في العمل، أو زوجات زملاء، أو حتى بنات ليل محترفات، يعثر عليهن عن طريق وكالات لتشغيل المهاجرات المسكينات في تلك الأعمال

السيئة، وبعضهن قد يكن زوجات وأمهات، ولكن يضطررن إلى العمل في أوقات محددة بعيدا عن بيوتهن وأزواجهن.

المدرس الجامعي لا يود أن يعيش كزوج مرة أخرى، ولا يود أن يتبع طريق العمر الذي من المفترض أن يقوده الآن إلى الحكمة والالتزام، ومراعاة أنه أيضا أب لفتاة تعيش في مدينة أخرى بعيدا عن نزواته. سيتعرف إلى واحدة من المهاجرات في وكالة للتشغيل، وسيلتقيها أسبوعيا وسيغرم بها، ويفقدها بعد ذلك ربما بسبب صحوة ضمير لديها، أو ربما تحسن وضعها الحياتي، وفضلت حياة أسرتها.

ولأن الكلية التي يدرس فيها مقررا في الأدب، وأيضا في الموسيقى غاصة بالفتيات الطموحات، الباحثات عن المعرفة لدى معلمين من المفترض أن يكونوا آباء، لا وحوشا، فهو لا يتوقف عند حد، وتبدأ علاقة الخزي مع طالبة عنده، ستنهي تاريخه كمعلم جامعي، وتفضي به إلى الطريق.

الرواية قد تبدو عادية، في طرحها، وحافلة بالإشارات والإيحاءات العادية عن الجنس الذي لم يعد الآن، في الكتابة الحديثة، لدى الكتاب المهتمين بأمره، إيحاءات وإشارات، وإثارة، بل أصبح فلسفة، وحوارات عميقة، وقد تقرأ رواية كاملة تدور أحداثها في بيت للدعارة، كما في رواية: «الميتات» للكاتب المكسيكي خورخي إيبار، التي ترجمها صالح علماني، وصدرت مؤخرا عن دار جامعة حمد بن خليفة، ولا تعثر على كلمة واحدة خادشة، أو مشهد مخل، إنها رواية عنيفة في فلسفتها وتعريفها

للبيزنس في مجال الجسد، بوصفه نشاطا تجاريا ربما يكون خاطئا، في نظر البعض، لكنه ليس كذلك في نظر البعض الآخر، وهذه بالطبع وجهة نظر لن يتقبلها الناس بسهولة،، مهما أحيطت بتلك البلاغة، والمتعة في القراءة.

لن أخوض في تفاصيل أخرى عن رواية «خزي»، ولكن أردت أن أوضح الاختلاف الذي يحدثه الزمن لدى القارئ في تفاعله مع الأعمال التي يقرأها مرات خلال فترات متباعدة، إنه بالقطع ليس تذوقا أو تفاعلا ثابتا، ولكن يتغير كثيرا أو قليلا بحسب المدة التي مضت، والتطور المعرفي الذي قد يكون وصل إليه القارئ في تجوله حول القراءة أو داخلها، شيء شبيه بالتطور لدى الكاتب نفسه، ذلك الذي يبدأ صغيرا تبهره جملة كتبها في رواية أولى، فيزهو بها ويود لو قرأها العالم كله، ثم يكتشف بعد سنوات طويلة، حين يقرأ نصه ذلك، أنه لم يكتب ما يبهر، مجرد جملة عادية، يمكن أن يكتبها أي شخص.

نعم كانت رواية مثل «خزي» في تلك الفترة مبهرة لي كثيرا، شخصياتها، عقدها النفسية، حلولها الممكنة وغير الممكنة، أحداثها كلها، والأهم من ذلك إحساسي بأن من الصعوبة كتابة رواية مثلها في مشهدنا العربي،، ولكن بعد كل تلك السنوات، وأنا أقرأ في سقطة المدرس الجامعي، كنت أقرأ بعادية مطلقة، بلا حماس ولا تفاعل من أي نوع، وقد مرت في ذهني قصص شبيهة بتلك السقطة طالعتها في كتب أخرى، وأيضا تذكرت بأنني شاهدت فيلما سينمائيا، عن مدرس جامعي، يقيم علاقة

مع طالبة، ويخضع لمجلس تحقيق ينتهي بإيقافه عن العمل، ولا أدري هل كان مأخوذا عن قصة كويتزي، أم لا؟

رواية أخرى مثلا، قرأتها قديما بالحماس نفسه الذي قرأت به رواية «خزي»، إنها الرواية المشهورة «المعلم ومرغريتا» لبولغاكوف، وهي من درر الأدب الروسي، كما يقر الكثيرون، وتتحدث عن الشيطان والقياصرة، ومواضيع عديدة داخل كتاب بحجم ضخم. هذه الرواية، أي «المعلم ومرغريتا»، اقتنيت نسخة منها مؤخرا وحاولت في أيام كثيرة أن أقرأها ولم أتقدم كثيرا، ومؤكد ليس بسبب خلل في الكتابة أو المعنى، إنه خلل أن تتطور قرائيا، وتكبر عمريا، وتصبح القراءة المهمة عبئا كبيرا لديك.

سؤال: هل يحس القارئ الجديد أو القارئ الشاب الذي سيقرأ رواية قديمة لأول مرة الآن فقط، بأي خلل؟ هل سيحس بأن الزمن تجاوز عملا مثل «زوربا» اليوناني أو غيره؟ لا أعرف حقيقة، وأعتقد أن الأمر يعتمد على تذوق كل قارئ على حدة، وعلى الرغم من اختلاف التقنيات الكتابية كما قلت، لكن ربما تجد من يتحمس للأعمال القديمة، لأنه يقرأها لأول مرة، وقد يحس بالفرق إن عاد وقرأها مرة أخرى بعد خمسة عشر أو عشرين عاما.

لن نحول القراءة إلى لغز، ولن نوحد الآراء بالتأكيد، فلكل منا تجربته في كل شيء حياتي، والقراءة منهج حياتي بلا شك.

39

صدر منذ فترة قليلة كتاب جديد للروائي الكولمبي غابريل غارسيا ماركيز، يحمل عنوان «فضيحة القرن»، وهو تجميع لمقالاته التي كان يكتبها في الصحافة، أيام كان يعمل صحافيا بدوام كامل، ومعروف أن ماركيز أصلا صحافي، وكان يعمل في صحيفة محلية في بلاده، وعمل أيضا مراسلا في أوروبا، كما ورد في كتاب «سيرة ماركيز» الذي أعده الأكاديمي البريطاني جيرالد مارتن، وحفل بالكثير من خفايا حياة واحد من أساتذة الكتابة الكبار.

ولأن ماركيز كان صحافيا، فقد أراد أن يعرف كصحافي، رغم ما حققه من شهرة ومجد في الكتابة الروائية، كان يقول إنه يود أن يعرف الناس ما قدمه في الصحافة بعيدا عن «مئة عام من العزلة» وغيرها من الروايات الساحرة التي عرف بها، وألف كتابه «خبر اختطاف» الذي يحكي حكاية امرأة من معارفه اختطفتها عصابات ملك المخدرات أسكوبار، في التسعينيات من القرن الماضي، بحبر الصحافة، بحيث أنه كان رواية واقعية صرفة، تخلو من أي خيال شيطاني، مما اشتهر به، ولعل الصنعة هنا تمت في تحويل مفردات قصة السيدة المحتجزة، إلى لغة أدبية كما أتصور.

أمنية ماركيز لم تتحقق بالطبع، ولم يتذكر الناس الصحافي

حتى حين كان يداوم على العمل، وتذكروا الإبداع الذي تركه، لأن لا كتابة تقارير ولا حتى تغطية أخبار الحروب والكوارث والأوبئة، والانقلابات وسقوط الأنظمة وكل مصائب الدنيا، يمكن أن تنسي سطرا في رواية ساحرة، وأظن أن كثيرا من الكتاب والشعراء عاشوا من دون أن يعرف أحد وظائفهم أو تخصصاتهم العلمية، إن كانوا يملكون تخصصات علمية، وقد تلم بنتف من سيرة أحدهم، فتعرف أنه كان مهندسا أو محاميا أو قاضيا أو طبيبا، إلى آخر تلك المهن التي خصصت لكسب العيش، وليس كسب الشهرة العريضة، ولأن الغرب يتيح للكاتب المبدع أن يترك وظيفته في سن مبكرة ويتفرغ تماما للكتابة، فمن المرجح أن تدفن المهنة القديمة للكاتب عميقا في النسيان ولا يأتي ذكرها إلا عرضا في حديث أو مقابلة مع الكاتب. وربما تبدو المسألة طريفة، حين يكتشف القارئ أن الكاتب الذي ظل يتابعه سنوات، ولا يعرف كيف يعيش، كان يعمل مهندس ديكور، أو ممرضا، أو ربما بستانيا، وتعلم متأخرا ليكتب الروايات. ولدينا نماذج كثيرة من هؤلاء الكتاب العظماء، الذين ظلوا يعيشون على رواتبهم، ويعلمون تماما بخطورة الاندفاع مع شهرة الكتابة التي لن تحقق شيئا على صعيد المادة.

موضوع شهرة الإبداع، الذي يلغي المهنة، الذي ذكرته، هو الغالب على المبدعين أصحاب الحرف، لكن في المقابل توجد نماذج أخرى من المبدعين الذي سرقت وظائفهم حمى إبداعهم، حيث كانوا يكتبون، وينشرون، ولكن يشار إليهم بوظائفهم، ذلك أن الوظائف هنا عامة، وينبغي أن لا تطمر، أو في الحقيقة

لا أحد يستطيع طمرها، وكلنا يعرف ليوبولد سنجور الشاعر الذي كان كثيرون يعرفونه كأول رئيس لجمهورية السنغال، ولم يعرف كشاعر بصورة كبيرة، إلا بعد أن تنازل عن الحكم، كذلك قرأت رواية جميلة في التسعينيات، كان اسمها «سيد البحار» وهي عن قبطان قرصان، يسقط في دوامات شتى، وكان من الممتع معرفة أنها من تأليف الرئيس البرازيلي في فترة ما، جوزيه سارنيه، وأعتقد أنه لم يكتب غيرها، وقد اقتنيتها بناء على نظرة العين فقط، حين وجدتها على رف مكتبة في بيروت، ولم أعرف بمسألة الرئاسة هذه إلا حين قرأت المقدمة.

بالطبع ليس كل الكتاب أو المبدعين، قد نالوا حظا من الشهرة. هناك مبدعون كثيرون في أي مكان، كتبوا وأخلصوا وعاشوا ورحلوا ولم يلحظ وجودهم إلا قليليون من الذين صادفوا أعمالهم هنا وهناك، وهؤلاء بالقطع اعتمدوا على وظائفهم أولا وأخيرا، وربما لا يعرف حتى أصدقاؤهم ومعارفهم، أنهم مبدعون، وفي الحقيقة هم نماذج للذين لا يريدون من الإبداع إلا جذوته، يشعلونها ويشتعلون بها وكفى، ولو كان ثمة إنصاف، لطاردتهم الشهرة حتى عزلتهم ومنحتهم الضوء.

أذكر في بداياتي الشعرية في مدينة بورتسودان، أنني تعرفت إلى شاعر مجيد، يعمل موظفا في إدارة الموانئ البحرية، كان يركب دراجة نارية، ويدخن بكثرة، ويكتاب شعرا مليئا بالصور والإيحاءات، يقرأه لنا بصوت عال ضخم، ونحن لا نطرب فقط، لكن نتعلم أيضا، نتعلم كيف نتميز شعريا وكيف نؤاخي أسماع

الآخرين لينصتوا بصبر ودهشة، كان ذلك منذ زمن طويل، ولم أعثر بعد تلك الأيام على ذلك الشاعر، أعني لم أعثر على ديوان مطبوع، ولا سيرة موثقة في محركات البحث، هو نموذج للمبدع الموظف، الذي لن يهمه عاشت قصيدته أو لم تعش، المهم هو أطلقها وقرأها لأشخاص يحبهم، وانتهى الأمر.

ولو جلست على المقاهي التي يتجمع فيها الأدباء عادة، في كثير من المدن العربية، ستعثر على كثيرين، لا تعرفهم لا مبدعين ولا موظفين حتى، ستتعرف إليهم شعراء وقصاصين وروائيين، وستفاجأ بأنهم يديرون وظائف تخفق لها القلوب، وظائف مثل التخصص في جراحة القلب، مثل قاضي محكمة عليا، مثل أستاذ القانون في إحدى الجامعات وغير ذلك كثير.

40

في استطلاع للقراء، من تلك التي تزدحم بها الإنترنت عادة، وتشمل كل شيء عن الكتابة وتداعياتها، كان السؤال هذه المرة: من هو الكاتب الذي تقتني كتابه من دون أن تفكر لحظة، وبمجرد أن تلمحه على رف مكتبة، أو في معرض للكتب؟

هذا النوع من الأسئلة في رأيي، اختبار للمحبة أكثر من البحث عن الجيد والممتع لقراءته والاستمتاع به، أو اكتساب شيء من المعرفة من ورائه، هو غالبا للقراء الذين تمرسوا في العمل القرائي، إذا اعتبرنا القراءة، في حد ذاتها نوعا من العمل، أو الوظيفة، فالقارئ حين ينفق ساعات في كتاب ما، فهو يمارس وظيفة، وإن كانت وظيفة تطوعية في النهاية، لا يمنح بموجبها أجرا.

نعم لكي تجيب على هذا السؤال، لن تكون قارئا عابرا في أي صورة من الصور، من أولئك القراء الذين قرأوا كتابا مثل: "قواعد العشق الأربعون" لإليف شافاق، و"اسمي أحمر" لأورهان باموق، و"في انتظار البرابرة" للجنوب إفريقي كويتزي. وتوقفوا أو ظلوا مترددين في قراءة أعمال أخرى، هنا من الفترض أنك قرأت معظم ما أنتجته إليف شافاق، وما أنتجه أورهان باموق وكويتزي، وماركيز ويوسا، ودوستوفسكي، وألبير كامو ونجيب محفوظ، وكل كتاب العالم المعروفين، بمن فيهم الكتاب العرب الجيدين. الذي يحدث أن القارئ المتمرس، يغرم بأسلوب كاتب

ما، وبالتالي يظل مهووسا به، ويطارد عناوينه في كل مكان، بغض النظر إن كانت تلك العناوين جذابة أم لا، ومحتواها إن كان شيقا وجديدا أم لا؟ ولكن بالقطع فيها أسلوب الكاتب الذي أحبه منذ قرأ له أول رواية، وغالبا سيظل يحبه باستمرار.

وعلى الرغم من أن الأعمال الإبداعية لدى معظم الكتاب ليست ثابتة في جودتها دائما وتتراوح بين الممتاز، والجيد جدا والعادي، فإن ذلك لا يخيف عشاق الكاتب، ولا يبعدهم عن الاستمرار في متابعته، وقد يدافعون عن أعمال يراها غيرهم هشة، وقد يصعدون بتلك الأعمال الهشة درجات كبرى في التنويه بها بوصفها من الأعاجيب، وكتابة مراجعات مثالية لها في مواقع تقييم الكتب المعروفة، حيث تعثر على مثل ذلك الهوس، وهوس آخر في كراهية كاتب ما، حين تجد من يهاجمونه بلا أي مبرر.

أذكر في بداية تعرفي إلى عالم غارسيا ماركيز، وقبل أن أتعمق في الكتابة، حين قرأت رواية "أحداث موت معلن"، تلك الرواية القصيرة الغريبة، وكنت اقتنيتها من مكتبة في دمشق في زيارة قمت بها لسوريا، بالطبع قبل أن تتوعك هذا التوعك الكبير بسنوات طويلة، أذكر أنني انغمست في الرواية منساقا إلى عوالمها، ومنبهرا بذلك الحكي المترف في الشد، وكيف أنك تتشوق لقراءة قصة مكشوفة من الأول، وينبغي أن لا تكون مشوقة، وقد فاتني جراء ذلك الانغماس، كثير من ضروب البهجة في الشام، وكانت ثمة حفلات لمغنين مخضرمين وندوات ثقافية، وتأكد لي منذ

ذلك الصيف أنني مغرم فعلا بماركيز، الذي ظللت أقرأ أعماله حتى توقف عن الكتابة، وكان فيها الجيد والمبهر بالطبع، وفيها العادي أيضا، فقط تظل في مجملها أعمالا فيها بصمة كاتب أحببته وما زلت أحبه.

أذكر أنني تحدثت مرة عن روايته الصغيرة، التي اعتبرتها عادية، وأعني: "ذكرى غانياتي الحزينات" التي تدور أحداثها في بيت لامرأة عجوز، فيه فتاة نائمة، ويأتي عجوز في التسعين يوميا، ليسهر قربها، يراقب نومها وتقلباته، وكوابيسه، إنها ليست رواية سيئة أبدا، لكن قد تكون أقل إبهارا من معظم الأعمال الأخرى، أيضا رواية "إيرنديرا الغانية" وجدتها، وكانت عظيمة في وقت ما إلا أن إعادة قراءتها في الوقت الحالي لن تعطيها تلك العظمة القديمة، وأظن من حبي لماركيز، ظللت أقرأ كتب مقالاته، بالحماس نفسه الذي أقرأ به رواية..

التركي أورهان باموق، تعرفت إلى عالمه الجميل في رواية "ثلج" الضخمة التي ترجمها الراحل عبد القادر عبد اللي، وناقشت قضية الحجاب في تركيا، مع قضايا أخرى حيوية، ثم بدأت أجمع أعماله، بعد ذلك وإلى الآن أقرأ كل ما أجده له، وستنطبق إجابتي على الاستطلاع إن أجبت عليه، على أورهان باموق كما انطبقت على ماركيز منذ زمن طويل: كاتب أقتني أعماله بمجرد رؤيتها على رفوف المكتبات أو معارض الكتب أو حين تظهر في المتاجر الإلكترونية.

بالنسبة للقراء الذين ينتظرون قوائم الجوائز كل عام، ويقرأونها

فقط، من دون الالتفات للإنتاج الإبداعي الآخر، الذي قد يكون أفضل من تلك القوائم: هل يمكن أن نعتبرهم قراء متمرسين، أو قراء يمكننا أن نثق في انتمائهم لقبيلة القراءة؟

في رأيي ليس كثيرا، لأن الشيء الذي ينبغي معرفته في هذا الموضوع، هو أن اختيارات الجوائز، هي اختيارات حكام، يحملون تذوقا معينا، أو انحيازا لأسلوب ما دون الأساليب الأخرى، والقارئ الجيد لا ينتظر أن تعلن قائمة ليطارد محتوياتها، عليه أن ينتمي لحيز ما، لأسلوب ما، لبصمة كتابية يتبعها، من دون أن يغفل عن ما في المكتبات من فن، تجاهلته الجوائز.

شيء أخير، وهو الأحوال الاقتصادية السيئة التي تمر بالعالم، خاصة عالمنا العربي، حيث نجد في كل بلد شكاوى، وشروخا، ومطاردة للرزق، مما يبعد الناس عن اقتناء الكتب، حتى لو كانوا قراء جيدين، ويرغبون حقا في القراءة الصحيحة.

41

بعد 11 إبريل 2019، أي بعد سقوط النظام المظلم، واندلاع فرحة كبرى لدى كل الناس في السودان، وأعني ممن مسهم الضر، وحرموا من خير وطن كله خير، أردت أن أطرح مسابقة في القصة القصيرة للموهوبين من الشباب، كل يكتب عن تلك الأيام وما قبلها من ترقب وأرق، وما يتصوره بعدها من ترقب جديد، وأحلام تتم صياغتها أدبيا.

أردت في الحقيقة، أن أجد للأدب موضعا هو الآخر في خطة بناء وطن جديد مختلف تماما عما كان عليه في السابق، ومعروف أن السودان لم يترك ليحتضن أهله بالكامل إلا أوقات قصيرة منذ الاستقلال. الذي حدث أنني أحسست بخطأ ما في ذلك الطرح، فالشباب الذين تحملوا قسوة إشعال ثورة قاتلت نظاما متعمقا في الجلوس على ظهر الوطن، ما زالوا مشغولين بإكمال ثورتهم، التي وجدوها بحاجة لإكمال منذ الوهلة الأولى، وقبل أن تختفي عبارة» تسقط بس»، التي لازمت الثورة عن الأذهان والألسنة، وأي إضافة لها علاقة بالإبداع، حتى لو كانت مهمة، ستعد ترفا بكل تأكيد، وقد تكون مجرد مسابقة تطرح نظريا بلا أي تفعيل حقيقي.

هناك كثيرون بلا شك ستعجبهم المسألة، وسيودون أن يشاركوا فيها، فقط ليس ثمة ما يمكن قوله، أو إدراجه من

أحلام، وكل حلم تتم صياغته، قابل لأن يموت مباشرة، وحتى قبل ولادته. الذي أردت قوله، وتذكرت أنني قلته من قبل في بداية ثورات الربيع العربي، التي خاضتها دول أخرى شقيقة، وحين شاهدت كما كبيرا من الأعمال الروائية والقصصية، تكتب عن تلك الأحداث، وفيها استعجال كبير، إن الكتابة الإبداعية باستخدام تلك الأجواء، غالبا لن تنجح ما لم تستقر الأمور، أو على الأقل نعرف اتجاه الحلم، وفي أي واقع سيرسي، وهذا الأمر يحتاج وقتا بكل تأكيد. فحين تكتب عن النضال مثلا، ستكتب أشياء معروفة ويمارسها الناس يوميا في حياتهم، وحين تكتب عن الحرب والدمار، والسجون، والتعتيم والقتل، فأنت أيضا تكتب حقائق، لا تستطيع أن تضيف إليها إبداعيا إلا القليل، نعم ستكتب أن مجزرة حدثت، ومواطنين ماتوا أو فقدوا، وشوارع غاصة بالفوضى والدم وجنون العظمة، وقد تتذكر قصيدة حماسية لأمل دنقل، أو صادمة من شعر محمود درويش، ولكن أين حياة الوطن التي من أجلها هبت الثورة؟

أين الأحلام المصاغة في الشعارات: حرية، سلام وعدالة؟ ومن الذي سيسأل عن التنكيل بتلك الشعارات، ومتى؟ وكيف؟

إنها أسئلة حارة جدا وحزينة وصعبة، لكنها ليست أدبية في أي حال من الأحوال، فلن يجيب الأدب عن سؤال خاص بالواقع، كما لن يجيب الواقع عن سؤال خاص بالأدب، فكل له أسئلته وأجوبته، وقد شاهدنا الأم عايدة، وقد حملت صورة لابنها الطفل أحمد، الذي اغتيل بآلة القمع، وجلست في وسط

المعتصمين، هي في الحقيقة رغم صمتها كانت تسأل سؤالا واقعيا: من يجيء بحق ابني؟ هو سؤال خاص بالواقع وليس بالأدب، أيضا شاهدنا أسرا لضحايا عديدين فقدوا في الثلاثين عاما الأخيرة، يحملون الصور والصمت وأسئلة الواقع التي تنز من نظراتهم.

كذلك ذكرت وأثناء قراءتي لبعض أعمال الربيع العربي، إننا لا نريد أن يبدو الأدب عجولا وهو يشارك، نريده أن يشارك ولكن بتعقل وروية، وقد وضحت ما أعتقده من دوره في مقالي السابق. نعم على من يريد أن يكتب نصوصا عن التغيير ينبغي أن يكون ملما بكثير من الأحداث، وملما بكثير من التأويلات قبل أن يخط نصا، فليس كل من هتف أو ردد شعارا مناوئا، أو رفع علامة النصر في وجه كاميرا متجولة في الشوارع والميادين، وهو يبتسم، قادرا على إنتاج عمل أدبي جاذب للقراءة، ومؤرخ للأحداث بحيث يقرأ كوجبة مهمة، غنية بالمعرفة.

حتى الكتاب المخضرمون أنفسهم، رغم انغماسهم الطويل في درب الكتابة عن القضايا الكبرى والصغرى، يحتاجون لتلك الانشغالات المهمة قبل أن يبدأوا كتابة نصوص، وربما احتاجوا لرؤية الأماكن التي جرت فيها بعض الأحداث ليرسموها بدقة، وحين تُكتب نصوص جيدة بعد ذلك، ستوضح وجهة نظر الأدب المتأنية في ما حدث، من دون إجابة صريحة عن أسئلة الواقع الكثيرة المتشعبة. وقد يكون الأدب عاجزا عن الرسو على وجهة نظر ثابتة، ما دامت الأحلام متأرجحة، ولا تدل على

وجهة ما.

عموما تبدو مادة الثورات والانتفاضات والحروب، غنية بشكل ما، ذلك الغنى الذي تصنعه المأساة، ودائما ما ينظر للمأساة في بلادنا باحترام شديد، بعكس النظر إلى الفرح والابتهاج، وهو أيضا ضرب من ضروب الحياة، أي شخص سيحس بالدهشة وعدم التصديق، حين تخبره عن وفاة شخص يعرفه، وقد لا يحس بأي شيء، ولا تخرج منه سوى ابتسامة صغيرة، حين يسمع بزواج شخص يعرفه أيضا، والجميع سيصابون بالبؤس حين يرون صورة شيخ يبكي، وستتقد كثير من الأسئلة في ذلك الشأن، لكن مجرد ضحكات مستخفة ستصدر حين يرون صورة لذلك المسن وهو يضحك. ولو تأملنا الأغنيات الشعبية في كل بلادنا العربية، فلن نستخرج منها سوى عدد قليل يمجد الفرح، ويدعو إلى البهجة، بينما معظمها، بكاء وأنين وفراق، حتى الأغنيات التراثية التي تمجد الأبطال، ستمجدهم في الغالب بعد أن يموتوا، وبذلك يمتزج الفخر بالدمع.

مع ذلك لن نقول إن الكتابة في زمن تأرجح الأحلام ممنوعة، هي ليست ممنوعة أبدا، فقط لن تكون بالتأثير ذاته، كما لو كانت في زمن آخر، وبالنسبة للمسابقات، مؤكد سنعيد طرحها حين ينتهي الناس من دفن موتاهم، واستئناف حياة راسخة نوعا ما.

42

في حوار مع الروائي السريلانكي الذي يحمل الجنسية الكندية، مايكل أونداتجي، ذكر بأنه كذاب بالفطرة، وهذا ما ساعده على كتابة الروايات، والحقيقة أن الكاتب الذي ألفّ منذ أكثر من عشرين عاما، رواية «المريض الإنكليزي» المهمة التي حصلت على جائزة مان بوكر في تسعينيات القرن الماضي، وتحولت إلى فيلم سينمائي، وأظنها توجت أيضا كأفضل رواية حصلت على بوكر، هذا الكاتب لا شك عرف طريقه منذ بداياته، وكتب روايات جميلة ومميزة وظليلة أيضا، من حيث الفن والمعنى، وتكفي «المريض الإنكليزي» فقط، لتجعله من الروائيين الخالدين، وإن كنت شخصيا قرأت له مرة عملا لا أذكر اسمه، لم أستطع إكماله، وهذا قد يكون بسبب عيب في مزاجي أو سعة صدر تذوقي أثناء قراءتي للعمل، أو لعل الموضوع لم يكن يهمني كثيرا.

المهم أن مايكل تحدث عن الكذب كأداة فاعلة من أدوات صناعة الرواية عنده، وذكر أيضا شيئا آخر، أو لنقل طقسا شبيها بالذي أملكه شخصيا، وهو أنه لا يتعمد الكتابة، والتخطيط ورص الشخصيات، وتفصيل أدوارها أبدا، وإنما يترك كل شيء يمضي بنفسه، أي يترك الأحداث تقوده والشخصيات تتلمس طريقها في فضاء النص حتى تصل.

وقد ذكر في حديثه عن إحدى رواياته، أنه خطر له أن هناك شخصية الأم بجانب الشخصيتين الرئيسيتين، لكنه لم يعرف لماذا فكر أصلا في وجود شخصية أم، وحين كتب، وجد الأم حاضرة بنفسها وتلعب دورا لم يرسمه لها، وإنما رسمته هي بنفسها.

هو قال الكذب، وأنا أسميه سعة الخيال، لأن الكذب ككلمة، دائما ما تشير إلى خطب ما، والذي يكذب إنما يخفي صدقا في ذنب مرتكب: أن تكذب على معلمك بخصوص إهمالك للواجب المدرسي، تكذب على أبيك بخصوص تغيبك عن البيت، على أصدقائك، باختلاق أشياء ليست صحيحة، من أجل الخروج من مأزق وقعت فيه، في حين أن كتابة القصة أو الرواية، لكز عنيف للخيال ليتمدد، ويركض بعيدا ويجمع ما يستطيع تجميعه، بغرض المتعة والمعرفة، وكل تلك الإيجابيات المعروفة عن الرواية، وإن كان تمدد الخيال أكثر من اللازم، شبيه بشحه، يقود كلاهما إلى الملل، ولا يستطيع القارئ الاستمرار في القراءة، لأنه لا يجد متعة، أو إرهاصات دهشة.

كنت في عدد من مقالاتي، تحدثت عن الرواة الشفاهيين، وهؤلاء لا يستطيعون كتابة رواية كاملة، وأصلا ليس في أذهانهم أدنى طموح لكتابتها، كما أن أغلبهم أو جميعهم تقريبا أميون، يستمعون إلى نتف من الأخبار في الراديو، ويشاهدون بعض الحوادث في التلفزيون، ويضعون أنفسهم في قلب تلك الأخبار والحوادث بوصفها حوادثهم هم، وقصصهم هم، وتصبح

قصص الحب البعيدة، هي نتاج خفقان قلوبهم، وبطولات الغابرين، والمعاصرين هي بطولاتهم، ومنذ أيام التقيت رجلا مسنا ربما بلغ الثمانين، يضع على أذنه اليمنى سماعة بسبب ضعف السمع، حكى لي بكل جدية، أنه من الذين اعتصموا في ميدان القيادة العسكرية العامة في الخرطوم، هتف مع الذين هتفوا بسقوط النظام، وتحدث عن مواضيع مهمة تهم السودان كثيرا، وصام عدة أيام، وأفطر هناك قبل أن يسافر عائدا إلى حيث يقيم، ولأن الرجل ليس من السودان، ولا يبدو أن لديه مصلحة هناك تجعله يحمل كل تلك السنين والعلل ويسافر، ويعتصم مع شباب يمكنهم التحمل، استنتجت أنه من أولئك الشفاهيين الرائعين، واخترع لي قصة من وحي أحداث الساعة، ورواها لي بمجرد أن عرف أنني من السودان، وبالطبع لن أقول له أي شيء، عن شكوكي، وسأشكره على مؤازرته لثورة الشباب السوداني، فقط لن أترك لخياله أن يتمدد أكثر، خاصة حين أراد أن يحكي لي عن مناجم الذهب السودانية التي عمل فيها منذ أعوام.

نعود إلى الكذب المكتوب، بوصف مايكل أونداتجي، والخيال المكتوب بوصفي ووصف معظم الكتاب الروائيين، هنا قد تجد الروائي صامتا معظم الوقت، ولا يدلي بأي دلو في حديث أو نقاش يدور أمامه، ولدرجة أن يظنه من لا يعرفه، مجرد شخص بسيط وأمي، ولكن حين يكتب، تأتي كل الأشياء المختزنة، وتتصارع على أوراقه، وتشكل نصا ربما يكون متميزا بحسب تميز الكاتب نفسه. هنا الحكاء لن يكون شفاهيا وإنما شخص يوثق الحكي، وقد

يستفيد من الحكائين الشفاهيين في ذكر أحداث سمعها منهم، حيث يقوم بتطويرها وتحويلها إلى فن، لذلك أنا لا أقلل من الشفاهيين أبدا، ولا أتهمهم بالكذب حتى حين يتجاوز خيالهم تلك الخطوط الحمر، مثل أن يقول أحدهم إنه رفض أن يكون وزيرا في حكومة ما، أو يدعي أنه التقى بيل كلينتون، وحكى له كلينتون قصته كاملة، مع تلك الفتاة الشابة التي فضحته، أكتفي هنا بالموافقة على ما يقول، وقد أسأله أسئلة سطحية، لا تربك الرواية الشفاهية.

وبالطبع الفانتازيا، هي قمة الخيال الواعي، تلك التي يمكن أن يبتكر داخل نصوصها كل ما لذ وطاب من القصص والحكايات، ويمكنك فعلا اختراع أشجار غير موجودة، وأدوات حياتية غير موجودة، وحتى أمراض وأدوية، وشخصيات توهم القارئ بأنها من صميم مجتمعه وتحيا معه، إنها كتابة أحبها، وقطعا مايكل أونداتجي يحبها وكثيرون يحبونها وبالقدر نفسه، هناك من لا يطيق التعامل معها.

ولعل جزء من نصائحي التي أرددها دائمل للذين يتعلقون بالكتابة ويودون أن يكتبوا، وقد يلتحقوا بالورش الإبداعية لهذا الغرض، أن يجالسوا الكذابين الرائعين، أقصد الرواة الشفاهيين، هؤلاء مدارس في تعليم الكتابة، وسند راق للخيال أن يتمدد.

43

من الأسئلة التي طرحت عليّ في ملتقى ثقافي في الكويت، ومن قارئة مثقفة، سؤال اعتبرته مهما، ويمكن أن توضح الإجابة عنه أو تضيء جزءا من آلية صناعة الرواية.

كان السؤال هو: هل يمكن كتابة رواية حسب الطلب؟ بمعنى هل يمكن للكاتب أن يقوم بكتابة رواية بناء على معطيات زوده بها أحدهم، وطلب منه أن يكتبها رواية؟ مثل أن يزوده بقصة حب كان طرفا فيها، أو مأساة جرت في عائلته، أو حتى كارثة قومية، كان راوي القصة، مشاركا في فصولها ويريد أن يراها في رواية؟

لقد ذكرني ذلك السؤال بأيام كتابة الشعر في بداية التعلق بالكتابة، حين كنا نستمع إلى قصص الحب أو الجمال أو أوصاف الجميلات، ونكتب القصائد بناء على ذلك، وأذكر أنني كنت أستمع للكثير من تلك الحكايات، التي يرويها أصدقاء وزملاء في المدرسة، وغالبا ما أسلمهم قصائد يفرحون بها، ثم أسمع تلك القصائد مغناة بأصوات مطربين مغمورين، وقد جاءني أحد هؤلاء المطربين الصغار يوما وأضحكني كثيرا حين قال: اكتب لي قصيدة» لأكهرب» بها واحدة تعجبني، لكن تلك الفترة المراهقة انقضت بخيرها وشرها، ودخلت بعد ذلك في مجاهل الشعر الحر، ثم أقلعت عن الشعر كما هو معروف.

أعود لطلب كتابة الرواية، وأظن أننا متفقون جميعا على أن كتابة الرواية في أغلبها إيحاء يأتي للكاتب من أفكار اختزنها في عقله الباطن، صادف أنها استعرت فجأة بناء على مواقف جديدة حدثت للكاتب نفسه بلا وسيط، وانهمرت نصا روائيا. هذا عن الكتابة الأولى بالطبع، ثم تأتي الصنعة في كيفية ترتيب الأفكار والفصول، وتصعيد بعض الشخصيات إلى الذروة والهبوط بأخرى، أي جعل بعض الشخصيات رئيسية، وأخرى ثانوية، وإضافة أحداث للنص، وحذف أحداث لا ضرورة لها، والمؤكد أن الكتّاب الذين لديهم خبرة جيدة، يستطيعون تنميق عملهم وترتيبه جيدا حتى من المسودة الأولى، وتأتي المراجعات بعد ذلك مجرد رتوش بسيطة لا تغير من النص كثيرا.

في هذا السياق، أي وجود دروب يمكن أن تسلكها الصنعة إلى النصوص المكتوبة بإيحاء، يمكن أن تدخل النصوص المحكية، أي تلك التي يرويها آخرون لكاتب روائي ليقوم بصياغتها أدبيا.

المسألة هنا ليست سطحية بكل تأكيد، أي أن يستلم الكاتب خامة النص بأذنيه، ويجلس في اللحظة نفسها ليكتب نصه الروائي، ويأتي بعد شهر أو شهرين ليقرأه على صاحب الخامة، ويرى ابتسامته متسعة، أبدا هذا في رأيي لا يحدث، ولكن الذي يحدث هو أن الكاتب يستمع للحكي، يختزنه في ذاكرته، وتماما مثلما يحدث مع نصوصه الشخصية، يدور النص المحكي في ذهنه، حتى تنضج فكرته جيدا، وتأتي شخوصه راكضة بعد ذلك. إذن لن يكون ثمة خلاف كبير، ولن يدعي أي شخص

حكى قصة لكاتب، إن القصة له، لأن ما حُكي ليس ما كتب تماما، وإنما أعيدت صياغته واتسعت مساحته ليستوعب أفكارا أخرى، ولو كان هو القصة الأصلية، إذن لماذا لم يكتبها الذي رواها للكاتب؟ قطعا سنجد قصص الحب التي رويت، ولكن بثياب أخرى، وقصص المآسي والأفراح بثياب إما أكثر بهاء، أو قتامة، ولو كان ثمة موت في النص المحكي، سيكون في الرواية موت أيضا، فقط بشروط أخرى، وأسباب أخرى.

لقد سألتني القارئة التي طرحت سؤال النصوص المستلفة، إن كان في تجربتي عمل كتبته حسب الطلب؟ وتقصد بناء على قصة أسمعني إياها أحدهم، وطلب مني كتابتها؟

في الحقيقة كتبت أكثر من مرة بناء على اقتراحات من قراء، ولا أعني أن أحدهم حكى قصة تخصه، إنما كانت القصص تخصني أنا، وفقط ما وردني كان اقتراحات من أشخاص يتابعون كتابتي، مثلا كتبت مرة على صفحتي في فيسبوك عن الرسائل التي عثرت عليها مع عدد من زملائي، أمام سور المدرسة الثانوية في مدينة بورتسودان، حين كنت طالبا، كتبت لمحة صغيرة عن الرسائل المكتوبة لواحدة اسمها أسماء، من شخص سمى نفسه المرحوم، وعلى الفور انهمرت التعليقات وكانت كلها اقتراحات بأن يكتب هذا النص كعمل روائي. والذي حدث أنني بدأت أنظر للفكرة بشكل جدي، قمت بتدويرها في ذهني، وسرعان ما تشكلت في الخيال وكتبتها بعد ذلك، ولم أحس أنها رواية بناء على طلب أحدهم، وإنما روايتي المطمورة في الذهن، وكانت

ستخرج منه آجلا أم عاجلا، وفقط سارع بإخراجها عدد من الأصدقاء.

أيضا ذكرت مرة تلك الرسالة التي تلقيتها من قارئة، اطلعت على نص لي صورت فيه ما لحق بالرجال من أسى، جراء التطرف والهذيان، وادعاء امتلاك الحقيقة عند البعض، كانت القارئة تسأل عن مصائر النساء في تلك البلدة، التي أصابها الخراب، وهنا أيضا توقفت عند تلك الفكرة المقبلة مع الرسالة:

ماذا حدث للنساء في مدينة استبيحت بالكامل؟ وأيضا كان هذا نصي الموجود في الذهن وتمت مناداته بواسطة قارئة متمكنة، لقد كتبت تلك الرواية التي كانت تبحث عنها القارئة وربما غيرها من القراء، ولا أحس أبدا أنها كانت كتابة بناء على رغبة أحدهم..

الفكرة إذن في هذا الموضوع، هو الجدية في استلام الطلب، والجدية في التعامل معه، وإدخاله إلى الخيال والتأمل، والخروج بنص هو في الحقيقة نص الكاتب، وسيكون كتب بكل أدواته التي يملكها.

أخيرا أشير إلى أن هناك كتّابا يصنعون الرواية من دون أي اعتماد على الإيحاء، أي يكتبون بقصدية شديدة. حين يجلس أحدهم إلى الطاولة بنية الكتابة ويكتب، وهنا لا أقول أن ذلك عيب، بل أظنه براعة، أن تكتب بلا انتظار للكتابة أن تأتي، ومثل هؤلاء الكتّاب، قطعا تناسبهم القصص المحكية كثيرا.

44

من الأسئلة التي طرحت في احتفالية لإطلاق كتاب جديد لي في الكويت، سؤال استعارة المكان، أي إمكانية أن يكتب أحدهم رواية كاملة عن مكان لم يره من قبل ولم يعش فيه، ولا يحس القارئ بأي فرق، كما لو أن كاتب الرواية ولد وتربى في ذلك المكان؟

هذا السؤال من تلك الأسئلة المهمة التي أترقب ظهورها دائما، في أي حوار أجريه، أو جلسة نقاشية أشارك فيها، ولكن لا تظهر في العادة إلا نادرا، بعكس أسئلة أخرى، أعتبرها مزعجة أكثر من كونها أسئلة ملحة تبحث عن إجابات معقولة، مثل سؤال الكتابة الأزلي: لماذا نكتب؟ وسؤال علاقة المهنة بالكتابة: لماذا يكتب الطبيب روايات؟

لقد ذكرت مرة أن من شروط الكتابة الجيدة، أن تخبر المكان جيدا قبل الكتابة عنه، ترى الشوارع والمباني والأسواق، وتتابع بعينيك حركة الناس في أماكن الضجة والسكون، تأكل في مطاعم، وتدخل دور سينما وعبادة، وتتحاور مع شخوص افتراضيين قد لا يدخلون نصك، لكن يثرونه بروح المكان، وهنا لا بد من الإشارة لمشاريع روائية عربية، أنجحها هذا السعي، وربما ما كانت ستنجح لولا اجتهاد كتابها في رسم مكان لم يسمعوا عنه عرضا، ولا قرأوا عنه في الكتب والإنترنت، وإنما عاشوا فيه وقتا

كان كافيا للإلمام بكثير من خصائصه، وبالتالي كتابة نصوص ناجحة.

والذي يقرأ رواية «كتيبة سوداء» للزميل محمد المنسي قنديل، التي كتب فيها عن كتيبة عربية حاربت في المكسيك في زمن بعيد، يدرك أنه عرف ذلك المكان الذي جرت فيه أحداث روايته، وهذا صحيح، فقد زار أماكن القتال القديم، والمقبرة التي دفن فيها المحاربون. أيضا من عظمة رواية «ساق البامبو» التي بطلها فلبيني- عربي، أن سعود السنعوسي، زار الفلبين وتحسس خطى بطله هناك، قبل أن يكتب روايته الخالدة. ولو أردنا الحديث عن مشاريع عالمية، لعثرنا على كثير منها، مثل مشاريع لكتاب عرب، عاشوا في أوروبا وكتبوا عن البلاد التي يعيشون فيها، وبلغتها. وكتاب لاتينيين، أيضا كتبوا عن بلاد أوروبية، وأوربيين كتبوا عن الشرق، وغالبا بعد زيارات متكررة لأماكن، ربما كان الوجود فيها قصديا من أجل صناعة نصوص عنها، أو مصادفة، حين يأتي الكاتب في رحلة سياحية، وتنتهي تلك السياحة بنص عن المكان، الذي تمت زيارته.

وأظن أن رواية «الوله التركي» للكاتب الإسباني أنطونيو غالا من الروايات المهمة التي وظفت إسطنبول المدينة، والروح بطريقة جيدة. ومن متابعة الوقائع وحركة الشخوص يدرك القارئ بسهولة، أن الكاتب كان هنا ذات يوم، في فوج سياحي، زار معه المساجد الضخمة، والبازارات الغريبة، والمطاعم التي تقدم الوجبات الشرقية، ووقف طويلا ليتأمل الغروب عند

مضيق البسفور.

هناك سحر متفرد في رؤية العين، وسحر آخر في وقع الخطوات وهي تقترف المشي في الأماكن، وهكذا، هذه الروح ربما لا تكون عاملا مؤثرا كبيرا لدى القارئ الذي يتابع النص.

ما ذكرته، يتحدث عن حيوية النصوص التي كتبت بعد زيارة الكتاب لأماكن معينة، لكن ما زال السؤال معلقا: إذا لم يزر أحد مكان، وأراد الكتابة عنه، هل هذا ممكن؟

بالتأكيد، وفي زمن الإنترنت التي لم تعد توجد معها مسافات ولا أسرار ولا دروب مدفونة، يمكن البحث بجدية، من داخل مكتب مغلق، أو مقهى، أو ممر ضيق، أو حتى أثناء التوقف في إشارات المرور، وأنت تقود سيارة، عبر الهاتف الذكي، نعم يمكن العثور عن أي معلومة يراد البحث عنها، وإحضارها خاضعة لتوظف أو لا توظف في نص روائي، يمكن أن نأتي بالماضي والحاضر، والمستقبل الذي يصاغ عبر التكنولوجيا وكتابة كل شيء، وبالتالي تنتفي حاجة السفر إلى كولمبو، لنكتب مثلا قصة «بيريرا السريلانكي»، الذي عمل سائقا في الخليج العربي وعاد إلى بلاده، ليبدأ حياة معوجة، أو العكس حين يأتي من هناك، ليعيش وقائع غريبة في الخليج، فكلومبو وغيرها من المدن والأرياف في تلك البلاد، يمكن الحصول عليها، وربما بمعلومات أكثر مما لو أن الإنسان عاش فيها، أيضا تنتفي الحاجة للجلوس على مقهى في شارع إدجوار الشهير في لندن، لكتابة نص عن العرب الذين يطرقون ذلك الشارع كثيرا، فشارع إدجوار وشارع بادنجتون

وغير ذلك من الشوارع والأماكن، موجود أيضا وبعلومات تفيض عن الحاجة.

إذن يمكن كتابة روايات عن أماكن من دون رؤيتها، لكن هل تمت الإجابة عن السؤال فعلا؟

أعتقد لا، فما زال ثمة شيء مفقود هنا، أي في النصوص التي تكتب عن الأماكن بعد البحث عنها في الإنترنت أو الكتب، وأعني هنا الروح الحية، وصدقا مهما شاهد أحد مكانا في التلفزيون أو السينما، ومهما قرأ عنه في الإنترنت، لن يحس بامتلاكه المعلومة كاملة إلا بعد رؤية المكان، هناك سحر متفرد في رؤية العين، وسحر آخر في وقع الخطوات وهي تقترف المشي في الأماكن، وهكذا، هذه الروح ربما لا تكون عاملا مؤثرا كبيرا لدى القارئ الذي يتابع النص، وقد لا يهتم أصلا بالسؤال إن كان الكاتب زار تلك الأماكن التي يكتب عنها أم لا؟ فقط تظل هاجسا لدى الكاتب نفسه، هو من يحس بوجود بهار ناقص في الطبخة، وقد يمتلكه هاجس كبير، أنه أخطأ في الوصف، أو ذكر أشياء غير حقيقية، وغير موجودة أصلا، هو التقطها من الإنترنت، التي مع توفيرها لهذا الكم الهائل من المعلومات، يمكن أن تغش أيضا. هنا تمت الإجابة كما أعتقد، التي نلخصها في أن الكتابة عن أي شيء ممكنة، فقط الأمر يحتاج لجرأة وإحساس بالمغامرة، وأصلا الكتابة الإبداعية كلها، مغامرة ربما تنجح وتمجد كاتبها وربما تخفق وتدفنه.

45

من المميزات المهمة للثورة السودانية، التي اندلعت فيديسمبر٢٠١٨ وأسقطت نظاما كان يعد راسخا حتى عهد قريب، كما يقول مؤسسوه، وكما تقول الحسابات التي أبقته ثلاثين عاما، تحكم فيها في كل شيء في السودان، من مميزات تلك الثورة، أنها أعادت للمجتمع كثيرا من الإيجابيات التي كانت سائدة في الأزمنة الماضية، أو الأزمنة الجميلة كما نسميها دائما، وأعني هنا التماسك والوحدة بين الناس، والفزع لنصرة المحتاج، وكل تلك الإيجابيات التي اختفت مع بروز واستعارة أدبيات أخرى، مثل الجشع والأنانية، وعادات جديدة لم يكن يعرفها المجتمع السوداني.

حقيقة كان عهد الإنقاذ، هو عهد الدولة التي تركت لتصبح عميقة بهذا الشكل، وممعنة في العمق وطاردة لكل خصومها، وترتب على ذلك أن اختفت كما قلت أشياء كانت تميز المجتمع السوداني عن غيره، أو لنقل تهالكت تلك السمات تحت ثقل الفقر، وانعدام الموارد، ووصول الأمر في الأيام الأخيرة إلى انعدام حتى الحق، الذي يملكه الناس، ولكن لا يستطيعون الحصول عليه، مثل أن تكون لديك نقود كثيرة في حساب بنكي، ولا تستطيع أن تسحب قرشا واحدا، فالنقود ليست لك ولا لغيرك من الذين يصطفون ساعات من أجل الحصول على رواتبهم،

ولا يحصلون على شيء في النهاية.

في الماضي ومهما صعبت الحياة، كنت لا تدخل بيتا وتخرج منه بلا ابتسامة في وجهك أو لقمة تسد جوعك إن كنت جائعا، أو تجد من يوصلك إلى حيث تريد، إن كانت ثمة سيارة متوفرة في البيت، من دون أي إحساس بأنه يقدم خدمة، وقد قضينا الكثير من زمن شبابنا المبكر في توصيل زورانا الذين يسكنون في الأحياء البعيدة، في كل زيارة لنا، وكانت الزيارات كثيرة، بحكم أننا كنا نسكن بجوار المستشفى الكبير في مدينة بورتسودان، وكانت زيارة المستشفى عادة متأصلة لدى الناس، والمريض يختنق من كثرة زواره، هذا أيضا يذكرني بأننا كنا مكلفين بحمل الطعام البيتي للمرضى الراقدين من الأهل، بشكل يومي، حتى لو رقدوا أشهرا، وقد ذكرت في سيرتي المبكرة «مرايا ساحلية»، التي كتبتها عن بورتسودان في فترة الطفولة والشباب، كيف كان جوار المستشفى مرهقا وكئيبا وضارا بمدخرات العائلة، لكن لا أحد يفكر في ذلك، كان كل شيء يؤدى بابتسامة وعن طيب خاطر.

يحس الناس حاليا بالجمال والنشوة، وأنهم قريبون من إرثهم القديم، قريبون من أجدادهم الذين قاوموا المستعمر، والذين قاوموا صعوبة العيش وعاشوا ليبنوا وطنا جيدا، اختفى معنويا سنوات طويلة وأعيد، وسيرمم من جديد.

الثورة جاءت بأدبياتها العديدة، جاءت بلغتها الخاصة، واستدعت حسنات الزمن القديم، وترى كيف كان الشباب

يساعدون بعضهم أثناء المظاهرات، كيف يهتفون بصوت واحد، هو الصوت الذي لم يتعمد أحد صياغته، لكنه صاغ نفسه بنفسه، وكيف تستطيع وأنت معتصم أمام قيادة الجيش، أن تأكل وتشرب وتحصل على الحماية من قوات هي في النهاية أهلك الذين عادوا إلى صوابهم، واستيقظوا ليكونوا حماة لك وللوطن، وعندي رأي في مسألة الجيش الذي يتحسس كثيرا من الناس من نواياه، وبعضهم يظن أنه خلق لخنق الأوطان، والحقيقة الجيش يتحمل عبئا كبيرا في حماية الوطن، إن استدعى الأمر ذلك، ويعيش أفراده أياما حالكة في الحروب والحاميات البعيدة عن المدن الآهلة، وأذكر أنني حين عملت في الحدود الإريترية، اختلطت بعسكريين يعملون في حرس الحدود، وكانوا مواطنين صادقين، ويمكن الاعتماد عليهم. صحيح يوجد دائما مغامرون يتطلعون بنهم للسلطة، ولكن هؤلاء المغامرين موجودون حتى في الحياة المدنية، ومنهم من يأتي ممطيا ظهر مغامر عسكري. عموما، يحس الناس حاليا بالجمال والنشوة، وأنهم قريبون من إرثهم القديم، قريبون من أجدادهم الذين قاوموا المستعمر، والذين قاوموا صعوبة العيش وعاشوا ليبنوا وطنا جيدا، اختفى معنويا سنوات طويلة وأعيد، وسيرمم من جديد.

أيضا عرف الناس لأول مرة حين تعرفوا إلى الشابة آلاء صلاح، الأيقونة كما عرفت بعد ذلك، أن لدينا في التراث نساء قويات ومتمكنات، لدينا كنداكات قديمات، أعادت الفتيات المعاصرات سيرتهن إلى الوجود، لدينا رجال فتحوا البلاد البعيدة، بجيوش وصبر، ولدينا أغنيات تمجدنا كشعب، كانت المحلية تخفيها

عن العالم، لتلمع بلمعان الأيام الماضية، ولطالما كان انغماسنا في محليتنا رغم كونه أصالة، إلا أنه يخفي ذلك الكم الهائل من الإبداع لدى شعبنا، ولو نظرنا فقط لغناء الحكامات، أو النساء الممجدات للمجتمع ورموزه، أحياء وأمواتا، لعثرنا على كثير من الصفات، والاستعارات والتشبيهات، ربما أكثر غنى مما يوجد في أي شعر مماثل.

ولو أحصينا عدد الشخصيات التي لعبت دورا في الحياة المدنية، لعثرنا أيضا على شخوص يمكن كتابتها في أعمال ملحمية، فقط تكمن الصعوبة في عدم وجود مصادر كثيرة، ومعظم ما نعرفه، نجده شفاهيا تمت روايته من جيل لجيل. وأظن أن الإنكليز وثقوا لبعض الأشياء، وتوجد في كتب صيغت بلغتهم، لكن لم تترجم مع الأسف، أو ترجم بعضها مثل كتاب «حكايات كنتربري»، الذي يتحدث فيه كل مسؤول عمل في السودان عن موقف صادفه، ونستطيع من خلال الكتاب أن نتعرف إلى شيء من سمات الحياة آنذاك.

بالنسبة للتكاتف الذي ذكرته، فقد كنت أرى العربات المحملة بالماء والطعام، تأتي من حيث لا يعلم أحد، أرى آنية تلقى فيها النقود لإعانة من يحتاج ولا أحد يأخذ منها، أرى مستقبلا مستمدا من الماضي البعيد جدا، وليس الذي عشناه، في الفترة الماضية وجفت فيه الحياة كثيرا.

في مدونة لفتاة إنكليزية، عثرت عليها مصادفة، ذكرت أنها قضت عاما كاملا متفرغة تماما للتعرف على ثقافات الشعوب المختلفة، ليس بالسفر الفعلي إلى تلك الشعوب في أوطانها، ولكن بقراءة آدابها، حيث اختارت من كل بلد رواية أو روايتين، قرأتها وتعرفت من خلالها على ما يمكن العثور عليه في تلك الدولة، إن هي حصلت على تذكرة طيران وذهبت.

تقول إن بضع ساعات من الانغماس في أي رواية من تلك الروايات، كانت كافية جدا، ليس لأخذ فكرة فقط، ولكن للحصول على المعنى كاملا. مثلا عرفت الكثير عن إسطنبول، من رواية لأورهان باموق، الذي يتخذ من تلك المدينة في الغالب مسرحا لتحرك نصه وشخوصه، عرفت عن ألبانيا من رواية لإسماعيل كداريه، وعن مصر من نص واحد لنجيب محفوظ، أظنه كان «زقاق المدق» أو «السكرية»، كذلك عرفت عن الصحراء من الكوني، وهكذا طافت العالم كله على أجنحة الرواية، وتؤكد أنها بعد عام من التفرغ لتلك الرحلة الورقية، لا تحتاج لتعرف المزيد.

هذا الزخم القرائي الذي حدث لدى تلك الفتاة واسمها ج. غرونواي، وبهذا التهيج في ادعاء اكتساب المعرفة من نماذج لروايات انتقيت من كل قطر، قد يحتمل الصواب والخطأ معا،

فالرواية في جزء مما تقدمه للناس، تقدم المعرفة، وكررنا ذلك كثيرا، وقلنا إن إمتاع القارئ، ومده بما قد لا يكون يعرفه، يمنح الرواية وظيفة حيوية، كأنها مرآة تعكس ما يدور في مجتمع ما، كأنها المجتمع نفسه، وفي الحقيقة هي مجتمع موازٍ، ينبض بين دفتي كتاب، ولطالما أمتعتنا بالفعل روايات محفوظ وإحسان عبد القدوس، وقادتنا في شوارع مصر وداخل بيوتها، زمانا قبل أن نرى مصر، ونجد شيئا من المصداقية، وأيضا شيئا من البهارات الإضافية المطلوبة، لتصبح الرواية نصا إبداعيا.

أقول إن رحلة غرونواي، وهي بالتأكيد رحلة شاقة وغير اعتيادية، وتحتاج إلى صبر، وإبعاد للملل من أجل إكمال القراءة، والعمل وفق برنامج صارم ولا يحتمل غير أن يكون صارما، هذه الرحلة ستنتقي كما قلت أعمالا معينة، وليس كل الأعمال التي صدرت في بلد ما، وقد يكون الاختيار عشوائيا، أو بناء على توصيات ما، أو حسب شهرة الكاتب التي وصلت إلى مسامع الفتاة، بينما لم يصل صيت كاتب آخر، قد يكون نصه أكثر تجاوبا في منح المعنى المراد استخلاصه.

أيضا قد يكون النص المنتقى، أو الذي تمت قراءته خاصا ببقعة معينة في وطن ما، مثلا يتحدث عن المدينة أو العاصمة فقط، وهناك أقاليم كثيرة متشعبة الثقافة، لم تتضح معالمها في النص، وأيضا ثقافات بديعة لم يتم التقاطها لأنها كتبت في نصوص أخرى إقليمية، وشديدة المحلية، فالقارئ لنص مصري عظيم مثل «زقاق المدق» لنجيب محفوظ، يتعرف على حارة

مصرية، في حي مزدحم، في مدينة كبرى، وقد يتقن المعرفة فعلا، لكنه سيفتقد زخما آخر، سجله محمد خليل قاسم، في روايته الوحيدة «الشمندورة» حيث تحدث عن عالم النوبة، وهو عالم حي متكامل، بتراثه وحضارته، وموجود في جنوب مصر، وسيفتقد تشعبات أخرى لأقلام مصرية، مثل قلم صبري موسى، الجميل، وقلم مستجاب الذي يختلف عالمه عن عالم أي كاتب آخر، حين يكتب عن الصعيد، بما خبره وحده. ولأن الريف المصري عالم حميم آخر، وقريب من معظم الكتاب هناك، سنجده موجودا ويحتاج لمعرفة أيضا. لن تكون موجودة في النموذج الذي تم اختياره من مصر.

الفتاة اختارت من السودان روايتين هما «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح، و»إيبولا 76»، التي كتبتها عن الهبة الأولى لفيروس إيبولا القاتل منتصف سبعينيات القرن الماضي. بالنسبة لموسم الهجرة فقصتها معروفة بالطبع، وعلى الرغم من أن بعض أحداثها دارت في الشمال السوداني، بعد أن استقر مصطفى سعيد في قرية لا يعرفها، وتزوج منها وانكشف شيء من غموضه بعد ذلك، إلا أنها ليست رواية الطيب الأمثل في التعرف بحميمية إلى المجتمع السوداني آنذاك، وحتى لو فرضنا أن القرية نموذج مصغر للمجتمع ككل، تبقى تلك التفاصيل الكثيرة التي لم يهتم النص بها، لأن الموضوع لا يشملها، وأعتقد أن «عرس الزين» أكثر التصاقا بالأرض، وثقافتها وأساطيرها في ذلك الوقت، وربما في أي وقت.

بالنسبة لـ«إيبولا 76» على الرغم من أنني كاتب تلك الرواية، إلا أنني أقول بصراحة، إنها ليست أيضا رواية كاشفة للمجتمع السوداني، في الحقيقة هي بعيدة عنه، نعم رواية إفريقية تتبع مأساة، ونتعرف من خلالها على جوانب من أجواء الجنوب، لكن لن تكون الرواية الأمثل للمعرفة الجادة بالمجتمع ككل، وتوجد روايات سودانية تمنح المعنى، أو الثقافة المطلوبة أكثر من رواية الأسى الإفريقي، ولعل كثيرا من الأعمال التي كتبها أدباء سودانيون، لو ترجمت لبذرت المعرفة المطلوبة، أو المراد تقصيها بواسطة آخرين، وأشير بصفة خاصة إلى كتابات علي المك وجمال محمد أحمد، وأتذكر بشيء من الفخر والجمال، مذكرات الشيخ بابكر بدري، التي أعتبرها أدبا رفيعا قام على الحقيقة وحدها، بغض النظر عن قيود المجتمع في الفترة التي تتحدث فيها النصوص، وربما حتى في الوقت الحالي.

عموما، تقصي المعرفة عبر الأدب، وإن كان فيه بعض القصور كما ذكرت، يظل هو الباب الأكثر انفتاحا، الباب الذي لا يصد، ولا يحتاج لإمكانيات خاصة من أجل فتحه. لا توجد تذاكر للطيران داخل صفحات كتاب، ولا مصاريف إقامة داخلها، فقط يحتاج نقل الثقافات، إلى أن تنشط حركة الترجمة، نعم من أجل أن نقرأ عملا صينيا ضخما وفارقا مثل: «بجعات برية» نتعرف من خلاله على تلك البلاد العظيمة، كان لا بد أن تكون ثمة ترجمة عظيمة تنقله، وهذا ما حدث. الترجمة حتى لو وصفت بالخيانة، تظل هي الروح التي قد تمنح نصا حتى لو كان ميتا في لغته الأصلية، روحا جديدة.

47

من الأشياء التي باتت تشغلني بوصفي أحد المواظبين على الكتابة منذ زمن طويل، مسألة النظرة الغريبة التي ينظر بها البعض عندنا للإنتاج المتواصل، أي أن ينتج الكاتب سنويا عملا روائيا أو قصصيا أو مسرحيا، وينشره. البعض هنا لا يقرأ ما أنتج، ولا يحاول أن يعرف كيف أنتج أو لماذا أنتج؟ لكن دائما ثمة اتهام اسمه: غزارة الإنتاج، وتقال أو تكتب تلك الجملة بمغص كبير. ولطالما التقيت في تنقلاتي المختلفة أشخاصا لهم علاقة بالكتابة أو الثقافة عموما، لا يطرحون معنى طيبا سلسا عن اللقاء لأول مرة، ولا يوحون مجرد إيحاء أنهم يعرفون شيئا عما أكتبه أو أدونه منذ سنوات طويلة، ولكن يقفزون إلى تلك الجملة التهمة مباشرة، وفعلا تحولت إلى جملة تهمة، حتى لو قيلت أو كتبت بحسن نية.

في حقل الكتابة، الذي هو حقل إبداعي في المقام الأول كما اتفق الجميع، توجد أيضا نواح وظيفية، أي أن يكون المبدع موظفا في الكتابة، ولا أعني أنه يؤدي الوظيفة بالطريقة المتعارف عليها من استيقاظ مبكر، والذهاب إلى مبنى قريب أو بعيد من بيته، والتوقيع على دفتر حضور وانصراف، وقضاء ساعات في الوظيفة، ثم العودة إلى بيته. ولكن أعني الوجود والانغماس الفعلي في حقل الكتابة، بحيث يقرأ باستمرار ويكتب باستمرار ما

يرد إلى ذهنه من أفكار، ويعمل على نصه الذي تكون في الذهن وبدأت خطواته تتهادى على الورق أو شاشة الحاسوب، بطريقة منظمة وواعية. وهنا تأتي أهمية تنظيم الوقت، ووضع ساعات معينة للعمل الكتابي الذي يؤدى في أي مكان ملائم.

هناك من يكتب في بيته، في غرفة نومه، أو مكتب صغير يتخذه في البيت، هناك من يكتب جالسا على مقهى، وسط صراخ لاعبي الطاولة، ودخان النرجيلة، وتأتيه الأفكار حارة، ومزدحمة برغم ذلك. وهناك من يختار مكانا هادئا في فندق أو حتى يستأجر غرفة في ذلك الفندق، يقضي فيها وقت الكتابة، ثم يعود إلى حياته الطبيعية بمجرد أن ينتهي من نصه ويرسله إلى الناشر.

هذه طقوس تؤدى، وهناك كتب كثيرة صدرت في أوروبا أو عربيا تبين طقوس الكتابة المختلفة، وتحاور كتابا مهمين، يخضعون لنوع من هذه الطقوس. وأذكر عربيا كتاب الأديب السعودي عبد الله الداؤود الذي صدر منذ سنوات في أجزاء عدة، وجمع فيه بمجهود جيد طقوس الكتابة عند عشرات الكتاب الغربيين والعرب، وكان من الكتب المهمة التي وجبت قراءتها لكل مهتم بالشأن الإبداعي.

الطقوس هذه بالتأكيد لا تتناسب مع كاتب عابر أصدر رواية أو روايتين في حياته، أو أصدر رواية، وظل عشر سنوات ليصدر أخرى، وإنما مع الذين قلت بأنهم موظفون في هذه المسألة، وينتجون تماما مثلما ينتج الموظف في أي إدارة عادية، أو مهنة لا علاقة لها بالكتابة. الفرق هنا كما وضحت هو الوظيفة غير

المقيدة بتوقيع، أو رئيس يكتب تقريرا عن الأداء، فتقرير الأداء لموظف الكتابة يكتبه القارئ الحقيقي، القارئ الذي يعرف كيف يقرأ الكتب ويفهمها ويستخرج الجوانب المضيئة منها قبل اللهاث خلف الجوانب المظلمة، وبعيدا عن ما أسميته القراءة بقصد الانتقاد.

ولا أنسى أن أذكر أنه ظهرت في السنوات الأخيرة ما سميت بالإقامة الإبداعية، أو عزلة الكتابة، وهنا تتولى جهة ما، منظمة، أو دار نشر كبيرة، استضافة كاتب جيد، وذي صوت مميز، في بلد بعيد عن بلده، بغرض اكتساب ثقافة جديدة، والكتابة اليومية في نص قد يكون مستوحى من بيئته العادية، أو بيئة البلد الذي استضيف فيه لأشهر أو عام في بعض الاستضافات. ورأيي أن هذه العزلة الكتابية برغم أهميتها، لكن ليست ناجحة دائما، خاصة عند الكتاب أصحاب الطقوس، ففي كثير من الأحيان، تأتي مسألة حرمان كاتب من طقوسه العادية التي يمارسها أثناء الكتابة برد فعل عكسي، وقد يقيم في تلك العزلة زمنا لا يستطيع أن ينتج فيه، أو ينتج نصا ليس بجودة ما يفعله دائما وهو حر في طقوسه ومكان سريانها.

نأتي لتقييم ما ينتج بغزارة كما تقول التهمة، ونتساءل: هل الكاتب الذي ينتج باستمرار، ينتج نصوصا ليست صالحة للقراءة؟ هل الكتابة كوظيفة تعد من أدوات التدهور في الكتابة؟

بالمقابل: هل الكتابة كل سبع سنوات أو عشر سنوات، تثمر نصا جيدا؟

لا طبعا، لا هذا يحدث ولا ذاك يحدث، والذي يحدث حقيقة أن النص الجيد ينتج في أي وقت سواء أن كتب مباشرة بعد نص جيد أيضا، أو كتب بعد سنوات من ذلك. والنص الرديء يظل رديئا ولو سخرت له الأبحاث المتعمقة، واستغرقت كتابته عشر سنوات كاملة.

لا يوجد مقياس أبدا، ولا تستطيع أن تقول بأن النص سيء لأنه كتب في عدة أشهر والنص الآخر مذهل لأن كاتب قضى فيه العمر كله، هذه مقاييس لم تثبت جدواها لا من القراء ولا من النقاد المتخصصين. فالذي يريد أن يقرأ بكفاءة سيتعرف إلى الجودة والرداءة في كل ما يقرأه، والذي يريد القراءة بسوء نية سيستخرج السوء من العدم.

أتطرق لتهمة غزارة الإنتاج عالميا وأسأل هنا:

هل يتهم الأمريكي بول أوستر بغزارة الإنتاج، وهو يكتب سنويا روايات ضخمة، من ذلك النوع الذي يستغرق زمنا في قراءته؟

هل ينطبق الأمر على التركية التي تكتب بالإنكليزية إليف شافاك؟ وأيضا جون غريشام، وستيفن كينغ، وكثير من موظفي الكتاب العالميين؟

لا طبعا، في الغرب تبدو وظيفة الكتابة أكثر احتراما، والذي ينتج باستمرار، يمنح مكافآت على ذلك. إنها دروس في الالتصاق الحقيقي بما تؤمن به وتعشقه، وطبعا لا نسعى لتفعيل ذلك عربيا لأنه غير ممكن، فقط لنسعى إلى اعتبار الكاتب السنوي، أو

الموظف في الكتابة، شخصا مسالما لا يسعى إلى تدمير الأماكن العامرة، ولا يحمل سلاحا قد يؤذي به أحدا. الذي يريد المتابعة، فليتابع والذي لا يريد، لا مشكلة أبدا.

48

كما هو معروف، فقد أصبحت وسائط التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك وتويتر، وواتس آب المختص بالهواتف المحمولة، محورا مهما في حياة الناس، لدرجة أن صار الأمر عبئا على العيون والأعصاب، والوقت أيضا، حيث يضيع كثير من الوقت في محاولة لم الحكايات والرسائل التي بهدف وبغير هدف، والرد عليها بمتعة وأحيانا بمغص، حين لا بد من الرد على رسائل أو منشورات لا تحمل هما عاما، وإنما هما خاصا، أو تفاهة خاصة، ولكنا نتعاطى مع كل شيء مع الأسف.

ولأن المسألة أصبحت سلوكا مجتمعيا خالصا كما قلت، يضاف للأدوات المستخدمة في تسيير المجتمع والتعاطي معه، تماما كالشارع والحارة، والبيوت وكل شيء آخر. والشخوص الرابضون خلف أجهزة الكومبيوتر، هم حقيقيون رغم وجودهم في الافتراض، فلا بد أن يدخل كل ذلك في لحم السرد، ويشكّل محاور عديدة له، بدءا من القصص العاطفية التي تبدأ افتراضية وتنتهي، إما افتراضية أو واقعية، إلى الجرائم التي تستهدف كل من يملك حسابا في تلك الوسائط.

الرواية رغم بنائها الخيالي الذي نعرفه جيدا، إلا أنها تعتمد على الواقع أيضا، ولو بامتصاص جزء يسير منه، فلا رواية بلا أساس

واقعي، وحتى روايات الفانتازيا والأسطورة، تنحو ذلك الاتجاه، من أجل إكسابها شرعية قرائية، أو مصداقية لدى القارئ الذي غالبا ما يبحث عن تشابه ما مع بيئته التي يعيش فيها أو بيئة غيره التي يتخيلها وسيعثر على ذلك التشابه في النهاية.

نحن إذن إزاء لعبة شيقة مع المجتمع، لا نرسمه ونرسمه في الوقت نفسه، لا نعبث بأدواته، ونستخدمها كاملة في الوقت نفسه، ولا نقلد الشخوص تماما، وأيضا نقلد أشياء فيهم، ورأيي أن العمل السردي الناجح، هو ما يستلف شارعا ما بكل حياته وضجيجه ولا ينتبه حتى سكان ذلك الشارع، إلى أن شارعهم قد استلف، ما يكتب الجار في قصة، يقر بها بعد ذلك ولا ينتبه إلى أنها قصته، وهكذا إلى التعامل مع كل الأدوات الأخرى، بما في ذلك وسائط التواصل الاجتماعي.

لو اتخذنا فيسبوك مثالا لتلك الوسائط المتعددة، التي تضم الناس بتناغم أو تنافر، لعثرنا على ملايين الأقنعة المبعثرة هناك. أشخاص يروون القصص، أشخاص يستهلكون القصص التي تروى، وربما يعيدون روايتها بعد ذلك، وآخرون لا وظيفة محسوسة لهم، وفقط أشخاص متواجدون هناك ويمكن أن لا يكونوا موجودين أيضا. توجد بالقدر نفسه خواطر نثرية وشعرية، ونكات وصور بلا حصر إما تمثل شيئا أو مجرد صور عبثية، وسأضيف بأن المكان عبارة عن شارع طويل وعريض وممتد، فيه كل ما يوجد في الشوارع الأرضية، من الذوق والاحترام والانفلات، والصعلكة، فيه أشياء للبيع وأشياء للعرض، وتوابيت

للموت أيضا. كيف إذن نكتب رواية باستخدام تلك المفردات كلها؟

الأمر سهل جدا في رأيي، وبالمواظبة نفسها التي كان يستخدمها الروائيون في تحويل الشوارع والحارات إلى أعمال سردية ناجحة، يمكن العمل على أداة الفيسبوك واستخراج الدرر من فوضى الافتراض داخله.

نستطيع كتابة رواية كاملة تدور أحداثها، حين يدخل الأبطال إلى فيسبوك ويلتقون هناك ليتبادلوا الأحاديث والأفكار، ويمكن أن يتبادلوا القبلات والابتسامات، ويحبون ويكرهون ويفعلون أشياء كثيرة من دون أن يلتقوا، وإن كان اللقاء ضروريا، يمكن أن يحدث في كوفي شوب، يقدم خدمة الإنترنت أيضا، وسأجعله لقاء باردا، باهتا، سيكتسب حرارته من جديد، حين يعود الأبطال إلى خلف أجهزة الكومبيوتر.

وحقيقة هنا أشير إلى أن كثيرا من الذين عرفتهم في فيسبوك، وكانوا يظهرون بشخصيات حماسية، ويحملون حرارة في التعامل، أصابوني بخيبة الأمل حين التقيت بهم في الواقع، كان ثمة برود أو اهتزاز أو عدم ثقة في النفس، وأذكر فتاة من معارفي، تتحدث عن كتابتي بحماس شديد، وتتابع نشاطي بحمى واضحة، داخل الافتراض، وحين ألتقيها سنويا أثناء زيارتي للسودان، يمكن أن تجلس معي ساعات وبلا أي إشارة إلى أنها تعرف كتابتي أو سمعت عني يوما. وهنا ننتبه بالتأكيد إلى خطورة إدمان الافتراض، الذي يحول الشخص في النهاية

إلى كائن شبحي، لا يستطيع التعاطي بجدارة مع المجتمع الحقيقي. وقصص مثل قصة هذه الفتاة كثيرة جدا، على الرغم من وجود قصص مختلفة لكن نادرة، وأعني تلك التي تتحول فيها الشخوص الافتراضية بحماسها نفسه إلى شخوص واقعية، مثلا قصة حب افتراضية في فيسبوك، تتوج بالزواج في الواقع، وأعرف أزواجا تعارفوا هكذا، ونجحت حيواتهم الزوجية.

بالطبع سبقنا الغرب في مسألة الإنترنت، والتفاعل مع وسائل التواصل، لذلك تجد روايات غربية قائمة على تلك الفكرة، أي أن إلهامها نتج من فيسبوك أو تويتر، واستمرت الأحداث تدور في الفلك الافتراضي، واستخدم البريد الإلكتروني أيضا بوصفه أداة تواصل كبيرة ومميزة، وحقيقة لا أذكر رواية بعينها، ولكن أذكر قصصا وردت في روايات، مثل خداع الصور، الذي يكتشفه الشخوص حين يعودون للواقع، وجرائم القتل والابتزاز التي تحدث في الواقع، بعد تفعيل الشر في وسائط التواصل، وهناك قصص معروفة عن حملات وهمية للتبرع بالمال لإنقاذ مرضى وهميين، أو التعاطف معهم، وهناك أيضا أكاذيب وغباء، يمكن لمه بسهولة وكتابة رواية.

49

أعلنت شركة «نتفليكس» مؤخرا، عن نيتها إنتاج دراما تلفزيونية في حلقات متسلسلة، مأخوذة من رواية «مئة عام من العزلة»، الرواية الأكبر والأشهر للمعلم غابرييل غارسيا ماركيز، بعد موافقة الأسرة على ذلك، ليكون أول عمل درامي مستوحى من تلك الرواية الملحمية، التي ظلت بمنأى عن السيناريو والسينما، رغم صدورها أواخر ستينيات القرن الماضي، وعدم وجود عوائق فنية لإنتاجها دراميا، إلا لو كان ماركيز هو من رفض إنتاجها، لأسباب لا يعرفها أحد، ومعروف أن رواية «الحب في زمن الكوليرا»، الرائعة الأخرى لماركيز، أنتجت سينمائيا، وكذا «أحداث موت معلن»، تلك الرواية الفريدة التي تعرف نهايتها منذ البداية، وعلى الرغم من ذلك تظل مشدودا لها.

نعم، نعرف منذ البداية أن سانتياغو نصار قتل في ذلك اليوم الصيفي الحار، ونعرف الذين قتلوه، والكيفية التي قتل بها، والدافع إلى ذلك، ونظل نبحث عن نهاية مع السارد، ربما هي نهاية أخرى نتمناها، أو نفكر أنها النهاية المثلى، مثل أن يكون موت البطل في بداية النص، مجرد كذبة، أو أن ثمة معجزة ستحدث ويعود إلى الحياة.

وقد اعتدت في قراءتي لكثير من النصوص الجذابة، خاصة

في الأدب الإسباني، الذي أعشقه، أن أغرس أدوات الكتابة التي أملكها، في الصفحات، وتجدني في كثير من الأحوال أعدل في ذهني مواقف أراها باردة وبحاجة إلى حرارة ما، أو أبحث عن ثياب درامية أخرى للشخوص، يرتدونها في النص بدلا من تلك الثياب التي عليهم.

هذا ليس انتقاصا من النصوص بكل تأكيد، أو تشكيك في تماسكها وإمتاعها للقارئ، ولكن مجرد تسلية، لن تغير شيئا من نص مكتوب على الإطلاق، وربما تكون تفاعلا من قارئ أعجب بالنص، لدرجة أن يشارك في تحرير صفحات منه.

«مئة عام من العزلة» التي ستنتج مسلسلا، ستحمل اسم «ماكندو»، ومعلوم أن ماكندو هي البلدة الأسطورية التي اخترعها ماركيز، هناك قرب الكاريبي، رسم تضاريسها، وبذر شخصياتها، وملأها بكل ما يمكن أو لا يمكن تخيله من أحداث، وبالطبع هذا قمة الفن، أن توجد مساحة من العدم، تلونها بألوانك الخاصة، ولا يستطيع كل من يطالعها إلا أن ينبهر، أو أكثر دقة معظم من يطالعها، لأن هناك قراء لم يتذوقوا «مئة عام من العزلة» و»الحب في زمن الكوليرا»، و»إيرنديرا الغانية»، وكل روائع ماركيز أبدا، وقد كتبت مرة عما سميته سوء التذوق، أو سوء النوايا، حين يقرأ أحدهم عملا متفقا على إبهاره، بنية أن لا ينبهر به، وهذا موجود وكثير عند قرائنا العرب، وحتى قراء الغرب..

الذي حدث أن هناك من لامني على ذلك، ومن ذكر بأنني أصادر حرية الناس في أن يتذوقوا ما يريدون، ويطردوا من التذوق

ما لا يريدون، وإن كانت «مئة عام من العزلة» تعجبني، فليس بالضرورة أن تعجب أهلي وجيراني وأبنائي وأصدقائي، تماما مثل أصناف الطعام التي ترص على الموائد، فكل جالس على المائدة لديه طبق يحبه، وطبق لا يطيقه.

هذا صحيح بالطبع، فقط يبقى شبه الاتفاق على أعمال كتابية معينة عند قراء بلغات مختلفة، سيكون الموضوع أكثر قربا للفهم، حين نتحدث عن رواية مثل «ذكرى عاهراتي الحزينات»، الرواية صغيرة الحجم التي كتبها ماركيز في أواخر عطائه، أي قبل أن يبتعد عن الكتابة لظروفه الصحية، وكانت استنساخا لرواية «ياسوناري كواباتا» التي يراقب فيها الرجال المسنون، نوم فتيات صغيرات جميلات، مقابل أجر يدفعونه لصاحبة البيت. هذه الرواية التي تابعت مراجعات كثيرة لها، بالفعل فيها اختلاف آراء كبير، تراوح بين التمجيد واللوم، وفقط كان لومها أكثر كثيرا من تمجيدها.

أعود لـ«مئة عام من العزلة»، التي اختيرت منذ أعوام، الرواية الأكثر تأثيرا في عالم الكتابة، متفوقة على أعمال عظيمة مثل، «زوربا اليوناني» لكزانتاكيس، و«الصخب والعنف» لوليام فوكنر، و«الطبل الصفيح» رائعة الألماني غونتر غراس. لن أتحدث عما يعجب فيها، فكلها في رأيي جديرة بالإعجاب، ولكن عما يمكن أن يكون صعبا في قراءتها لقارئ مبتدئ في الدرب، لم يتدرب جيدا. نعم حتى القراءة تحتاج لتدريب مثل الكتابة تماما، وهناك قراء يدركون ذلك ويشيرون إليه ولطالما صادفتني عبارات توجيهية

من قارئة، لصديقة لها تود قراءة كاتب ما، تنبهها إلى أفضل نص يمكن أن تبدأ به، وغالبا يكون سهلا، وخاليا من نكهة التجريب. «مئة عام من العزلة»، مليئة بالحوادث، حوادث داخل ماكندو، وحوادث قريبة منها وأخرى تحدث في العالم البعيد وتتشابك معه.

الرواية مليئة بالأسماء أيضا كعادة الروايات الملحمية، والروايات التي تهتم بحياة أجيال مختلفة، سنجد في النص أسماء بلا حصر لأفراد أسرة بوندیا، وجيرانهم، وأهل ماكندو عموما، أسماء رجال ونساء وأطفال، من صميم البلدة، وغرباء يأتون ويذهبون. أسماء شوارع ومحلات تجارية وأنشطة مختلفة.

أبسط ما يفعله القارئ غير المدرب، أو القارئ القادم بسوء نية للتقييم أن يعلن مله من رواية كهذه، أن يعلن تشتته وأنه لم يستطع إكمال النص، بسبب ما فيه من تفاصيل مزعجة، ويسرع إلى كتابة مراجعة يعلن فيها بكل بساطة، أنه خدع في ماركيز، و»مئة عام من العزلة»، ولا يدري كيف يعشق البعض هذه الرواية.

حقيقة هذه نظرة عامة، وما انطبق على هذه الرواية من تقييم جيد، أو تقييم ملول، ينطبق على أعمال أخرى صنفت عظيمة في تاريخ الكتابة مثل «اسم الوردة» لأمبرتو إيكو، التي قتلت قراءة وتحليلا في وقت من الأوقات، وكان كل من يلتقيك يسألك: هل قرأت «اسم الوردة»؟ وتصبح غير مثقف، وغير جدير بالاحترام، إن ذكرت بأنك لم تقرأها. كذلك رواية «العطر» للألماني

باتريك زوسكيند، ورواية «المريض» الإنكليزي السيرلانكي مايكل أودانجي، وهذه رواية عن الحرب لم تعجبني صراحة، على الرغم من أنها نالت حظا كبيرا من الانتشار، واعتبرت أفضل رواية في الروايات الحاصلة على جائزة مان بوكر البريطانية.

50

أقامت مؤسسة تكوين المبدعة في الكويت، التي أسستها الروائية بثينة العيسى، ومشت بها خطوات كبيرة في مستقبل الكتابة والقراءة والتنوير، أقامت مهرجانا كبيرا حضره عدد من المبدعين والمهتمين بالشأن الثقافي، وجاء الكاتب المغربي المتنوع عبد الفتاح كليطو، ليحل ضيف شرف على المهرجان.

كانت المناسبة، هي العيد الثالث لتأسيس تلك المنارة، ولأن السؤال المطروح، كان سؤال البحث عن معنى للإبداع وللوجود وللهوية، فقد تراكضت إلى ذهني أسئلتي الخاصة، التي أكونها بنفسي أو أتلقاها باستمرار من متابعين يهمهم المعنى الكامن وراء الكتابة، أو وراء التذوق عموما، مثلما يهمني.

بالطبع كل كاتب أو متلق يملك أسئلته المعينة التي يطرحها، وفقط يظل الطرح موحدا حيال ثوابت معينة، وهناك أسئلة أزعم أن كل الناس قد تناوبوا على طرحها في زمن ما، منها سؤال الوجود الكبير، وسؤال الهوية والانتماء، إلى وطن، وحتى أسئلة عن العرق والدين.

من الأسئلة التي تلازمني دائما، وأتلقاها كثيرا، وإن لم أتلقاها، أعاود طرحها على نفسي حتى لا تصدأ الإجابات الكامنة وراء السؤال، ذلك الذي يتعلق بالبيئة والتفاعل معها، أو بالشخوص

المنتشرين حول المؤلف، وينتظرون أن يوظفوا في نصوص، قد يوظفوا فيها فعلا، أو لا تستوعبهم: كيف يمكن استلاف مفردات أو معطيات البيئة والحياة عامة وتوظيفها في عوالم المعنى الشفيفة أو الضالة، على حد سواء؟ كيف تنبت الأفكار الباحثة عن ضفاف في ذهن من يكتب؟ وهل بالضرورة أن يكون الكاتب شغوفا بالبحث عن هوية ومعنى، وتفاصيل، ليكتب جيدا؟ أم الكتابة من وحي البيئة، هبة تأتي طائعة لتظلل الصفحات البيضاء؟

أنا أزعم أن الأمر شغف كبير، شغف من الكاتب لاستلاف كل ما يحيط به، من أجل الإجابة على أسئلته الخاصة، وشغف من الوجود أيضا ليصطفي أشخاصا معينين يمنحهم أجوبة كانوا هم يبحثون عنها.

بمعنى أنك في بحث عن معان لما تراه وتحسه، تسأل الوجود المحيط بك، لا تمد ذهنك متسولا، بل تمد إحساسك، وتجده قد امتلأ، فلا يمكن قطعا كتابة صفحة واحدة في نص روائي، بنزاهة واقتدار ما لم يمد الإحساس يده للوجود، باحثا عن معنى أو حتى ظل معنى، هناك مشاغل كثيرة في الدنيا، هناك مسؤوليات وأعباء ومحبطات، وفي المقابل هناك إبداع ينتظر أن يكتب من إجابات بسيطة عن أسئلة قد تكون بسيطة وقد تكون معقدة، وقد كتبت تقديما لروايتي «زهور تأكلها النار» جملة: «عندي أسئلة كثيرة، كثيرة جدا».

هذه الجملة لخصت العناء في تجربتي الطويلة في الكتابة،

عن امتلاك الأسئلة ومحاولة الإجابة عليها، وإن كانت الفتاة البطلة: خميلة جماري في الرواية قد أجابت على سؤال القسوة والتطرف، والشره الجنسي لدى المتطرفين؟ إلا أنها لم تجب تماما عن سؤال الخلاص، ليظل الخلاص معنى سامقا، لكنه بعيد وشبه معدوم، وننظر الآن من حولنا في هذه المسألة لنجد أن التطرف لم يكن تلك الجماعات فقط، إنه نحن، نحن من يصنع التطرف ومن يعجز عن علاجه، حتى خميلة نفسها، حين درست علم الجمال في مصر وعادت إلى موطنها مدينة السور، كانت تنظر إلى الآخرين باستعلاء، هي متطرفة في تذوق المعنى الكامل للجمال، ولا تعتبر غير المدركين لذلك المعنى، أناسا يستحقون أن تصادقهم أو تؤاخيهم. كان السؤال الذي وردني وحفزني لكتابة ذلك النص، قد جاء من قارئة دؤوبة، لم تكتف بقراءة رواية سابقة، وأرادت أن تعثر على معنى لسؤال التطرف، وللأسف لم تحصل على المعنى كاملا.

سأورد قصة من تلك التي أسميها خامات الكتابة، وهي قصص واقعية حدثت معي في فترات متباينة، ويمكن أن تحدث مع الناس كلهم ووحده سؤال المعنى ما يحيلها نصوصا أو فقرات داخل نصوص، وبذلك الاتكاء المدهش على سؤال الإحساس، الإحساس الذي يمد يده وهو يأمل أن تمتلئ. كانت حنان فتاة جميلة جدا، كانت تلازم والدها المريض بجلطة في الرأس، وأشاهدها ويشاهدها غيري بصفة دائمة، تجلس على سجادة حمراء نظيفة، تحت سلم عنبر الحوادث، تقرأ رواية: «كوابيس بيروت» لغادة السمان.

كان المارون يغازلونها، الزملاء الأطباء يحاولون التقرب إليها، والحديث معها، وأنا كنت أفكر في علاقة القراءة بجو مرتبك ومزعج، يكونه عنبر الحوادث، وفتاة لا تبدو مكترثة إلا بالقراءة، وأزعم أن سؤالي كان من قبيل البحث عن رابط مفقود، وكان أن عقدنا صداقة قوامها القراءة، واكتشفت أنها لم تكن قارئة، وأنها جلبت هذه الرواية معها، وتفتحها كأنها تقرأ، منعا لتطفل الآخرين.

هذا موضوع عادي جدا، ولا يبدو مغريا لصناعة نسيج حكائي من خلفه، أو اتخاذه ركيزة في سرد روائي، لكن الذي حدث أن تلك الصورة المشرقة للفتاة الممسكة بالرواية الضخمة، لم يفارقني، وكلما كتبت رواية أو سيرة فيها رائحة المستشفى، دخلت الفتاة الجميلة بكتابها، إنها فقرة رصفها البحث عن رابط، وأظن الإجابة لم تكتمل، وفقط بينت شيئا. وعلى الرغم من أنني التقيت بحنان بعد خمسة وعشرين عاما من ذلك المشهد، وبدت لي جدة أو أما مخضرمة على أقل تقدير، إلا أن استعادتها لا تتم إلا عبر جلوسها تحت عنبر الحوادث، تقرأ أو تتصنع قراءة رواية لغادة السمان، وقد كتبتها في رواية صدرت منذ أعوام، وفي سيرة، اسمها تاكيكارديا، بالصفة القديمة نفسها، كأن المعنى استنشقها عند تلك الصورة ولم يتقدم أكثر كما تقدمت هي.

51

منذ فترة، صدر حكم بالسجن لمدة خمس سنوات على الناشر والموزع المصري خالد لطفي، بسبب توزيعه كتابا لمؤلف إسرائيلي، صدر أصلا مترجما في لبنان، وتم تداوله بشدة قبل أن تصدر الطبعة المصرية. وعادة ما تتم تلك الطبعات في مصر، لكثير من الكتب التي تعد رائجة، وذلك لتقريبها من القارئ المصري، وأيضا لسبب اقتصادي، حيث ينخفض سعرها كثيرا، عن تلك التي تطبع خارجا، ويتم جلبها إلى مصر.

لم أطلع على الكتاب حقيقة، وفقط هنا أتحدث عن مبدأ حظر الكتب أو منعها أو المبالغة في تجريم ناشريها بحيث يواجهون عقوبات لا تشبه الكتابة أو الإبداع، أو المساهمة في نشر المعرفة. ولطالما نوهنا إلى أن نشر الكتب مهما كانت مواضيعها ليس أمرا ضارا على الإطلاق، في زمن أضحى القارئ فيه هو الناقد الأكبر، والمتلقي الواعي الذي يأخذ ما يراه مناسبا ويلفظ ما يراه غير مناسب لوعيه. بمعنى أن زمن سيطرة الرقابات على الوعي ينبغي أن يكون انتهى، وتلك الرقابة التي تحدد للناس الكتب التي ينبغي قراءتها، والأفلام السينمائية التي ينبغي مشاهدتها، والدراما التي يتابعونها، من المفترض أن لا تكون موجودة.

نحن في زمن لم يعد ثمة شيء خاف على أحد، ولن تستطيع

أي سلطة مهما أوتيت من حزم أو حماقة، أن تمنع غليانا يحدث ضدها، من الرشح خارج المكان، أو هتافات حتى لو كانت بسيطة جدا، من أن تصل إلى أسماع الدنيا كلها.

لذلك طالما انضممنا إلى من ينادي بعدم حظر الكتب في المعارض والمكتبات، لأن هذه الكتب موجودة في كل مكان آخر ويسهل جلبها، ولأنها في النهاية تسبح داخل بحر الإنترنت العريض ويحصل عليها من يريد الحصول عليها بسهولة شديدة. والكتاب الذي وزعه الناشر المصري أو أعاد طباعته، موجود في ذلك البحر، وسيصبح موجودا في الدنيا كلها، لأن وراءه قضية، ولأن فيه موضوعا أثار لغطا، ولأنه في النهاية كتاب ممنوع، لا بد سيصبح مرغوبا حتى للذين لا يعرفون شيئا عن القراءة.

أذكر منذ سنوات أن ثارت ضجة كبيرة على رواية لحيدر حيدر، رواية تدور أحداثها في الجزائر كما أذكر، وكنت اقتنيت نسخة منها أثناء زيارة لي إلى الشام منتصف التسعينيات من القرن الماضي، وقرأتها وأنا هناك، ولم أنتبه إلى شيء غريب أو مرعب أو يخيف القارئ، ويستوجب منعها. رواية فيها زخم" حيدري"، ولغة أخاذة، وأسلوب مغر للقراءة، وربما بها بعض الإشارات التي يمكن تفسيرها سلبيا لمن أراد التفسير السلبي، لكن في المجمل هي رواية ناضجة.

الذي حدث أن هناك من سار في اتجاه سلبي وأحدث مشكلة للكاتب والناشر والموزع، والذي حدث أيضا أن عشرات الآلاف من الناس سمعوا بتلك الرواية وأرادوا قراءتها. كنت ألتقي ببعض

من أعرفهم، وفيهم أشخاص شبه أميين، لم يعرفوا كاتبا ولا كتابا من قبل ويسألون بكل تلقائية إن كنت أملك ذلك الكتاب لأنهم يريدون قراءته.

كما قلت، كانت الرقابة في ما مضى فعالة بسبب النقص في الموارد الإعلامية، وأنه لا توجد ثورة اتصال تربط المخفي بمن يبحث عنه، وتوفره له. والمزاج الذي ينبغي أن يحمله القارئ أو المشاهد للدراما، ينبغي أن يكون المزاج الذي تصنعه الجهة المسؤولة عن القص والحذف والإلغاء، وهذا ما لم يعد ممكنا كما قلت، وكما هو معروف أصلا. وحتى بعد ثورة الاتصالات، كنا نرى مواقع محجوبة على الإنترنت بسبب تقصيها لأوضاع معينة لا تريد بعض الجهات أن يتم تقصيها، تجد صحفا لا تستطيع قراءتها، ومقاطع فيديو لا تستطيع أن تفتحها، وجاءت الآن تقنيات يتم بموجبها تغيير إحداثيات الإنترنت، والوصول إلى كل ما هو محجوب ومخفي.

منذ سنوات ترجم الأستاذ سمير جريس، المقيم بألمانيا والمتخصص في ترجمة الأدب الألماني إلى العربية كتابا هاما اسمه "أدباء أمام المحاكم"، وهو عرض لحالات كثيرة من المنع والمطاردة لكتب معينة في عقود سابقة، وفيها سجن واقتراب من المقصلة لبعض كتاب تلك النصوص الأدبية والمسرحية، وكل من يروج لها. إنه كتاب صادم ليس بسبب المآسي التي تقرأ داخله، والظلام الذي أحاط بمستقبل كتاب شباب لم تترك مواهبهم لتترعرع جيدا، وتتخذ مكانها في سطوع المعرفة،

ولكن بسبب ما قد تحسه من ارتباك، وأنت ترى جزءا من تاريخ أوروبا، هذه القارة التي أضاءت الآن بشدة، وما تقرأه في ذلك الكتاب، لم يكن يبشر بإضاءة قادمة. إنها الأسباب نفسها التي تمنع الكتب الآن عندنا، الأسباب نفسها التي تؤدي إلى السجن، والمصادرة، وتداعيات كثيرة لا ضرورة لها أبدا في عالمنا العربي.

حقيقة أنا مقتنع بوجود رقابة ذاتية عند كل كاتب، هذه الرقابة تختلف من كاتب لآخر، ففي حين أنها صارمة عندي مثلا، نجدها غافية أو مرنة عند آخرين، وفي حين أنها لا تسمح بالضحك والابتسامات المفرطة عندي، تسمح بذلك وأكثر عن كاتب آخر، وهكذا. هذه الرقابة الذاتية موجودة بالضرورة عند القارئ الذكي، القارئ الذي لن يطارد الكتب التي تشتهر بسبب منعها، بل يظل قارئا دائما لما يظنه مهما وجدير بالقراءة. ولطالما قرأنا مراجعات لقراء من هذا النوع، تتحدث عن كتب معينة، ونجد مثلا من يقول بكل أدب واحترام، إنه يختلف مع كاتب معين في إيراده المشاهد الجنسية بكثرة وبلا ضرورة، ونجد أيضا من يعتذر لكاتب ما، إنه لم يستطع إكمال روايته لأنها لا تتماشى مع قيمه.

إذن الرقابة الذاتية للكاتب، والرقابة نفسها عند المتلقي، تستطيعان إلغاء وجود جيش من الرقباء، هم لا يمنعون الكتب حقيقة بل يدعون لقراءتها حين يعلنون المنع. وأعتقد أن على الرقابة في أي مكان أن تراجع مستجدات الدنيا قبل الحكم على شيء، لأن لا شيء ممنوع بحكم ما استجد في العالم، لا شيء أبدا.

الوقت غير هو الوقت الذي يحاكم فيه كاتب أو ناشر بسبب كتاب موجود ومتاح بشدة.

52

أعتقد أنه من الأشياء الجيدة، أن لغات أخرى غير اللغات التقليدية، وأعني الإنكليزية والفرنسية على وجه الخصوص، اتجهت مؤخرا إلى ترجمة الأدب العربي لقرائها المفترضين، منها البولندية التي لم تكن تهتم سابقا بالأدب العربي أو كتابه، ومنها الفارسية والكردية والرومانية، لكن ما أدهشني حقيقة هو اتجاه الصين إلى هذا الأدب في السنوات الأخيرة، وأن كثيرا من الروايات ترجمت بالفعل، ونشرت ويوجد غيرها في الطريق.

هذه الترجمة في الغالب، تتم بواسطة صينيين، درسوا اللغة العربية وآدابها في جامعات متخصصة، ومنهم من عاش في بلدان عربية، بنية الاحتكاك باللغة مباشرة واستخلاصها من الشعوب، ومنهم من تحول بالفعل، إلى شبه مواطن لدول عربية، بحيث يستطيع أن يتحدث لغتها العامية، ويترنم بأغنياتها بلا أي صعوبة، وشاهدت مرة فيديو لمغن صيني يردد أغنية من أغنياتنا الوطنية، بانطلاق كبير، أيضا راسلتني مرة فتاة صينية، كتبت بعربية سليمة، وقالت بأنها متأثرة جدا بالمصير المؤلم لإحدى الشخصيات التي كتبتها في نص حديث، وتود لو أعدت النظر في ذلك المصير، وكتبت جزءا ثانيا كذبت فيه المصير الأول.

حقيقة دهشت من تلك الرسالة، وكان مفهومي عن الصينيين، هو تلك الصرامة المفرطة في تذوق آدابهم فقط، والكتابة عن طقوسهم وبلادهم الموغلة في الغرابة والطقوس، والذي يقرأ ملحمة كبرى مثل «بجعات برية»، أو يقرأ «الذرة الرفيعة الحمراء» لمويان، يدرك تماما، أي كنز محلي زاخر، موجود في تلك الثقافة، وقابل لأن يمنح ما يستطيع الكتاب استخلاصه منه. وأذكر أنني غرقت شهورا عدة في رواية «بجعات برية»، ولم أمل منها رغم ضخامتها، كانت في الواقع مسلية وزاخرة بالمعلومات عن تاريخ الصين القديم والمعاصر، فهي في النهاية سيرة لأسرة معينة، مرتبطة بالسيرة الكبرى للصين في أزمنة مختلفة.

«الذرة الرفيعة»، وكل إنتاج مويان، يدخل في لحم المنتج الصيني، بمعنى أن كل المعروض من معلومات وأجواء، وطريقة سرد، هو صيني تماما.

رددت على الفتاة التي اتضح في ما بعد، أنها درست اللغة العربية بجدية شديدة، وعاشت فترة في الخرطوم، تستخلص اللغة اليومية من الذين عرفتهم من سكانها، وأنها حتى لم تكن تستخدم اسما صينيا أثناء وجودها هناك، واختارت اسما عربيا، يستخدم بكثرة في بلادنا، لتنادى به.

أردت أن أتحدث عن فكرة تداخل الثقافات ببعضها، ودخول شذرات من ثقافة إلى ثقافة أخرى، وتبادل المعلومات، سواء كانت تراثية أو معاصرة، لينتج في النهاية نهج فريد من التآخي

والتعامل بين الناس.

الثقافة العربية ليست جامدة ولا تحمل أشواكا حتى تتجنبها بقية الثقافات، أو تأخذ منها نتفا صغيرة على استحياء، وتحاول طمسها، والأدب العربي الذي هو جزء من الثقافة العربية يستحق أن يعامل بطريقة أكثر لطفا وانفتاحا. نحن نترجم القصائد والقصص البعيدة بكثرة، نترجم لمبدعين أجانب نراهم يستحقون أن تعرفهم ثقافتنا، ولا نغضب حين لا يترجمنا أحد، أو يستخف بما يترجم لنا بواسطة أصدقاء فهموا الثقافة العربية وأحبوها، مثل تلك الصينية، ومثل كثيرين غيرها، يصارعون انشغالاتهم اليومية، ليترجموا نصا عربيا أحبوه إلى لغاتهم. وأعرف أن مستشرقين أوروبيين حصلوا على شهاداتهم العليا في نصوص لأدباء عرب قدامى أو حديثين، لا فرق، فالذي يدرس «طوق الحمامة» لابن حزم مثلا، يستطيع أن يدرس «فساد الأمكنة» لصبري موسى، والذي يقرأ شعرا لابن الفارض، يمكن جدا أن يقرأ شعرا لدرويش ومحمد سليمان. الفكرة هنا هي محبة الثقافة ولا شيء أكثر من ذلك.

لنتحدث عن ترجمة الأعمال العربية للغات غير الإنكليزية التي ذكرت بعضها، ونتساءل: كم نسخة من رواية عربية يمكن أن تطبع وتوزع في بلد مثل تشيكوسلوفاكيا، أو رومانيا، أو بولندا؟

في الواقع يبدو الأمر محبطا بعض الشيء، لكن دائما ثمة أمل ما دامت هناك مشاريع تطرح، وتنفذ حتى لو على نطاق ضيق، وكنت قرأت مرة مقالا لناقد بولندي، كتبه عن الأعمال

الأدبية المترجمة للغة البولندية، وكانت قليلة للغاية، هناك بلدان كاملة في الوطن العربي، زاخرة بالأدب الجيد، لم يترجم من أدبها شيء، وبلدان كبيرة مثل مصر، ترجم منها عملان أو ثلاثة أعمال، كان الرجل يتحدث عن القراء، والتوزيع وذكر رقما بسيطا جدا، كمتوسط لعدد النسخ التي تباع، ويعتبر رقما جيدا بالنسبة لسمعة الأدب العربي وبعده عن أذهان القراء هناك، أظن الرقم خمسمئة نسخة أو أكثر قليلا. رقم سنعتبره نحن رقما محبطا ومضحكا، ولن يكون كذلك لو عدنا أصلا إلى عدد النسخ التي توزع باللغة العربية لمعظم من يكتبون، إنه الرقم البولندي نفسه تقريبا. بالطبع توجد طفرات أو لنقل موضات قراءة في كل مكان، أو حظوظ ربما، ويقفز عدد النسخ المباعة من عمل عربي في دولة أوروبية غير معنية بالأدب العربي، إلى عشرات الآلاف من النسخ، لكن ذلك غير مؤكد أيضا، وحتى لو حدث سيثير شيئا من الاستغراب.

أعود للصين الداخلة بقوة في كل المجالات، التي تتعاون مع دولنا العربية اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، والتي تملك كثافة سكانية لا تستطيع دولة أخرى منافستها فيها. قلت إن الصين تصدت للثقافة العربية وللأدب العربي، وترجمت لنا أعمالا عربية خالصة بأجواء قصصية مختلفة، ومن دور نشر هناك تدعمها الدولة. في مشروع كهذا، ومع دولة كهذه، توقعت أن عشرات الآلاف من النسخ من أعمالنا ستنتج، وعشرات الآلاف سيتم اقتناؤها من مؤسسات كثيرة، وستوزع وسط هذه الكثافة السكانية بكل ارتياح، لكن ذلك لم يحدث وأظنه لن يحدث في

الأمد القريب، الرقم المحبط نفسه يحيط بالترجمة الصينية، أو ربما يتضاعف إلى ألف نسخة، ولا شيء آخر.

لن أتحدث هذه المرة عن ضرورة الاهتمام بالأدب العربي، فلا فائدة من الحديث في ذلك الشأن، سأترك الأمر كما هو حادث، فربما تحدث معجزة في يوم ما، ويصبح أدبنا رائدا في فضاءات العالم.

53

كتبت

من قبل مرات عدة، عن قرصنة الكتب، ونشرها مجانا في الإنترنت، وأنها عمل غير مشروع يعود بالضرر الكثير على مؤلفي تلك الكتب وناشريها وموزعيها، خاصة إن كانت لمؤلفين لا يعملون في مجال رزق آخر، وينتظرون عائد تلك المؤلفات التي يحترقون كثيرا، وينزوون في عزلة تامة من أجل إنجازها.

وعلى الرغم من أن حقوق المؤلفين في الوطن العربي، هي الأدنى في كل الأوطان، كما هو معروف، إلا أن شيئا ما، أفضل من لا شيء، وما تدره الكتب من عائد بسيط، قد يكون دعما معنويا لأي كاتب حتى لو كان ممتلئا بالمال، ولا حاجة له لقروش الكتب. نعم ما يأتي من كتاب يرسم بلا شك ابتسامة على شفتي مؤلفه، ويرسم أملا أيضا.

الذي يحدث أن القرصنة الإلكترونية ما تزال مستمرة، وهناك من الذين يقومون بمهمة تصوير تلك الكتب، أو إعادة كتابتها، ونشرها بعد ذلك، يبدو أنهم استعذبوا لعبة إغلاق المواقع بعد زيادة التبليغ عنهم، فيقفزون بكتبهم المزورة إلى مواقع جديدة، كلما ضاعت المواقع القديمة.

ولو تساءلنا عن العائد الذي يجنيه أولئك المنكبون على تزوير الكتب إلكترونيا، وهذا أمر يحتاج لوقت كبير، فلن نعثر على

شيء، ذلك أن الكتب تعرض مجانا، لمن يريد تنزيلها. هو فقط إثم من آثام الإنترنت، لا بد سيرتكبه أحد، وما دام ثمة آثام هنا وهناك، فلا بد من آثمين، تماما كفعل الخير الذي لن يفعله إلا خيرون.

في أحد المرات وكنت أتجول في تلك المواقع، بغرض الاستنارة، عثرت على عدد من رواياتي منشورة، وقد كتب عليها: «طبعات مزيدة ومنقحة، حقوق النشر خاصة بالموقع، ويحظر إعادة نشر هذا المحتوى، في مكان آخر».

لقد بدت لي تلك الجملة مضحكة فعلا، فالطبعة المزيدة والمنقحة، تعني أن كتابا ما وغالبا كتابا تربويا أو فيه بعض الأفكار العلمية والإرشادية، قد أعيدت طباعته مرة أخرى، بعد أن أضاف إليه المؤلف أفكارا جديدة، وفصولا لم تكن موجودة في الطبعة السابقة، واستفاد من الملاحظات التي قيلت عن كتابه، وصحح الأخطاء، ولن تكون الرواية المقرصنة مزيدة ومنقحة حتى لو أعيدت لكاتبها، لأنها قصة تمت روايتها وانتهى الأمر، وبالنسبة للحقوق الخاصة بالموقع، والتحذير من إعادة النشر، فهذا ترف ساخر بلا شك، فلا شيء يمنع قارئا أنزل إلى جهاز حاسوبه نصا مسروقا، من إعادة سرقته ووضعه في أي مكان، أو إرساله لمن يحب.

أحدهم أنشأ موقعا كبيرا ضم عشرات الآلاف من الكتب، وكتب في أعلى الموقع: إن هذا الجهد الكبير هو وقف لروح والدي، عليه الرحمة، أدع له وأنت تعثر على كتابك وتقوم بتنزيله.

قلت إن الأمر يبدو مضحكا، لكن في الحقيقة، حين تكمل الضحك، ستحس بالأسى فعلا، الأسى من» قوة العين» كما يسمونها، أن تسرق شخصا، وتحذر الآخرين من إعادة السرقة، أشياء كنا نعدها فانتازية، وغدت عادية تماما، وأذكر أنني كتبت في إحدى رواياتي، عن اللصوص الذين يسرقونك في الليل، ويبيعونك أشياءك المسروقة في النهار، الفرق هنا أن لص الكتب لا يبيعك كتابك، هو يهديه إليك وإلى ملايين آخرين في تلك الظاهرة التي لن نعثر على تفسير أو حل لها. الجديد في موضوع قرصنة الكتب، أن أحدهم أنشأ موقعا كبيرا ضم عشرات الآلاف من الكتب، مع فهارس منظمة، وأسماء الكتاب موضوعة بطريقة يسهل العثور على إنتاجهم فيها، وكتب في أعلى الموقع: إن هذا الجهد الكبير هو وقف لروح والدي، عليه الرحمة، أدع له وأنت تعثر على كتابك وتقوم بتنزيله.

حقيقة توقفت كثيرا عند وصف صاحب الموقع لحصيلة نشره غير الشرعي بجمل شرعية جدا، ومفهومي عن الوقف، هو التبرع بعائد شيء تملكه مثل أرض تزرع سنويا، أو عقار يدر دخلا ثابتا، عربات مؤجرة، تأتي بحصيلة جيدة. التبرع بذلك لصالح أيتام أو معوزين، من دون أن يمس المالك شيئا من العائد، أعتقد أن هذا هو الوقف، ودائما ما أشاهد أبراجا وعمارات ضخمة، في مدن كثيرة، كتب عليها أنها وقف للأيتام، وبناء على ذلك التعريف المنطقي، لن يصبح موقع الكتب غير الشرعي وقفا أبدا، والذي سيعثر على كتاب، سيقوم بتنزيله على عجالة، خوفا من إغلاق الموقع، ولن يتذكر أن يدعو لأحد دعوات صالحات، أفضل ما

سيفعله هو أن يبتسم أو يحس بشيء من الاستغراب، لأن عبارة غير مألوفة صادفته وهو يسعى لقراءة كتاب مجانا.

في الحقيقة الموضوع برمته يبدو معقدا، والإنترنت كما أصفها ولعل كثيرون يشاركونني الوصف، هي شارع كبير فيه كل مواصفات الشوارع، أي فيه من يحييك ومن يشتمك، ومن يتلصص عليك ومن يشاركك طعامه، أو يخطف طعامك، هناك أصدقاء في الشوارع وأعداء أيضا، هناك لطف، وهناك كلمات نابية، وصعلكة، وكثير من الترف الشوارعي، وما دمنا نسير في ذلك الشارع الكبير، سنصادف الكثير من الغرائب، ولن نستطيع التحكم في شيء.

أعرف أن متضررين من مسألة سرقة الكتب هذه يعملون بجدية في إيجاد حلول طيبة للجميع، بحيث يستطيع القراء أن يقرأوا إلكترونيا بطريقة شرعية تماما، وتبدو تطبيقات الهواتف الأندرويد مثلا، حلا، لكنه حل في غاية الرومانسية، فليس كل الناس يملكون هواتف ذكية، وكثيرون جدا ينزلون الكتب في أجهزة حاسوب موجودة في البيوت أو الجهات التي يعملون فيها. وقد قلت مرة أن طبعات شعبية رخيصة للكتب قد تشد الانتباه، مثلا أن لا يباع الكتاب بأكثر من دولارين، لكن دور النشر لا تحب الطبعات الشعبية، ويرون أنها لن تعجب القارئ، الذي لن يقتني سوى الكتب المطبوعة بفخامة.

بالنسبة لي لا يهمني أن كلف كتابي دولارا أو عشرة دولارات، المهم أن لا يضطر القارئ إلى إعادة كتاب يشتاق إلى قراءته،

إلى الرف في أي مكتبة أو معرض للكتب، والركض نحو الإنترنت للبحث عنه مجانا.

54

لفت نظري وأنا أتجول في معرض الكتاب في القاهرة في يوبيله الذهبي، الذي شاركت فيه بمداخلة عن الأدب المغترب، أو أدب الذاكرة والحنين، كما أسميه دائما، أن كل من ألتقي به، سواء أكان صديقا أعرفه، أو شخصا مجهولا عابرا بالمكان، يتعرف إليّ مصادفة، يطلب وبعد التحية مباشرة، أن يلتقط صورة بهاتفه، ثم يمضي، وبعد دقائق معدودات، أجد نفسي مربوطا إلى الصورة الملتقطة، في تلك المواقع الاجتماعية التي تحتفي بالصور أكثر من احتفائها بالفكر، والمنشورات الجادة، والقضايا التي قد تكون تهم الناس كلهم. صور فيها ابتسامات وتقطيبات وجه، وإرهاق، وأيضا فيها فرح أو ربما حفاوة من نوع جيد.

أيضا ظاهرة أخرى، وهي أن تهدى إليك الكتب بجميع أنواع موادها من شعر وقصة ورواية ومسرحية، وحتى الخواطر العادية المنتشرة بشدة، تهدى بطريقة غير مألوفة، وأيضا أمام كاميرا مشتعلة لهاتف نقال، وهي أن يضع أحدهم الكتاب في يدك بسرعة، ويقف بجانب، أو يضع يده على كتفك، وتظهر الصورة، وأيضا في تلك المواقع موضحة احتفاءك بكتاب لا تعرف مادته، ولم يسبق لك أن رأيته أو عرفت صاحبه. وتربط للصورة بتلك الصرامة.

سيجلس الكاتب ليوقع، ولن يعثر على أولئك المئات الذين تصدوا لتجواله في المعرض، وزحموه بأضواء الكاميرات وربطوه بحبال الافتراض إلى صور لا يعرف أصحابها ولا لماذا التقطت أصلا؟

بعد ذلك تأتي مسألة مشاركات الكاتب الذي خضع للتصوير بشتى أنواع الهواتف المحمولة، أي التوقيع الذي سيقوم به لأحدث رواياته، والمعلن عنه منذ زمن، والندوات الفكرية التي سيشارك فيها، وأيضا معلن عنها في جدول منشور منذ زمن، وتشهد وسائط التواصل الاجتماعي، أنه أعلن عنها بنفسه، وكتب له المئات من متابعيه، أنهم حاضرون من الآن، هكذا. سيجلس الكاتب ليوقع، ولن يعثر على أولئك المئات الذين تصدوا لتجواله في المعرض، وزحموه بأضواء الكاميرات وربطوه بحبال الافتراض إلى صور لا يعرف أصحابها ولا لماذا التقطت أصلا؟

لن يعثر على الذين وضعوا في يده كتبهم لتظهر متشبثة به أو متشبثا بها، لا فرق، والذين سيأتون، المحبون للقراءة، لن يحرصوا على التقاط الصور أكثر من حرصهم على استلام نسخ من الرواية، أو الوجود في الندوة، والاستماع إلى ما سيقال فيها، وفي النهاية التقاط الصور الجماعية، وربما صور فردية، تطلب على استحياء.

ما أردته هنا ليس انتقاد التقاط الصور مع الأصدقاء والمبدعين، والأشخاص الذين نحبهم على البعد ونلتقيهم مصادفة، وإنما

الإشارة إلى ما أظنه اختصار وظيفة المبدع من كاتب أو شاعر، إلى اسم فقط، بمعنى أنه ليس من المهم القراءة له، ولا حضور حفلات توقيعه، أو مساهماته الفكرية والشهادات الأدبية التي يلقيها من حين لآخر في مناسبات ما، وإنما التقاط صورة معه ونشرها في مواقع التواصل الاجتماعي، والجلوس متوقعا جيشا من علامات الإعجاب، والتساؤل، والتعليقات الجادة والساخرة، وتداعيات أخرى كثيرة، وفي الصور التي تظهر فيها كتب مدسوسة في يد المبدع، تجد دائما تعليقات من أصدقاء صاحب الكتاب، تغبطه على وجود كتابه في يد الشخص الذي عثر عليه هكذا، ودس الكتاب في يده.

الذي حدث حقيقة، هو ما ذكرته عن تحور القراءة عند كثيرين، وتحولها إلى قراءة شبحية ليست للكتب أبدا، ولا لمؤلفي الكتب أثناء حضورهم في الأجنحة المختلفة، وعرضهم لنتاجهم، أو إلقاء شهاداتهم في القاعات المخصصة لذلك، إنها عصا تويتر وفيسبوك وأنستغرام، وكل تلك المواقع الآثمة التي أبعدت الناس عن أشغالهم وطعنت القراءة في أجزاء كثيرة من جسدها.

في الماضي كان لقاء كاتب معروف في معرض أو ندوة، أمرا آخر للغاية، هنا ستحدث محاولات شتى لتوثيق العلاقة معه، وإخباره عن ما تعرفه عنه وعن كتابته، وربما تذكر له قصة فتاة جميلة كتب عنها في إحدى رواياته، أو تجامله بأن تقول له: بطل روايتك تلك، يشبهني كثيرا، ولأن التعاطي مع الكتاب المعروفين

في تلك الفترة، كان محدودا ولا تجدهم دائما أو تتواصل معهم، فإن المحبين ينتهزون الفرص، ليقولوا كل ما يودون قوله للكاتب، ويحصلون على الكثير من الذي أرادوا الحصول عليه منه، ولأنه لا كاميرات متوفرة في أيدي الناس في ذلك الوقت، كما هو حادث الآن فإنني شخصيا لا أملك صورة مع محمد مستجاب، أو عبد الحكيم قاسم، أو خيري شلبي، وهؤلاء من الكتاب الذين لم أحبهم أسماء أو صورا، ولكن أحببت ما كتبوه كله، وتواصلت معهم إنسانيا حين كان ذلك ممكنا..

الذي يعتني بالمبدع، ينبغي أن يعود إلى تلك الأبجديات، وهو الاعتناء بما كتبه، فليس أجمل من أن تذكّر كاتبا برواياته وشخصياته التي قد يظنها ضاعت، أو تقرأ على شاعر قصيدة من تأليفه، كتبها منذ زمن طويل، ولم يعد يذكرها، وقد شاهدت في شريط للفيديو، كيف أن محمد الفيتوري، كان يترنح طربا، والشاعر محمد عبد الباري، يقرأ عليه إحدى قصائده، وكنت التقيت مرة بالكاتب النيجيري وولي سوينكا، وذكرت له عددا من الروايات والمسرحيات التي أحببتها له، ووجدت الرجل الكبير الحاصل على جائزة نوبل في الأدب، يبتسم بحب، ويود لو تواصلت معه دائما.

لا مانع إذن من إشراك الصور في اللقاءات بالمبدعين، سواء كانت مصادفة، أو مخططا لها، ولكن لا بد أيضا من إشراك ما تعرفه عن المبدع، وأن تكون قرأت له شيئا، أو لم تقرأ له، لكن تود القراءة، وهناك من يفعل ذلك حتى في زمن الصورة التي

تقفز في ثوان من لحظة اللقاء إلى الفضاء الافتراضي، وكثيرا ما يكتب لي أحدهم، إنه لم يقرأ لي شيئا لكنه يود ذلك، ويسأل عن رأيي، وأن أرشده بأي عمل يبدأ؟ والحقيقة كنت أستغرب لمثل هذه الرسائل، لكن بمرور الزمن ما عدت أحس بغرابتها، أكثر من ذلك صرت أجيب عليها بصدق.

لنحتفي بالكتابة كما يليق، لنشارك بحضورنا في الفعاليات المصاحبة لمعارض الكتب لأنها تثري المشهد أكثر، ولنترك الصور كآخر حصاد لنا من لقاء مبدعين نحبهم، ونلتقيهم مصادفة من حين لآخر.

55

تعتبر الذاكرة التي يحملها الكاتب، من أساسيات أدب المهجر أو أدب الحنين، فلا تأتي المعطيات المكونة للنص، أو تتجمل أو تتوهج في القلب أولا ثم في ورق الكتابة ثانيا، إن لم تكن الذاكرة حاضرة للمّها وعرضها على شغف الكتابة.

الذاكرة هنا لا تحتاج لتدريب متعمد، بمعنى أننا لن ننحتها من أجل العثور على موقف ما أو حكاية، ما، سيتكفل الحنين بذلك، وسيأتي بالمعطيات كلها إليها، وفي مغتربي الطويل، تأتي إلى ذاكرتي باستمرار، أسماء ووجوه ومواقف لا أصدق أبدا أنها موجودة في الذاكرة، أحيانا تأتي بلا سبب معين، وفي أوقات لا أكون أكتب فيها نصا معينا، وقد يدفعني ذلك لكتابة النصوص، وكنت ذكرت في رواية لي اسمها «العطر الفرنسي»، أن علي جرجار بطل القصة، يمكنه أن يتذكر حتى ذبابة حطت في طبق حسائه منذ أربعين عاما، أو تقطيبة وجه شاهدها لعم أو خال منذ خمسين عاما، أو حتى في أي يوم لسع لسانه بسبب شاي حار، وحقيقة كنت أصف ما يحدث لي كثيرا، سأظل أتذكر أبدا تسفاي الجميلة، اللاجئة من إريتريا أثناء الحرب مع إثيوبيا، في ثمانينيات القرن الماضي، من دون أن أقصد ذلك، ستظل ذكراها تأتي مفصلة أكثر كل يوم، وجهها، ثيابها، عطرها، طعنة الخنجر

في قلبها، دمها، لونها الباهت، وموتها في غرفة العمليات، ونحن نحاول إنقاذها، وأخيرا تكتبها الذاكرة المهاجرة في رواية. وحقيقة أن تلك الرواية كانت صادمة، وأرى كثيرين تعاطفوا مع اللاجئة الجميلة، وبعضهم امتلك تلك الخاصية التي ذكرتها مرة، وهي التمرغ في لحم النصوص وجرّ المتخيل إلى الواقع، نعم كثيرون يبكون شخصيات الكتابة بحرقة إذا أصيبوا بأذى، أو يتوقعون رؤية الأبطال والظافرين منهم يمشون في الشوارع.

في مغتربي أيضا، أتذكر معطيات رواية «366»، رواية الحب والموت والجنون، وقد كتبتها بالذاكرة المهاجرة أيضا، الذاكرة التي استعادت وقائع ثلاثين عاما إلى الوراء، وقد ذكرت القصة مقتضبة في مقدمة الرواية، وأفصلها الآن لأن قراء أعرفهم وآخرين لا أعرفهم، يبحثون دائما عن التفاصيل في النصوص المزعجة، أو فلنقل، تلك المطعمة بالليالي المؤرقة، والنهارات التي كلها شقاء إضافي، ولأن العثور على الكتاب أصبح سهلا في هذا الزمن، فهناك دائما من يسأل ويصر على الحصول على إجابات لأسئلته.

هذه في الواقع قد تكون قصة عادية تحدث في كل زمان ومكان، فقط كان الألم فيها طاغيا، لذلك صيرها الحنين أدبا. كنا طلابا في مدرسة البحر الأحمر الثانوية، تلك المدرسة المهة التي تقع وسط مدينة بورتسودان، قريبا من موقف الباصات، والسوق الكبير، وبعض الأندية الرياضية، وتقع خلفها مساحة كبيرة من الأرض، كانت في الماضي، خورا ضحلا، وجف لكن تأتي السيول

لتغمره بين حين وآخر، ماضية إلى البحر. واستغلت بعد ذلك لأغراض كثيرة، أيضا سينما الشعب كانت هناك، وهي سينما قديمة تعتبر مع السينما الأخرى المسماة سينما الخواجة، أداتي الترفيه الرئيستين في المدينة في زمن ما، قبل أن تلغيهما السلطة من ضمن ما ألغت من ذاكرة المدينة الساحلية. في بقعة ما من ذلك المحيط عثرنا على رسائل عاطفية، مكتوبة بالحبر الأخضر وموضوعة داخل ظرف كبير، ومعنونة برسائل المرحوم إلى حبيبته أسماء. هي في الحقيقة رسائل كتبها عاشق لامرأة شاهدها مرة واحدة، وضع فيها عذابات عام كامل ظل يبحث فيه عنها، ولم يعثر عليها كما يبدو، وانتحر كما كان موضحا في الرسالة الأخيرة التي لم تزد على سطرين. الرسائل ضاعت وكبرنا وتركنا بورتسودان، وكانت القصة هذه ستضيع أيضا لو بقيت في عقل كاتب محلي تتصارع أمام عينيه الأحداث والمتغيرات ولا يجد وقتا ليعود بذاكرته إلى الوراء، لكن الحنين لذلك الزمن، والذاكرة المهاجرة جعلا من تلك الوقائع البعيدة المنسية أدبا سيكتب، ويقرأه الناس.

بالنسبة لرواية مثل «إيبولا 76»، أو رواية «الأسى الإفريقي» كما أسميها، هي أيضا من نتاج الذاكرة المهاجرة.

كنت جالسا في مغتربي في الدوحة، حين تذكرت فجأة ليس فقط الرسائل والخط المنمق المتعرج، الذي كتبت به، بل حتى الوقت الذي عثرنا فيه على الرسائل، والزملاء الذين كانوا معي وتقاسموا معي تلك الغنيمة العاطفية.

كنا حقيقة في فسحة الإفطار، وهي ساعة نغادر فيها المدرسة لنفطر بوجبة الفول المعتادة، في واحد من المطاعم المنتشرة في السوق القريب، وكنا في الواقع زبائن لمطعم مكي هلال، الذي كان درة بين المطاعم الشعبية في ذلك الحين، ولا أدري إن كان ما يزال موجودا ونشيطا، قضت عليه المتغيرات، وتركه وارثوه إلى نشاط آخر، مثل أن يصبح إنترنت كافيه، أو مركز اتصالات، أو متجرا لبيع الكومبيوتر والهاتف الجوال، أنا أتذكره مطعما، وسأتذكره وأتذكر غيره من محطات ذلك الزمن، على الرغم من أنني أعود إلى وطني باستمرار، لأرى ما يحدث من متغيرات.

بالنسبة لرواية مثل «إيبولا 76»، أو رواية «الأسى الإفريقي» كما أسميها، هي أيضا من نتاج الذاكرة المهاجرة، واستعادت قصتها بعد أكثر من ثلاثين عاما، ذلك حين التقيت بالطبيب الذي عاصر وباء إيبولا الفيروسي الذي يسبب الحمى النزيفية، مصادفة في عيادة طرفية في مدينة بورتسودان. الرجل كان قد نجا من وباء إيبولا في هبته الأولى في جنوب السودان، وعاش ليحكي هذه القصة، التي لن تكتب أثناء وجودي في مدينة بورتسودان، وإنما في المغترب، وبواسطة ذاكرة وحنين.

شيء مهم من خصائص أدب الذاكرة والحنين، وهو مطاردة الطفولة البعيدة للكاتب في قريته الصغيرة، أو مدينته التي ولد وعاش فيها، وهنا يقترن بأدب السيرة الذاتية الذي أقول دائما إنه الأدب الذي يعتني بمكان الصرخة الأولى، ويستمر متابعا لتلك الصرخة، حتى تتحول إلى كائن يملك ماضيا وحاضرا ومستقبلا،

ولو رجعنا لروايات كتبها أدباء تركوا أوطانهم، لوجدنا فيها تلك البذور الصغيرة.

56

قرأت مؤخرا مقالا في صحيفة إلكترونية، يتحدث عن رواية المستقبل أو الديستوبيا، وكيف أنها رواية ليست قائمة على الخيال، وإنما على معطيات دقيقة وتنبؤات، ومتابعة للتطور العلمي الذي لا بد يؤدي لكشف جديد في المستقبل.

وبينما يؤكد المقال براعة الغرب في كتابة مثل هذه الرواية، يؤكد أيضا على وقوفنا نحن العرب عاجزين عن كتابتها، بحيث نكون مجرد مقلدين لا أكثر، إن كتبناها، ونعتمد على ما أنجزه الآخرون بسبب عدم قدرتنا على الإنجاز.

حقيقة وفي كل مجال من مجالات الإبداع، سواء كان كتابة أو رسما أو نحتا، أو حتى رياضة بدنية، تتم المقارنة بين الشرق والغرب، بين مبتكري التكنولوجيا ومستهلكيها، بين الكتاب الذين اعتبروا أساطين في الكتابة هناك، وكتابنا الذين سيظلون صغارا وجهلة ومقلدين حتى يموتوا. إنها نظرة ثابتة لدى الكثيرين، ونادرا ما تتغير وتحت ظروف معينة، كأن يحصل كاتب أو شاعر عربي على جائزة عالمية، كأن يركض عداء عربي في مضمار دولي ويحصد ميدالية ذهبية، وكأن يدخل رجل أعمال بدأ من الصفر في مدينة عربية مغمورة، تقريرا عن الثراء ينشر في مجلة فوربس المشهورة بتقييمها لتلك الأمور.

ولو اقتصرنا مجال المقارنة هنا على الكتابة الروائية فقط، فلا بد من ذكر أشياء عديدة قبل أن تدخل نصوصنا في صراع دولي من أجل إسقاطها، ورفع يد النصوص الغربية المرفوعة دائما. كما هو معروف فإن كتابة الرواية قديمة جدا في الغرب، وهم بدأوا عادة السرد المقنن منذ قرون، وهناك روايات تنشر وتوزع وتجد قراء، وأيضا تقدم فيها الدراسات حتى الآن، تجدها قديمة، مثل نصوص شكسبير، وسرفانتس، وألكسندر دوما وكثير من الكتاب الروس، بينما نعود دائما إلى فترة الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي لنؤرخ لأول رواية كتبت عربيا، وحتى هذه غير متفق عليها، هناك من يقول رواية «زينب» التي كتبها محمد حسين هيكل في مصر، ومن يقول رواية من لبنان أو سوريا، وهكذا، وربما تكون هناك روايات كتبت في فترات مبكرة أكثر، ولم تنشر، وضاعت كما هو الحال دائما، حيث تضيع كتابات وتبقى كتابات أخرى، ولا نستطيع الإحصاء بدقة أبدا.

هناك روايات كتبت في فترات مبكرة أكثر، ولم تنشر، وضاعت كما هو الحال دائما، حيث تضيع كتابات وتبقى كتابات أخرى، ولا نستطيع الإحصاء بدقة أبدا.

إذن من الطبيعي أن تتطور الكتابة في الغرب عبر السنوات الطويلة، وأن تتمرد على الأفكار الموجودة، وتسعى إلى اقتراح أفكار أخرى، تضاف لمواضيع الكتابة، وهذه الأفكار لو تأملنا كثيرا منهطا سنجدها موجودة عندنا منذ الأزل، فقط لم تستغل جيدا، مثلا كتاب مثل «ألف ليلة وليلة»، ذلك الكتاب الخيالي

الممتع في كل قصصه، أخذ منه كثير من كتاب الغرب، صاغوا القصص التي بهرتنا وهي موجودة أصلا ولا ننبهر بها كثيرا لأنها متاحة عندنا. أيضا بالنسبة لعوالم الكتابة، فأنا أعتقد أن البيئات العربية أكثر غنى من البيئات الغربية في وجود عوالم كثيرة ومتعددة، ونظرات مختلفة ومتجددة للحياة، ويمكن العمل عليها بقليل من الجهد لنصنع كتابة مهمة، وكنت مرة في إيطاليا والتقيت بكاتب شاب هناك حصد شيئا من الشهرة، وأول ما قاله لي، إنه يحسد إفريقيا على العوالم الطازجة التي تملكها، وتهبها لمبدعيها، وإنهم هنا يفكرون كثيرا من أجل الحصول على جو غير مطروق ليطرقوه، وقد يسافروا لبلاد بعيدة من أجل اصطياد بذرة مبدعة لغرسها في صحراء الكتابة.

لسنا مصنعين للتكنولوجيا لنتحدث عن روبوتات مستقبلية، تتحرك وتنجز المهام بمجرد أن يفكر مالكها في مهام محتاجة لتنفيذ، وتقوم بإجراء عمليات كاملة بدون مساعدة بشر.

بالنسبة لرواية المستقبل، التي ينحني لها القراء العرب إذا كتبت غربيا، ويكشرون في وجهها إذا كتبها أحد العرب، فأنا أعتقد وعلى الرغم من أنها صناعة غربية فعلا، إلا أن العرب يمكنهم كتابتها أيضا، نعم لسنا مصنعين للتكنولوجيا لنتحدث عن روبوتات مستقبلية، تتحرك وتنجز المهام بمجرد أن يفكر مالكها في مهام محتاجة لتنفيذ، أو تلك التي تشخص التهاب الزائدة الدودية وتورم الطحال، وتقوم بإجراء عمليات كاملة بدون مساعدة بشر، ولن يكون منطقيا طبعا لو قلنا إن عم

أحمد المزارع الخاص بالمستقبل سيضع قرصا صلبا في جهاز حاسوب صغير ويكتب زراعة أو حصاد، فتزرع الأرض وتحصد وحدها، إنها أفكار خيالية لكن لا تلائمنا مؤكدا، والذي يلائمنا روايات عن المستقبل فيها تخيل لبلاد آمنة وطيبة، وخالية من النزق والجبروت، ولا بأس من استيراد بعض الأدوات الغربية، وكتابتها بالجو العربي، بحيث تكون عربية خالصة، بمعنى أنه إذا استخدمنا فكرة تكنولوجية، ستحال إلى المكان الذي قدمت منه، وفقط نمنحها الفضاء الكتابي لتمضي فيه. وأعتقد يوجد في التراث العربي، تنبؤات كثيرة عن أحوال المستقبل، لو تمت دراستها بتأن لحصل الكاتب على أفكار للكتابة، وكنت دائما وفي أي مقال أقرأه لناقد يصف رواية ما بالخلل والهلهلة، أتمنى أن يقدم هو أفكاره في شأن الفقرات التي ظنها غير ناضجة، لنتعرف على وجهة نظر أخرى، وليس مجرد كتابة نظرية، لا تؤدي لنتيجة.

شيء آخر، فإن رواية المستقبل تحتاج لخيال أيضا من أجل قراءتها، والقارئ الذي اعتاد على قراءة الأعمال ذات النسق الواقعي، قد يجد صعوبة في استيعاب ما تحمله من غرائب، تماما مثل القارئ الذي لا يتفاعل مع الفانتازيا، وأول ما يكتبه: رواية سيئة.

وأعود لأقول ما أقوله دائما: ليس هناك رواية سيئة، ما دامت ملتزمة بالخط الفني للكتابة، لكن توجد رواية تذوقها أحدهم ولم يتذوقها الآخر، فهمها أحدهم ولم يفهمها آخر. حتى

الروايات الغربية أو المقبلة من أمريكا اللاتينية، وخلبت ألباب الناس في سنوات متعاقبة، هناك من لم يفهمها، وظل يتساءل مثلا: كيف يطير شخص في الهواء؟ كيف تحول الجدة حفيدتها إلى فتاة ليل تمارس البغاء في رواية «إيرنديرا الغانية»؟ وإن أردنا القياس على هذا، سنجد كلاما كثيرا يخص الإبداع، ودائما من يسأل بلا توقف: لماذا يكتب الناس أصلا؟ ولماذا يقرأون؟

57

قرأت مؤخرا تقريرا يسمي كتابا معينين، ويقول بأن أعمالهم التي أبدعوها، غيّرت وجه التاريخ، وكان من بين أولئك الكتاب، وليام شكسبير، وأوسكار وايلد، وجيمس جويس، وجورج أورويل، وأرنست همنغواي، وسيمون دي بوفوار، وبالطبع غابرييل غارسيا ماركيز، الذي لا بد أن يذكر في أي تقرير عن الكتابة، ولا بد أن تصادف اسمه في أي منعطف خاص بها.

التقرير تحدث باقتضاب شديد عن أعمال بعض هؤلاء الكتاب، وذكر أشهرها مثل «الصخب والعنف» لفوكنر، و«1984» لأورويل، و«ناس من دبلن» لجويس، و«الخيميائي» لباولو كويلهو، و«مئة عام من العزلة» لماركيز، لكنه لم يقل كيف غيرت تلك الأعمال وجه التاريخ، والمعروف حين يذكر هذا التعبير، لا بد أن يذكر أي ملمح قد تغير في ذلك الوجه؟ وأي زلزال حدث، وانحرف به المسار العادي للتاريخ، وقد كانت المسيحية، زلزالا حدث قديما وتغير به نسق الحياة الوثنية، ثم جاء الإسلام بكل ما يحمله من إشعاعات، بعد ذلك، وتغير التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي تماما.

وفي أيامنا هذه، وحين نتحدث عن تغيير وجه التاريخ، سنتحدث عن أحداث معينة جرت وتغير بها ذلك الوجه، لن

أقول ابتسم أو كشر أو ضاعت ملامحه، ولكن أقول تغير فقط، ونعرف كلنا ثورات الربيع العربي وما حدث فيها من شطب لكثير من الديكتاتوريات بأقلام شعوبها، ومحاولات بناء دول جديدة، وحيوات جديدة، وإن كان ذلك يستغرق زمنا طويلا، وربما تعيش الرخاء أجيال أخرى قادمة، ولا يعيشها الجيل الحالي، الذي هز العروش الظالمة وما زال يهز تلك التي تقاوم.

الكتابة والتدوين، جزء من إرث الشعوب، وجزء من نشاطها الطبيعي الذي تنشط به، ولولا أن الشعوب كانت تدون أحداثها، وتصف أدق التفاصيل اليومية للحياة، لما وصلنا شيء من تلك الحيوات القديمة، هذا مؤكد ولو تحدثنا عن الكتابة الإبداعية في هذا الصدد وهي جنس قديم من نشاط الكتابة، لكنه تطور بالتأكيد في زمننا الحاضر، واختلفت مواضيعه، وأفكاره، وطرقه، ربما نجد كتبا معينة تغير عند نشرها ملمح من ملامح التاريخ، خاصة كتب الخيال العلمي، وهو نوع من الأدب، يقرأ مستقبلا متخيلا، تحدث فيه اكتشافات معينة، يستفيد منها الإنسان، وهذا لا يكتب عبثا وبلا أي دراية كما يتوقع البعض، وإنما نتيجة قراءات جادة للحاضر، والمشي بالخيال خطوات إلى المستقبل، وزرع علامات يستدل بها باحث علمي لاختراع شيء، أو وضع خيط يمسك به مخترع، ويكمل المسير، وحقيقة لا أتذكر أي كتب شكلت نواة لاكتشافات حدثت، وغيرت وجه التاريخ، وإنما أتذكر إن ذلك حدث.

الذين يتحدثون عن رواية أورويل «1984» التنبؤية، بوصفها

من التجارب الأولى التي قفزت إلى المستقبل، وأنها غيرت شيئا، نقول، نعم هي ديستوبيا مهمة، ومن التجارب الناجحة في قراءة مستقبل الإنسان، لكن لم يتغير بموجبها شيء، حين وصلنا إلى عام 1984، هناك أشياء في الرواية حدثت فعلا، لكن لا شيء أضيف لوجه التاريخ، لا ابتسامة ولا تكشيرة، ولا غير ذلك.

السؤال هنا، هل من واجب الأدب أن يسعى لتغيير وجه التاريخ؟

طبعا لا، والحقيقة لا قدرة أصلا للأدب على تغيير ذلك الوجه، وباستثناء نماذج قليلة تغير أشياء قليلة كما قلت، فإن الأدب يظل سائرا خلف التاريخ، يدون أفعاله، ويستوحي منها للأزمنة المقبلة ومعروف نزوحنا هذه الأيام للتاريخ بكثرة، من أجل الحديث عن الزمن الحاضر، وهذا أمر مشروع بلا شك، والرواية التاريخية لم تعد جديدة ولا رواية طفلة، بل نضجت كثيرا، ونقرأ في كل يوم إبداعات عظيمة فيها.

بالعودة لأعمال أولئك العظماء الذين ذكرهم تقرير وجه التاريخ، سنقول بدلا من تغيير الوجه، إحداث تأثير داخل الوسط الإبداعي نفسه، بما جاءت به من أفكار، ربما لم تكن مستخدمة، أو كانت مستخدمة على استحياء، أيضا الأسلوب الذي جاءت به ولم يكن متعارفا عليه، وتفاعلها مع القارئ، الذي أحس بها قريبة منه، وأشياء كثيرة داخل المغزى الإبداعي.

ولو تحدثنا مثلا عن واحد مثل البرازيلي باولو كويلهو وروايته

البسيطة «الخيميائي»، التي أشتهرت بشدة، سنجد تأثيرها الأكثر لدى القارئ، الذي قد يكون أحسها روايته الخاصة، ذلك الراعي البسيط الذي كأنه خرج من حلم، وعشقه للكتب، وتنقله، وأشياء قد نحسها غير مهمة، وفقط القارئ أحس بأهميتها وتذوقها على هذا الأساس.

نموذج آخر رواية «اسم الوردة» للإيطالي أمبرتو إيكو، إنها نموذج مهم على صعيد القراءة والنقد، وهي قصة عن الرهبان وأديرتهم وما يحدث هناك من هلع يسير جنبا إلى جنب مع السكينة المفترضة، لقد رصدت الرواية إذن شيئا من الممنوعات التي لا تجوز الكتابة فيها، ونقول إن إيكو أحدث بهذه الرواية تأثيرا حقيقيا، لكنه لم يغير ملمحا من ملامح التاريخ، لأن ملامح التاريخ كما قلت، تتلقى الإبداع وهي جامدة، ولأن الإبداع يتبع التاريخ غالبا، ولا يسبقه.

نأتي إلى «مئة عام من العزلة» لماركيز، وهذه في رأيي الشخصي، العمل الإبداعي الأهم في العصر الحديث، ولمعت بوجودها مدرسة الواقعية السحرية اللاتينية، وكانت موجودة طبعا لدى ماركيز وغيره من كتاب تلك الفترة، وفقط رواية ماركيز أظهرتها للناس. «مئة عام من العزلة» كان تأثيرها أبرز ذلك أنها أثرت في القراء طبعا، وفي الكتاب أيضا، وأشبهها بالفتيل الذي أشعل شرارة الخيال لدى الكتاب، لينطلقوا محلقين فيه. كانت ألف ليلة وليلة موجودة لدينا، وفيها من الخيال ما يفوق الوصف، لتأتي شعوب أخرى وتستفيد منها، وتنتج هذه السحرية العظيمة.

أخلص إلى أن وجه التاريـخ يظل ثابتا، ويتفاعل فقط مع الأحداث، وحتى في الأحداث، تلك الكبرى مثل الثورات الشعبية، والاكتشافات الحديثة، التي تسمى أيضا ثورات، لأن مصطلح ثورة يطلق على كل ما يمحو الماضي، وينظر إلى المستقبل، وبديهي أن الإنترنت التي نتخاطب عبرها الآن، ونقضي بها كل شؤوننا الحياتية، كانت اكتشافا مذهلا، تغير به وجه التاريـخ تماما.

في كتاب «ذاكرة القراءة»، وهو من الإصدارات الأخيرة التي ترجمتها دار الساقي، للكاتب الأرجنتيني المعروف ألبرتو مانغويل، ونقله للعربية جولان حاجي، نجد ذلك الخط نفسه الذي يتبعه الكاتب في تمجيد القراءة والبحث عن جذورها وترسيخ دعائمها، مع ذكر عدد كبير من مراجع الكتابة المهمة، وكثير من الأقوال التي قيلت تغزلا في الكتب، وحتى يأتي ببيت المتنبي الشهير، في الفخر: والسيف والرمح والقرطاس والقلم. يقول إن أبا الطيب ساوى بين القرطاس والقلم، أي بين الكتابة والقراءة، باعتبار القلم يعني الكاتب، والقرطاس سفرا في يد القارئ.

أيضا يتعرض للمعرفة التي تبر بها القراءة الأمم، فنحن عن طريق الجداريات المنقوشة في الكهوف، وهي لغة قديمة للكتابة، توصلنا إلى حياة الأقدمين وطقوسهم، وتطور أو تخلف مجتمعاتهم، وألممنا بما ألهمنا أن نسير على الدروب المطورة، وننقي مجتمعاتنا من الشوائب القديمة، والذي يقرأ حضارات الشعوب في تلك المرويات الجدارية، وورق البردي، وغير ذلك من الوسائل المبتكرة لإشباع نهم الرواية، وبالتالي نهم القراءة، لا بد أن يحس بالنشوة، ذلك أن القراءة أشبعته، وأكسبته المعرفة. مانغويل كالعادة يبين قراءاته هو، ومشاريعه، وما استفاد وما

يمكن أن يستفيد منه، وأذكر كتابا سابقا له، هو «المكتبة في الليل»، كان ممتلئا بكثير من الزخم اللازم، أو الجاذب إلى مؤاخاة الكتب، ولدرجة تظن أن للكتب أرواحا تتسامر مع بعضها في المكتبة ليلا، ويمكن للقارئ الملهم أو الشفاف أن يسمع تلك المسامرة. وفي كتابه «تاريخ القراءة» الذي حقق نجاحا عالميا بوصفه من الكتب القليلة التي أرخت بصدق للقراءة، وبينت طرائقها في العالم القديم والحديث، يحس القارئ، أنه لم يكن يعرف شيئا في الحياة، قبل أن يقع ذلك الكتاب بين يديه.

في كتابه «تاريخ القراءة» الذي حقق نجاحا عالميا بوصفه من الكتب القليلة التي أرخت بصدق للقراءة، وبينت طرائقها في العالم القديم والحديث، يحس القارئ، أنه لم يكن يعرف شيئا في الحياة، قبل أن يقع ذلك الكتاب بين يديه.

وقد كتب مانغويل الرواية أيضا، وبديهي أن الذي يجمع في ذهنه كل تلك القراءات، لا بد أن ينتابه شغف خاص بالكتابة، خاصة أنه صادق بورخيس فترة من الوقت، وكان يقرأ له بعد أن فقد بصره، وكتب عنه كتابا صغيرا، لكنه صادق وجميل ويبين بصدق كيف أن كاتبا عظيما مثل بورخيس، لا يجد أي غضاضة في قراءة قصة لمراهق، أو قصيدة لشاعر ما زال يتخبط في الطريق، أو رواية أولى لكاتب مغمور، ومن الممكن جدا أن يظل يحاور المبتدئين، ويعترف بآرائهم، لكن لا أعتقد أن مانغويل أجاد كتابة الرواية، مثلما أجاد أرشفة القراءة وتبعاتها، كانت لديه أفكار لكن واضح جدا، أنه ليس كاتبا روائيا في النهاية، هو

جرّب مثل الكثيرين، ولم تنجح تجربته.

إذن نعود لمسألة القراءة، خاصة ما أريد أن أسميه: القراءة الكاملة، وهي قراءة الشخص لكل ما يستطيع قراءته من مواضيع بغض النظر إن كانت تستهويه أم لا؟ فالذي يغرم بالشعر من المفترض أن يقرأ مواضيع أخرى قد يستلهم الشعر منها، مثل التاريخ والأديان والعلوم الاجتماعية والفلسفة، وغير ذلك، والذي تستهويه قراءة الرواية، سيكون من المفيد لو استقى منابعها الموجودة في الكتب، لأن الروائي نفسه بقدر استلهامه من الحياة، يستلهم من الكتب أيضا، لدينا تاريخ يمكن توظيفه، لدينا جغرافيا يمكن رسمها، وعلم اجتماع وأديان وفلسفة ورياضيات أيضا، وأدب رحلات فيه الكثير من المحاور الجادة، التي يمكن تحويلها إلى خيال كتابي، أو» فيكشن»، ولدينا روايات مهمة كتبت عن الحيوانات، وطبيعتها وتلاحمها مع الإنسان، مثل رواية «حياة باي» للكاتب الكندي يان مارتل، وهذه رواية حاصلة على جائزة مان بوكر البريطانية، وكنت أقرأ كتابا عن السلاحف، اقتنيته من مشروع كلمة لترجمة الكتب، وكان مدهشا فعلا، ومنحني الثقة بأنني قد أكتب رواية عن السلاحف، وعلاقتها بالبشر، ولديّ كتب عن الصقور، والديدان والثعالب، من الممكن جدا العمل عليها.

الكاتب المعروف، حين يكون في وضع القراءة، ينبغي أن يتواضع، فلا ينتقي كتبه في مجال كتابته، لمن هم أشهر منه، وإنما يقرأ أيضا للأجيال الجديدة.

بالنسبة للفلسفة، فقد ارتبطت منذ عهد قديم بالشعر المهم، والرواية الجيدة في نظر القراء، وبعض القراء يرى الرواية الفلسفية، أو التي من ضمن شخصياتها، متأملين ومنظرين، أكثر أهمية من الرواية التي تتعامل مع الواقع ببساطة، أو بخيال خصب، وقد قال لي مرة أحد القراء، إنني يجب أن أكتب بفلسفة ليصبح أدبي عميقا، وهذا غير صحيح طبعا، لتكن هناك رواية فلسفية، لكن سنعتبر تلك الطريقة في الكتابة، واحدة من الطرق المشروعة، وينبغي أن لا تربط بالعمق والسطحية، ومن الروايات المهمة في هذا الشأن، سنجد رواية «عالم صوفي» الدنماركية الشهيرة، وهذه كتبت أصلا من الفلسفة وإلى الفلسفة.

حقيقة حتى الرياضيات يمكن توظيفها في كتابة الخيال، والفيزياء يمكن توظيفها، وبديهي جدا يمكن توظيف علوم الطب والهندسة والجيولوجيا، وإن كنا مقلين في هذا الموضوع عربيا، لكن عالميا هناك من فعل ذلك، وأذكر أن هناك كاتبا أمريكيا هو في الأصل طبيب، لكنني نسيت اسمه، حوّل عددا كبيرا من الأمراض بأعراضها ومضاعفاتها إلى أدب صرف، سيسأل البعض كيف حدث ذلك، وأقول بأنه ممكن وسهل جدا لمن امتلك المعرفة في أي شيء، ولديه موهبة الكتابة، أن يفعل ذلك.

شيء آخر في مسألة القراءة، وأشار إليه مانغويل في حديثه عن بورخيس، وهو التواضع، بمعنى أن الكاتب المعروف، حين يكون في وضع القراءة، ينبغي أن يتواضع، فلا ينتقي كتبه في مجال كتابته، لمن هم أشهر منه، وإنما يقرأ أيضا للأجيال الجديدة،

وربما هناك موهوبون يمكن التقاطهم، ونصحهم، والأخذ بيدهم ليعبروا، وربما هناك أفذاذ سيلهمونه شخصيا، فقط يعوق هذه المسألة، انشغال الكبار بأعباء تقلل من نشاطهم القرائي، وتصيرهم في نظر الكتاب الجدد، متغطرسين وأنانيين ولا يحبون التواجد في ساحة الكتابة لأحد غيرهم. أعتقد بقليل من الصبر، نستطيع تلمس خطى ألبرت مانغويل، وهذا رجل درّب نفسه على الصبر واستخلص لنا ما نراه ممتعا وشيقا بخصوص القراءة، أقول الصبر لأن ليس كل ما يقرأ ممتعا، ولكن قد يكون مهما للغاية.

59

أتيح لي أن أقرأ رواية «وطن مزور» للكاتبة الكويتية عائشة عدنان المحمود، الصادرة هذا العام، وهي الرواية الأولى التي تنجزها ولا شك ستنجز بعدها الكثير،

منذ بداية الرواية التي أسميها رواية أجيال أو ملحمة أجيال، رغم عدد صفحاتها القليلة، يتضح ذلك الكم المعرفي الذي اختزنته الكاتبة، وأفرجت عنه في الورق، هناك مجهود كبير في التقصي بلا شك، جعلنا نحيط بتاريخ وجغرافيا المنطقة العربية، التي تجري فيها أحداث النص، وهي مؤكد منطقة اليمن وجبالها، وانتهاء بدولة الكويت التي ستستقر فيها الأحداث لاحقا.

فترة الأحداث، تمتد من أربعينيات القرن الماضي إلى وقتنا الحاظر، نحن هناك في قرية من تلك القرى الصغيرة الخشنة في منطقة ما من شبه الجزيرة العربية، ستدل عليها معطياتها البيئية والاقتصادية والزراعية والاجتماعية، هناك حيث الكيان الأسري له تقديسه الخاص، الترابط وشيجة حتمية، والأسرة كلها تعمل في الزراعة من غرس للبذور إلى حصادها وتصديرها للمدن القريبة. هم يزرعون البن ويملكون أراضي شاسعة من أجل زراعته، والجد راعي أسرة العاطف، التي تتمحور حولها الحكاية، يمهد الطريق لسلالته لتحيا على نهجه في المستقبل، لكن ثمة حياة أخرى يرسمها القدر.

نتحدث عن سيف العاطف الذي وجد نفسه مزارعا في تلك التربة الخصبة، يعشق الأرض وما تنتجه، ولا يفكر في أي شيء سوى أن يظل محافظا على توازنه الحياتي، زوجته صالحة، امرأة قوية ونشيطة، وتملك قدرة فذة على احتمال تضاريس الحياة وتضاريس الأرض أيضا.. أكثر من ذلك، تساهم في إثراء الأرض وإثراء الحياة الزوجية، وتبدو في كثير من الأحيان أما وأبا للصغار في الوقت نفسه، خاصة حين عرف الأب سيف سكة السفر إلى الميناء الوليد، بتلك الشاحنات الصغيرة التي غزت القرى، حاملة الأحلام والأوهام معا، وعرف طريق التجارة الذي سيسلكه كثيرا تاركا صالحة تؤدي مهمة الالتحام بالأرض.

القصة تمضي وتفرز جيلها الثاني، حين يموت الوالد في حادث سير أثناء واحدة من أسفاره، وتبدأ هنا مهمة الأم صالحة، وهي الاستيلاء الكامل على الأسرة، ومدخراتها وإرثها ومستقبل أبنائها، وبذلك يخضع الأبناء لها تماما، حتى الذين تزوجوا منهم، يظلون خاضعين وأشبه بالأجراء في أرضهم. وقد ذكرني ذلك الوضع بالمجتمعات القديمة، حين كانت الأنثى هي المحور، الذي تدور حوله الحياة، والذكور مجرد مساعدين لإنجاح دورة الحياة. المتوقع في البلاد العربية وفي فترة الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، أن تكون الذكورة هي السائدة بتحكمها في كل شيء، لكن دائما نجد نماذج تشذ عن القاعدة، وكنت أثناء طفولتي في السبعينيات، وحين نزور قريتنا في الشمال ألتقي بنساء من أمثال صالحة، يملكن أيضا مقدرة أن يدرن الحياة كيفما أردن، وبعضهن يتسلق النخل، ويلقحه أو يجز سبيطه المثقل بالتمر،

أيضا يمكن أن ينفق الليل في حراسة الماء الذي يسقي أرضه، ليحوله من حقل إلى حقل، تماما مثلما يفعل الرجال.

صالحة إذن تتحول إلى امرأة رأسمالية، وفي الوقت نفسه لا تهمل أنوثتها التقليدية، حيث تتزين بالذهب، وتحب مواطنا يعمل معهم في الأرض وتتزوجه في النهاية بمباركة أبنائها لأن لا خيار لهم سوى المباركة. الآن سالم سيف العاطف، الابن الأصغر، الذي كان المقرب إلى الأم صالحة، وساعدها الأيمن في الزراعة وجني المحصول، والوحيد الذي لم يكن مرتاحا لزواجها من الرجل الذي يعمل لديهم، ستتفتح أفاقه فجأة، سيتعرف إلى أخبار وطن بديل تدفقت فيه الثروة فجأة، حين اكتشف النفط وأنهم بحاجة لعمال وسائقين وعسكريين ومهن كثيرة من أجل أن ينمو الوطن ذلك. هو وطن في شبه الجزيرة العربية أصلا ويمكن الوصول إليه بمشقة لكن فيه رزقا كثيرا. الرحلة إلى الوطن البديل طويلة، وينتج فيها الجيل الثالث من أسرة العاطف، الذي فيه السارد عمر، بعد أن يعود سالم ويتزوج من جنة، الفتاة الصغيرة التي من قريته، والتي يظل وفيا لها دائما، ووفيا لأمه أيضا.

لن أخوض في ما حدث في الوطن البديل، فقط أشير هنا إلى أن القصة هنا تأخذ منعطفا آخر، ليس منعطف القرى بخيرها وشرها، والمدن برزقها وعدم رزقها، إنما منعطف الهوية، وهو موضوع أثير لدى الكتاب الكويتيين، ذلك أن كثيرا من الناس الذين ولد أجدادهم هناك ما زالوا بلا هوية.. الجد يأتي ويعمل

ويجيد تفاصيل الحياة المحلية، لكن يظل بلا وطن، الأبناء يأتون يرضعون تفاصيل الحياة، يدخلون المدارس، ولا هويات حقيقية لهم سوى هوية الوطن الذي يقطنونه وأيضا لا هوية.

إنها مشكلة كبيرة تستحوذ على حبر الكتابة، مثلما تستحوذ الحرب ويستحوذ التشرد واللجوء على كتابات الناس في سوريا والعراق، وأماكن كثيرة ضربتها الحرب، وموضوع الأزمات الاقتصادية والفساد في بلاد ضربتها تلك الأزمات وعشش فيها الفساد. ومؤكد ترد إلى الذهن رواية «في حضرة العنقاء والخل الوفي» للراحل إسماعيل فهد، ورواية «ساق البامبو» لسعود السنعوسي التي تحدثت باستفاضة عن الموضوع.

عائشة هنا لم تزحف بروايتها بعيدا، لتقتنص شعوبا أخرى قد تكون تبحث عن الهوية في الوطن البديل، وإنما تتحدث عن أسر عربية، قريبة الشبه بأرض الوطن، وتحمل صفاته كلها خاصة في الجيل الثاني، جيل السارد عمر، سنجد اللهجة هي اللهجة نفسها، الملبس هو نفسه، والسلوك اليومي هو السلوك اليومي للشباب في الوطن البديل، فقط لا هوية رسمية تنسب عمر وأمثاله للوطن. عموما تظل رواية وطن مزور، ورغم كونها رواية أولى لعائشة المحمود، رواية جميلة، سلسلة، مكتوبة بسخاء شعري واقتصاد لغوي، ربما كان سيكتب في مئات الصفحات لولا ذكاء الكاتبة.

60

من الأدوات المتاحة في موقع التواصل الاجتماعي، فيسبوك، والتي كثر استخدامها في الآونة الأخيرة، أداة البث الحي، أي أن يصور أحدهم مقطعا للفيديو، ويجلس خلفه، ينتظر التعليقات، أو يجلس على مقعد أو سرير أو حتى على الأرض في أي مكان في الدنيا، ويتحدث في كل شيء، وينتظر التعليقات أيضا.

ولأن فيسبوك يعتبر البث الحي، أمرا هاما كما أعتقد، تأتي التنويهات إلى وجوده، لتطارد أصدقاء الصفحة التي يبث فيها الفيديو، ودائما ثمة همسة صغيرة تتكرر مرات عدة، بأن هناك من يبث فيديو في هذه اللحظة.

أنا شخصيا لست من عشاق البث الحي، ولم يحدث أن تابعت بثا حيا حتى لو كان المتحدث يبث تقريرا حيويا هاما، أو يتحدث عن تخصص أعمل فيه، إلا نادرا وبناء على اعتبارات معينة. ولطالما استغربت من ذلك الزمن الطويل الذي يقضيه أحدهم في تصوير حائط صلد، أو حوش مغبر في بلدة مغبرة، أو شجرة تهتز مع الريح، وأولئك الذين يكتبون التعليقات، ويظلون يكتبون حتى نهاية المقطع أو ملل الشخص الذي يبثه.

هناك سياسيون مغمورون، يظهرون هكذا، يشتمون الأنظمة والقوانين، ويتلقون الشتائم ويذهبون. هناك كتاب مغمورون

بدرجة بعيدة، يتحدثون عن تجارب لم يسمع بها أحد، ويعثرون على الكلمات الروتينية: رائع، جميل، مبدع، ويذهبون ليأتوا مرة أخرى في بث جديد، وهكذا. وعثرت مرة حين تابعت مثل هذا البث، بدافع المعرفة، على ولد صغير يتحدث عن حبه للآيس كريم، خاصة آيس كريم الفانيليا، وهناك للأسف من يتابع، ويكتب عبارات الابتهاج بكل أريحية.

أيضا دخلت منذ عامين إلى صفحة واحدة تبث الفيديوهات الحية طوال اليوم، حين كنت أريد توظيف تلك الأداة في نص روائي، كنت أريد أن أفهم ضرورة البث المستمر وإن كان مهما لدرجة أن يترك الناس أشغالهم ويتابعونه بالتهليل، والعبارات الرنانة، وعثرت على ما كان مدهشا فعلا. إنها مشادة افتراضية طويلة المدى بين أشخاص عدة، من الواضح أنها ابتدأت منذ زمن وما تزال مستمرة بالحماس نفسه، مشادة فارغة ولا شيء آخر.

ومنذ فترة أرسل لي أحد الافتراضيين رسالة، قال فيها إنه مطرب عظيم لكن الإعلام لم ينصفه، وقد اعتاد على بث أغنياته مباشرة أثناء تأليفها وتلحينها وقبل أن يسجلها لأي جهة، ودعاني لمتابعته والكتابة عن عبقريته التي لم يكتب عنها أحد حتى الآن.

في البداية استغربت من اختيار المغني العظيم لي بالذات لأقوم بهذه المهمة، ولم يُعرف عني أكثر من كوني كاتبا فقيرا، أقصى ما أفعله أن أقرأ أو أكتب رواية، وأحيانا أكتب عن روايات

أعجبتني، وروايات لم تعجبني أيضا، ولم يحدث أن كتبت عن أغنية أو مغن، أو شريط سينمائي. وجربت مرة أن أكتب عن الفن التشكيلي، مستندا إلى تجربة أخي فيصل، ولم أستطع أن أقرأ اللوحات جيدا، فأقلعت. لكني ما لبثت أن تذكرت اختلاط الحابل والنابل الافتراضيين في مجتمع مثل مجتمع تويتر وفيسبوك وأنستغرام، وأن أي شخص مهما كان لا يصلح لشيء، تجعله الافتراضات يصلح لكل شيء. ودليل على ذلك تلك الكلمة الفخمة المستخدمة في كل وقت، وفي حق أي شيء، وأعني بها كلمة: رائع، وهناك كلمة أخرى تستخدم بكثافة أيضا، وهي كلمة: أنيق، وهنا لا تعني جودة الملبس وتناسقه وإنما تعني تناسق الإبداع، وهو شيء قد لا يكون موجودا كما ذكرت.

علقت إذن في قناة المغني الافتراضي، ووجدت نفسي أستمع لأغنيات بلا أي مغزى عاطفي أو اجتماعي أو وطني، أغنيات تردد بطريقة الراب، التي يمكن قول أي شيء فيها من دون الالتزام بكلمات مصاغة سلفا، أو لحنا طيعا شجيا. ولا أبالغ إن قلت أن أي فظاعة محتملة وغير محتملة، يمكن حشرها بسهولة في أغنية من تلك الأغنيات.

كتبت للمغنى في رأيي في قناته المباشرة وأنها مضيعة للوقت، وعليه إن أراد أن يصبح عظيما فعلا، أن يحسن صوته وأداءه ويلجأ إلى متخصصين في الغناء يعلمونه الحيل الفنية. لم يرد وقام بحظري، وكانت سعادة كبيرة أنني حظرت عن تلك الصفحة بالذات وكنت سأشعر بحرج كبير وأنا أغادرها طوعا.

بعض الذين يبثون ذلك البث الحي، متمكنون بلا شك، وفيهم إعلاميون إما تقاعدوا عن العمل في الإذاعة والتلفزيون في بلدانهم، أو ما زالوا ينشطون، وهؤلاء لا يفتحون الكاميرات على الفراغ أو الهلوسة، ولا يضغطون على أحد ليشاهد ما يبثون. إنهم في الغالب يتابعون أحداثا مهمة، يودون توثيقها وإيصالها للناس مباشرة. ونعرف نحن الذين نعمل في الثقافة أن التونسية سماح قصد الله، والسورية نوال الحوار، والفلسطينية بديعة زيدان، على سبيل الأمثلة، يمددننا ببث حي لأحداث كثيرة نحتاجها، وإن كنت شخصيا لا أتابع كل ما يبث حيا كما ذكرت في البداية، لكن غيري يتابع بكل حرص.

بالنسبة لاستخدام البث الحي في الدعاية للمادة الثقافية، مثلا أن يتابع البث كتابا جديدا من لحظة خروجه من المطبعة، حتى استلامه بواسطة الناشر، ويتابع في ما بعد استلام المؤلف له، والحديث عنه، ليس بالضرورة في ندوة أو أمسية، وإنما في أي مكان وحتى في الشارع العام. أظنها فكرة ليست سيئة، وما دام الناس يبثون أي شيء ذا قيمة وبلا قيمة، فلتكن المادة الثقافية جزءا من ذلك البث.

التقنيات في الإنترنت كثيرة بلا شك، وفي كل يوم تظهر تقنية جديدة، أو يتم تطوير تقنية موجودة أصلا. كان رفع الفيديو مثلا على موقع يوتيوب سابقا، لا يتم إلا للأفلام القصيرة التي لا تتعدى دقائق معدودة، والآن يمكننا الحديث عن ساعات، وأفلام طويلة يمكن مشاهدتها كاملة.

أخيرا أنوه إلى أنني أكتب آراء قد تكون خاصة بي وقد تكون مشتركة بيني وبين آخرين، لكن في النهاية هي آراء، تحتمل تقبلها وعدم تقبلها.

61

منذ فترة صدر كتاب بعنوان «Becoming» أي وأصبحت، لميشيل أوباما، زوجة الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما، وهو عبارة عن مذكرات تلك السيدة التي نشأت بطريقة عادية كفتاة أمريكية سوداء، في بيئة لا تقدر السود كثيرا، ثم تغيرت أحلامها وطموحاتها بعد ذلك لتصبح زوجة للرئيس، ومن سكان البيت الأبيض، حيث تتخذ القرارات التي قد تغير وجه الدنيا، وتصبح أيضا مثلا للأناقة والجمال، وتصبح صورها ثابتة على أغلفة المجلات هنا وهناك.

الكتاب لم يصدر بالإنكليزية فقط، ولكن بلغات مختلفة في الوقت نفسه، بلغت حتى الآن أربعا وعشرين لغة، وهذا شيء طبيعي، لأن الناشرين في كل تلك البلدان التي اشترت حقوق الترجمة، يعرفون تماما أن أي كتاب لأي شخص شهير، حتى لو كتب بلا دراية ولا أسلوب، يمكنه أن يحقق مبيعات كبرى، ذلك أن الناس عادة تحب المشاهير، وتحب الأثرياء، وتركض خلف أي شبع يأتي من هؤلاء، حتى لو كان شبعا بعيدا لن ينال منه الشخص نصيبا.

وأذكر أن مذكرات لاعب التنس الأمريكي السابق، أندريا أغاسي، كانت الكتاب الأكثر مبيعا في أمريكا منذ عدة سنوات، وقطعا حرص جمهور أغاسي ، وغير جمهوره على اقتناء تلك

المذكرات، التي قد لا تضيف جديدا، وهناك من اقتناها أملا في العثور على كوة ينفذ منها إلى حلم ما. نعم كثيرون يحلمون بالشهرة والمجد، ويتابعون سير من حصلوا على ذلك، بغية السير على دربهم.

وفي مجتمعاتنا العربية، دائما ما تأتي سير الأثرياء، ولاعبي الكرة والمغنين في المجالس، ودائما ما توجد حكايات تروى عن هؤلاء، قد تكون حقيقية، وقد تكون مختلقة، قام بعضهم بتأليفها، لإبهار المستمعين، أو توضيحا لحكمة ما، وأظنني تحدثت كثيرا عن مسألة الحكي والحكائين، وكيف يختلقون بصبر ودأب، ما يظنونه سحرا جاذبا يشد إليهم من يجالسونهم، وأضيف هنا، إن تأليف فقرة عن شخص شهير، لن يضير الشخص الشهير في شيء، على العكس، قد يعزز من مكانته كنجم في مجتمعه، ويرفع كثيرا من غروره، وأيضا قد يضيف تعاليا أكثر في تعامله مع هذا المجتمع.

في فترة ما، كانت تعجبني تلك القصص، أستمع إليها في المجالس التي يصادف أن أجلس فيها، وتتسرب منها أشياء إلى الذاكرة، لتبقى، وقد تظهر في نصوص مستقبلية، وقد حدث ذلك كثيرا.

وأظنني كنت أنبهر أيضا، خاصة في فترة محاولاتي الأولى لأن أكتب شيئا، تبهرني مثل تلك القصة التي كانت تروى عن جماعة من العاطلين عن العمل، كانوا يستهزئون بسيرة رجل ثري، لمع فجأة في فترة نهاية السبعينيات من القرن الماضي،

واحتلت سيرته الأذهان، حين هبط ذلك الرجل فجأة من سيارة فاخرة أمامهم، وبفمه سيجارة غير مشتعلة، لينهض الجميع يخرجون علب الكبريت من جيوبهم، أملا في الحصول على الفرصة الصعبة لإشعال تلك السيجارة الفاخرة. قصص عن قاض مشهور، تمت دعوته على وليمة عند أحد التجار، في مدينة نقل إليها حديثا، واكتشف بعد أن شبع بأن التاجر دعاه لأن هناك قضية شائكة تحتاج لحكم جائر منه، فخرج إلى حوش البيت، وضع إصبعه في قاع حلقه، واستفرغ الأكل كله، وحتى قصص عن رئيس سابق كان يذهب لأسواق الخضار واللحوم، والأسماك، ودكاكين الخردة، وتصليح الدراجات متنكرا، ليعاقب هذا، ويعفو عن هذا.. هكذا.

الذي لفت نظري أكثر في كتاب ميشيل، ليس عدد اللغات التي ترجم إليها، وهذا متوقع كما قلت، ولكن طريقة الترويج، حيث ستقوم المؤلفة بجولة واسعة في كل الولايات الأمريكية، تقيم فيها حفلات توقيع للكتاب، ليست في الهواء الطلق، أو في غرف ضيقة، أو داخل جناح لناشر، مخنوق بالكتب، وإنما في قاعات كبيرة، وبتذاكر للدخول، قد تبلغ قيمة التذكرة فيها آلاف الدولارات، من أجل الحصول على نسخة موقعة.

هذه الطريقة في الترويج ليست خاصة بميشيل أوباما وحدها، وإن كان ثمة مبالغة هنا، فحفلات الترويج فعل قديم، وعريق في الغرب، ولا يلفت أبدا تلك الأنظار الكبيرة المشمئزة، أو يحرك الألسنة التي تشوي الكاتب، وتردد دائما: ما هذا؟ كما يحدث

عندنا.

من حق الكتاب الذي بُذل فيه جهد كبير، أن يتم نشره بأناقة لمن يحب الأناقة، ويقدر على مصاريفها، وبثوب شعبي بسيط، لمن يحب القراءة ولا يملك أن يدفع من أجلها سوى القليل، من حقه أيضا أن يعلن عنه ولا يظل بضاعة راكدة في المخازن، أو على رفوف المكتبات، ومثلما يوجد محرر قدير يساعد الكاتب على ابتكار الأشياء أو تعديلها، ويعملان معا من أجل كتاب سليم اللغة، وجيد في تناوله للأمور، يوجد مسؤول دعائي، يختص بكتاب ما، فيوصله دعائيا لأي مكان يمكن أن يصله كتاب.

لا نطالب بتذاكر للدخول إلى حفلات التوقيع، لأن الكاتب نفسه لن يدفع إن اضطر لحضور توقيع كاتب زميل، لن نطالب بجولات في الدنيا من أجل الترويج للكتب، لأن ذلك مكلف جدا وبلا عائد طبعا، فقط مساحات جيدة، في المعارض، بعيدا عن أجنحة الناشرين المخنوقة، وعيون العابرين، بلا رغبة في الشراء في كل الأجنحة، والذين قد يسألون الكاتب المحرج أصلا من جلوسه: بكم هذا؟

شخصيا غير متشوق كثيرا لقراءة كتاب ميشيل، وأظنه لن يحمل أفكارا جديدة، أو معلومات قد تفيد في شيء، وقد قرأت من قبل كتابا مماثلا لهيلاري كلينتون، ولم يكن أكثر من كلام نظري، وذكريات مبعثرة لامرأة كانت زوجة لحاكم أمريكا، ووزيرة أيضا بعد أن انتهى حكمه. تلهمني الروايات أكثر، على الأقل توجد صنعة، ويوجد خيال.

62

كانت تطالعني منذ فترة، في كل مرة أدخل فيها مواقع التواصل الاجتماعي، قصة عن عجوز برازيلي في السابعة والسبعين، كان مشردا في الشوارع حتى عهد قريب، يكتب الشعر والقصص القصيرة، ويوزع نتاجه على العابرين بركنه، أملا في الحصول على صدقة، لتكتشفه ذات يوم فتاة شابة، تقدر موهبته بشدة، وتسعى لنشر إنتاجه في الصحف ومواقع التواصل، وتأتي النهاية الحالمة، حين تلتقط دار نشر كبيرة ذلك الإنتاج، وتنشره في كتاب، ويتحول الشيخ المشرد فجأة، إلى كاتب كبير، له تجربة وجمهور، ومورد رزق ثابت، ولا يظهر إلا متأنقا بما يليق بكاتب ذي صيت.

القصة قد تكون حدثت بالفعل، وأن المشرد كان موهوبا فعلا، وتمت مساعدته ماديا من قبل فتاة أعجبها شعره، أو راقت لها قصصه القصيرة، أو مجرد تعاطف مع شيخ مسن، يسكن الشوارع، معرضا للبرد والجوع والمطر، وقد لا يحصل على شيء مهما كتب أو عزف الموسيقى، أو رسم لوحات بقلم الرصاص للعابرين بقربه. وهذه مشاهد ثابتة في الغرب، حيث تجد في الأركان والطرق المزدحمة، مثل أولئك الذين تخلت عنهم الدنيا، أو تخلوا عنها، واتخذوا التشرد حياة بديلة، وحقيقة نجد بينهم دائما رسامون وعازفو آلات موسيقية مختلفة.

الذي لفت نظري في تلك القصة، هو سخاء دار النشر الذي ذكر، دار النشر التي تقرر أن تنشر كتابا لرجل مغمور، وتحوله إلى كاتب ثري وأنيق، وهذا شيء يصعب حدوثه، خاصة أن البرازيل وغيرها من دول أمريكا اللاتينية، تتبع مسيرة عالمنا وتشبهه في كثير من التفاصيل. وكنت أنتبه لهذه التفاصيل المزعجة، حين أقرأ لغابرييل غارسيا ماركيز، أو إيزابيل أللليندي، أو أي واحد من كتاب تلك القارة العظام. ولا أظن نشر الإبداع، سيكون أفضل من نشره عندنا، هو شيء في لحم التفاصيل النيئة التي لن تنضج أبدا في عالمنا وأي عالم آخر يشبه عالمنا.

ربما بشيء من التعاطف وبدعم من الفتاة التي اكتشفت الشيخ الموهوب، عملت دار النشر على الكتاب وأخرجته للناس، وربما يوزع بدافع عاطفي أيضا، خاصة حين تنشر قصة العجوز في الصحف ومواقع التواصل، مدعمة بصوره القديمة حين كانت لحيته البيضاء تغطي وجهه، ويده المرتعشة تكتب الشعر، ثم الصور الجديدة، ببدلته الزرقاء، يوقع كتابا للناس. لكن لن يكون ثمة ثراء أبدا، هي موجة تعاطف كبرى، خاضها من تم حشدهم للتعاطف حيال شخص يحتاجه، وستنتهي، وقد يتلفت العجوز ذات يوم فلا يجد متعاطفين جددا، ولا دار نشر تهتم بالقصائد التي يكتبها، وخاصة أن المطروح من نماذج الشعر والقصص والروايات أيضا، كثيف بدرجة مهلكة، والناشر لن يبحث عن المجهول، ولن يغامر مرة أخرى، وسيظل هكذا مستثمرا دائما.

رايموند البرازيلي، أو المشرد كاتب القصة والشعر ذلك، ذكرني

بزمن بعيد وشخص بعيد أيضا.

كان ذلك في سبعينيات القرن الماضي في مدينة بورتسودان، كان ثمة رجل مسن، بلحية بيضاء غزيرة أيضا، يجلس في ركن من أركان المدرسة الأميرية الوسطى، محاطا بالكتب، وبعضها باللغة الإنكليزية، كنا نعثر عليه يطالع دائما، أو يكتب الشعر، وأحيانا يتلو القرآن من مصحف ذهبي صغير، بصوت وارف وظليل.

كان الطريق إلى المدرسة الابتدائية يمر من عنده، الطريق إلى المستشفى وموقف الباصات الرئيسي، يمر من عنده، والتوقف للاستماع إليه يعد مكسبا كبيرا لطلاب فضوليين مثلنا، وأيضا لنساء ورجال ربما كانوا في الطريق إلى المستشفى، أو الموقف الرئيسي. هو لا يحدث أحدا مباشرة، لكنه يحدث نفسه، يقرأ ويكتب في ورق أصفر يخرجه من حقيبة سوداء مكسرة، وأحيانا يمنح العابرين شيئا من كتابته.

هذه شخصية ربما كانت مبدعة في زمن كان اكتشاف الموهوبين فيه أمرا صعبا، حيث لا تواصل اجتماعي، ولا إعلام بديل يتكئ عليه أحد، هي الإذاعة التي تبث من محطة أم درمان، خفيفة ومحملة ببرامج عادية للغاية، ولا شيء آخر. أبسط شيء أن يقال بأن الرجل مجنون، وينبغي الحذر منه، وقد يكون مجنونا بالفعل، لكنه جنون عظيم، ذلك الذي يقترن بالإبداع، وكثير من العقلاء الذين يصنفونه كذلك، لم يقرأوا كتبا، ولم يكتبوا الشعر، ولم يرتلوا القرآن بذلك الصوت الشجي.

أذكر أن حقيقة ذلك الرجل أرقتني، وعندي شغف بالشخصيات الغريبة منذ الصغر، ظللت أتتبعه وأحاول الحوار معه، أثناء ذهابي للمدرسة والعودة منها، بشكل يومي. قرأت له قصائدي الطفولية التي كنت أكتبها في ذلك الوقت فلم يمسك بأي حوار معي، ظل هو الغريب الذي يشد، ولا يتواصل إلا بمقدار. وأذكر حين مات فجأة في ركنه، أننا، نحن الطلاب أصدقاء وجوده، بكيناه بعمق كمن نبكي واحدا من أسرتنا، رحل.

لقد كتبت شخصية هذا الرجل الذي لا يعرف أحد اسمه، وكنا نسميه عزيزو، في كتابي "مرايا ساحلية"، الذي كتبته منذ سنوات عن مدينة بورتسودان في فترة بداية السبعينيات، ونوهت إلى شخصيات عديدة كانت موجودة آنذاك، لكني لم أحاول كتابته روائيا بالرغم من أنه يصلح، هي ومضات تأتي أو لا تأتي، لتسمح بتوظيف شخص ما أو حدث ما في نص روائي.

لا أود إطالة التشاؤم في موضوع العجوز البرازيلي، الذي ربما تغيرت حياته إلى ما بدت عليه من رقي، مدى الحياة، فقط أنوه أن كثيرا من القصص لا تتم مطالعتها وينتهي الأمر، لكن بعضها يظل موقد أحلام للكثيرين ممن يحلمون بالأفضل لحيواتهم. سيقرأ كاتب صغير تلك القصة، وسيتقد تشوقا لاكتشاف موهبته بواسطة شخص ما، ستقرأ شاعرة شابة القصة، وستحلم بأنها عبرت إلى النشر والثراء.

وسأقول دائما إن الأحلام في عالمنا مهما كانت صغيرة، هناك دائما ما يدفنها، ونادرا ما تمد إليها اليد المساندة لتخرجها للعالم.

63

على الرغم من ازدياد عدد الروايات الطويلة، التي تكتب سنويا في العالم العربي، والعالم كله حقيقة، ونشوء دور نشر صغيرة، تتقبل كل ما يكتب، وتصدره بمقابل مادي يدفعه الكاتب، وعلى الرغم من قيام هيئات حكومية وأهلية، ترعى الكتابة الروائية، وتقيم لها المهرجانات وأيضا ترصد لها جوائز كبرى وصغرى على حد سواء، وأيضا على الرغم من أن معظم القراء اتجهوا بالثقل كله إلى جاذبية الرواية، وما يعتقدون من أنها البيت الكبير الذي يؤوي كل الفنون، وتعيش داخله في تناغم.

على الرغم من كل ذلك، فما تزال القصة القصيرة، الفن القديم الذي عرفناه، تكتب وتكتب بغزارة أيضا، لكن عدم المتابعة قد يجعلنا نعتقد بأنها فن اندثر، ولم يعد موجودا إلا في شكل ومضات بسيطة هنا وهناك.

حقيقة أتيح لي أن أقرأ في الأشهر الماضية، عددا كبيرا من المجموعات القصصية، تحمل صفات وأجواء مختلفة، لعلها الصفات والأجواء نفسها التي قد تحملها الروايات، فقد كتبت بطريقة النفس القصير، أي إيراد التفاصيل بشكل خاطف من دون الخوض في غمارها، إلقاء نظرات سريعة لكن كافية على الأشياء التي يريد الكاتب الإشارة إليها، ويدع القارئ يكمل في

ذهنه ما يعتقد أن الكاتب ربما أراد كتابته.

حجم التفاصيل في الكتابة الروائية، ووجود عدد كبير من الشخصيات، قد يؤثر كثيرا في التجريب، فلا يستطيع الكاتب إلا وضع لمسات خفيفة ثم المضي في حكايته العادية.

كذلك التجريب في الكتابة، وهنا يكون ظاهرا أكثر مما لو كانت الرواية مسرحا له، بمعنى أن حجم التفاصيل في الكتابة الروائية، ووجود عدد كبير من الشخصيات، قد يؤثر كثيرا في التجريب، فلا يستطيع الكاتب إلا وضع لمسات خفيفة ثم المضي في حكايته العادية. الشيء الملاحظ في كتابة القصة القصيرة، أن بعض الكتاب ألغوا الحكاية تماما، وأصبحت القصة عندهم، طابورا من المعاني والمشاهد الرقراقة، وربما الكئيبة، من دون وجود شخوص ظاهرين، وهنا نتذكر الشعر بكل تأكيد، وتلك السطوة التي يمارسها على الكتابة النثرية، خاصة بعد ازدهار قصيدة النثر، لدرجة طرد الحكاية من نصوص ينبغي أن تملك حكايات.

وشخصيا لا أميل لهذا النوع من النصوص حين أقرأها بوصفها قصصا، وأحب أكثر تلك التي تمتلئ بالناس والضجيج القصصي، والمشاهد الواضحة، مثل القصص التي كتبها يوسف إدريس، ومحمد خضير، وتلك التي يكتبها الآن أدباء حديثون مثل أنيس الرافعي، ولؤي حمزة، ومحمود الرحبي، وعمر الصائم، وغيرهم من الذين يثرون الساحة القصصية بإنتاجهم دائما. وحين أجد قصصا تبدأ بشخصية معينة وتصفها، ثم تقودها إلى الاختلاط

بالناس في حارة ما، أو سوق ما، أحس برغبة في إكمال القصة، أيضا وصف الأماكن داخل النصوص وما قد يحتويه من تنسيق أو فوضى، وصف الروائح، والأصوات، والحياة التي تتنفس من حولنا، كل ذلك بهار قد يساعد في إنجاح القصص، مثلما يساعد في إنجاح الروايات، ولأن الأفكار واحدة تقريبا وتستخدمها كل الفنون الكتابية، سنجد أفكار الروايات هنا، فقط يتم التناول باقتصاد شديد.

مؤخرا ظهرت أنواع من القصة القصيرة، ألغت كل دعائم القص، وصيرت الكتابة القصصية مجرد خاطرة صغيرة مكثفة، ترمى للذهن وقد تصيبه أو تفلته، أصبح الكثيرون يحتفون بهذا النوع الذي أعتبروه ملائما لعصرنا، وأن القارئ يحتاجه في الوقت الحالي. أن تصف حدثا أو شخصا أو جحيما بجملة واحدة، تحمل خلاصة قصة طويلة.

وقد قرأت كثيرا من هذه القصص القصيرة جدا أيام كنت أكتب روايتي «طقس»، الصادرة عام 2015، لأن واحدا من شخصياتها، كان يكتب هذا النوع من القصص، وكتبت قصص تلك الشخصية بالنهج نفسه، وفوجئت أن هناك من اعتبرني كاتب قصة قصيرة جدا، لكن الأمر لم يغوني في شيء، وكانت مجرد تجربة، من أجل تجربة أخرى. ومثل أي إبداع له من يجيده ومن يحاول إجادته، ومن يتسلقه من دون دراية، سنجد القصة القصيرة جدا، مأوى لآلاف جربوا كل شيء، ولم ينجحوا، جربوا الرواية، والقصة القصيرة، والآن يؤلفون الكتب في القصة

القصيرة جدا، أو الومضة كما تسمى، وقد قرأت عناوين وومضات لم أتمكن من تفسيرها، ولا الغرض من كتابتها أصلا، مثل: «صاح الصغير وكان ظهري يؤلمني»، أو «تمطت الأرض لأن قطرة مطر لامستها»، و«شبعت.. شبعت.. شبعت». وهذه الـ «شبعت»، هي ما ألغى اهتمامي بهذا النوع من الكتابة.

لن يهتم إلا قليلون بالجودة، والجودة عموما أصبحت شيئا نادرا حتى في السلع اليومية التي نستهلكها بعيدا عن الإبداع.

لقد تساءلت والعالم يتغير كل يوم، والإبداع المكتوب بالذات، نحسه يوما، شيئا كبيرا ومتغلغلا في الوجدان، ولن ينتهي بسهولة، ونحسه يوما آخر، معبرا ضعيفا قد ينهار في أي لحظة، ولا يعود يلفت النظر، حتى لو ظل الناس يكتبون. تساءلت:

هل المستقبل بالفعل للقصة القصيرة؟ هل ستعود تلك الحكايات البسيطة، من غرف النسيان، لتطرد الرواية من عرش الكتابة الإبداعية، وتحتله؟ خاصة بعد أن وصلت الرواية في معظم الأحيان إلى درجة من الركاكة، بحيث لم تعد قادرة على اللمعان أكثر؟

لا أحد يعرف، ربما يحدث ذلك وربما لا يحدث، لكن الشيء المؤكد، أن الناس، أو بالأصح المتعلقين بحبال الإبداع، سواء كانوا مبدعين أم لا، سيظلون يكتبون الشعر والرواية والمسرح والقصة القصيرة، لن يهتم إلا قليلون بالجودة، والجودة عموما أصبحت شيئا نادرا حتى في السلع اليومية التي نستهلكها بعيدا

عن الإبداع.

كانت السيارات القديمة مثلا، صعبة المراس ومصنوعة من حديد صلب، لا يخدشه شيء، والآن الأجيال الجديدة من تلك الماركات نفسها، لا تقوى على التحمل، بعيدا عن أسفلت المدن.

64

كنت شاهدت على قناة "دي دبليو" الألمانية الرائعة، تقريرا عن الروايات المرشحة لجائزة الكتاب الألماني هذا العام 2019، وهي جائزة كما هو واضح من اسمها، تمنح للكتاب باللغة الألمانية، ولا أدري إن كانت خاصة بالألمان فقط، أم تشمل كل من كتب بتلك اللغة.

يتحدث التقرير عن موضوع كل كتاب، مع سيرة مختصرة لمؤلفه، وأيضا حديث قصير للمؤلف عن مصدر إلهام الرواية، وكيف كتبت، مما عددته توثيقا جيدا للأدب، وجذبا للقراء كي يدخلوا فيه.

الذي انتبهت إليه في ذلك التقرير الجاذب، هو أن الروايات كلها تقريبا، تاريخية، إما تتناول فترة النازية، أو فترة الشيوعية، مع الربط بالاتحاد السوفييتي السابق، أو فترة ما بعدة سقوط جدار برلين. وهي فترة قريبة نوعا ما، لكنها أيضا دخلت في التوثيق التاريخي، ما دامت فترة تجاوزتها ألمانيا، وتجاوزت سنوات أخرى بعدها.

لقد كانت الغلبة للدخول في قوائم الجائزة إذن لذلك النوع من الروايات، ومؤكد كانت ثمة روايات معاصرة، منجزة وجميلة، لكنها لم تحظ بنصيب التنافس في القائمة الأخيرة للجائزة. وحقيقة لا أعرف ما هو مزاج القراء الألمان بالضبط

لكن من الواضح أن محكمي الجوائز يحبون التاريخ هناك، وكذا الكتاب الذين قطعا يكتبون ليقرأهم الناس، وهذا هو الشيء الطبيعي، وبالتالي تأتي الروايات سنويا وعين الكاتب على القراء الذين سيستقبلون كتابه.

في بريطانيا وأمريكا، تجد أيضا روايات كثيرة تاريخية تصدر كل عام، ولو راجعنا قوائم جائزة "مان بوكر" العريقة سنجد الروايات التاريخية التي فازت بها عديدة والتي دخلت في القوائم القصيرة، كثيرة أيضا. وتجد كل الفترات التاريخية لبريطانيا موجودة، وحتى الفترات التي تقترب من الوقت الحالي. ولأن "مان بوكر" لا تقتصر على البريطانيين فقط، وتمتد لتشمل كل من كتب بالإنكليزية، سنجد تاريخا روائيا من أمريكا وكندا وأستراليا، صيغ في روايات حصلت على الجائزة، أو كادت. سنجد حروبا قديمة وقصص حب قديمة عولجت بعصرية، وأشياء أخرى ربما كانت ستدفن في الماضي لولا أن اقتلعها الروائيون وجاءوا بها.

أيضا لنلق نظرة على الروايات التي تأهلت لجائزة البوكر العربية، على سبيل المثال، طوال سنواتها التي قضتها منذ أن استحدثت لدينا، سنجد أن التاريخ موجود أيضا، التاريخ الموثق بالأدلة والبراهين، وذلك الذي ربما يتخيله الكاتب، ويرصده كأنه تاريخ حقيقي.

فمنذ رواية بهاء طاهر "واحة الغروب" التي فازت في الدورة الأولى، ثم رواية "عزازيل" ليوسف زيدان، التي فازت بعد دورتين ربما، ومرورا بالسنوات التالية، حتى رواية محمد حسن علوان

"موت صغير"، لا بد من تاريخ. روايتا زيدان وبهاء طاهر عن تاريخ متخيل كما يستطيع القارئ أن يفهم، وحتى لو جاء ذكر وقائع حدثت بالفعل في زمن ما، فإنه مجرد ذكر، والواقعة لا تمثل محورا. كذلك ذكر الشخصيات، مثل عالمة الرياضيات هيبتا، ومقتلها، في رواية "عزازيل" فقد كان ذلك إيهاما أن الراهب كان حقيقيا، وشهد ذلك القتل العنيف للعالمة، على يد رهبان متطرفين. بينما استفادت "موت صغير" من سيرة ابن عربي، وكتبت في شكل سيرة موازية، لكنها تأخذ من السيرة الحقيقية بلا شك.

وقد قلت مرة إن تخيل التاريخ أمر سهل للغاية، وإنشاء تاريخ يشبه التاريخ، لن يبدو مستحيلا بالنسبة لكتاب الرواية المحترفين، بعكس إسناد العمل إلى شخصية موجودة سلفا، وتعرف بمواقفها، وحياتها كاملة. هنا تكمن الصعوبة، حيث أن الكاتب لا يستطيع تغيير المصير، ولا يستطيع إضافة أحداث لم تحدث، مثلا لن يستطيع إضافة موقعة جديدة لسيرة نابليون الحربية الموثقة، ولا يستطيع حتى إضافة سفينة حربية أو جمل في قافلة محملة بالعتاد غزت بلدا ذات يوم. وهناك كتاب يستطيعون فعل شيء آخر في هذا الصدد، وهو إضافة مشاعر إنسانية، أو جوانب شخصية غير مذكورة عن ملك أو قائد ما، وهنا لن يستطيع قراء التاريخ محاسبتهم، لأن التاريخ لم يقل شيئا في تلك الأمور. وأصلا الجوانب الشخصية والإنسانية للناس، تبدو عند التدوين، أمورا تافهة لا تستحق الذكر، إلا إن كان الأمر فضائحيا، مثل قصة غرام بين حاكم، وواحدة من

الرعية.

لكن ما هي الموضوعات التي تتناولها الرواية التاريخية عادة؟ أي أن التاريخ مساحة ممتدة في كل مكان، على ماذا تركز الكتابة الروائية؟

من خلال قراءاتي، تبدو لي الحروب من أهم مواد الكتابة التاريخية، ولن نسأل لماذا الحروب بالذات، لأن الأمر يبدو واضحا: الحرب تقدم مواد مشبعة للكتابة برغم ما تسببه من ضرر، كل المآسي الممكنة تحدث في الحرب، ومن جراء الحرب: الجوع، الفقر، التشرد، الاستغلال المادي والجنسي، انعدام الأمن، الموت المباغت للأحباب، كل ما هو مزعج، وحقير، ولا إنساني. وللأسف الشديد فإن الكتابة في معظمها لا تحب الحدائق المزهرة، والشوارع النظيفة، والبيوت المضمخة بالعطر بقدر ما تحب المأساة، لذلك أي كاتب يود كتابة تاريخ أمته سيفكر في ما جرى من حروب وسيستوحى من تلك الحروب.

أيضا الديكتاتوريات العسكرية، وحتى الديكتاتوريات المدنية المسنودة بالعسكر، تبدو مواد خام، يمكن الاستفادة منها في كتابة النص التاريخي، فهنا يوجد الجوع والقهر والتشرد أيضا، إضافة إلى شيء آخر: تلك الفنتازيا التي تصاحب حكم الديكتاتوريين، ذلك الضحك المبكي، الذي يعطي للنص طعما آخر. الديكتاتور بما يملكه من خصام مع نفسه أولا، ومع المحكومين ثانيا، ومع العالم كله ثالثا، يمكنه أن يلغي التفكير والابتكار فجأة، ويمكنه أن يحول مستشفى حكوميا نشطا يقدم خدمات جليلة للمرضى،

إلى سجن. وعندنا في زمن ما، ألغى النميري تناول اللحوم مرتين في الأسبوع، وألغى الفرق الرياضية بحيث لم تعد هناك كرة قدم بمعناها الصحيح. كما أننا نستطيع استخلاص الكثير من سيرة روبرت موغابي، رئيس زيمبابوي العجوز الذي أبى مفارقة السلطة إلا بعد جهد كبير ليتمّ خلعه، وأي رواية تاريخية تكتب مستقبلا عن زيمباوبوي، قطعا سيدخل فيها.

في روايتها «غرنفيل تاور» أو جسور الحب، الصادرة حديثا عن دار المؤلف في بيروت، تصدت الكاتبة اللبنانية مريم مشتاوي لمأساة برج غرنفيل، أو غرنفيل تاور اللندني، الذي شب فيه حريق ضخم في العام الماضي، وقضى على معظم محتوياته، ومات كثيرون كلهم من مهاجري العالم الثالث، الذين ينزحون إلى الغرب طوعا أو مجبرين، للبحث عن حياة أفضل حسب ظنهم، وربما لا تكون أفضل في أي حال من الأحوال.

مريم بلا شك تأثرت بتلك المأساة الكبرى، وككاتبة روائية، لا بد أن صور الحزن انطبعت في مخيلتها، وكونها تقيم في لندن، لا بد ذهبت إلى مكان المأساة، وحاولت أن تقدم شيئا، لذلك حين تقرأ نصها، تصدمك تلك المشاهدات الكبرى للألم، التي كان بعضها حقيقيا، تم ذكره في التقارير، وبعضها من مخيلة الكاتبة الروائية، ومعروف أن الروائيين الجيدين، يملكون من الخيال، ما يغنيهم عن أحداث كثيرة، وبعضهم يستطيع صناعة داء ما، وصناعة دواء له في الوقت نفسه، وهناك من يكتب عملا تاريخيا كاملا بلا أي سند لتاريخ حدث، وإنما إلى المخيلة وحدها.

نحن مع بايا، الفتاة الجزائرية الجميلة من مدينة قسنطينة، أو مدينة الجسور، كما ورد في النص، هناك حيث الحياة طيبة،

ورغدة إلى حد ما، ما دامت الأسرة مكتملة وملتمة على طاولة الغداء، وما دامت الجدة الكبيرة، تملك حواسها كاملة، وتنسج القصص المشوقة، وما دام تاريخ المكان هو حاضر المكان أيضا، حيث الجميع يعرفون الكثير عن الجميع، ويمكن ببساطة شديدة، أن تنشأ قصة حب بين بايا الجميلة، وتقي الدين الوسيم، ابن بلدتها، الذي سيبادلها الحب أيضا، وأن تكون ثمة مباركة من العائلة لهذا الحب، الذي غالبا ما ينتهي بزواج كريم في تلك البلاد المحافظة.

لكن الأمر ليس كذلك، وهناك مأساة كبرى ستحدث في غرنفيل تاور في لندن، في المستقبل، ستكون بايا شاهدة عليها، وتكون باكية أيضا لأن الفقد سيكون كبيرا، وخاصا أيضا. بايا عملت عند سيدة إنكليزية، وصيفة لمنزل السيدة الأرستقراطية، زوجة السفير، وعاشقة قسنطينة وجسورها وأهلها.

هنا يأتي دور السيدة الإنكليزية لتصبح أما للوصيفة في أحيان كثيرة، ومجرد سيدة، وصاحبة منزل من منازل المستعمر، في أحيان أخرى، تقلّب في المزاج تعرفه بايا، ولا تعود تكترث له، وحين يموت والداها فجأة في حادث خطير، ستكون السيدة الإنكليزية أما أكثر، ولكن بمواصفاتها نفسها، الصلف دائما، والعطف أحيانا.

سنتساءل في تلك المرحلة: أين تقي الدين؟ أين الحبيب الذي من المفترض أن تلوذ بعطفه الفتاة بايا، ليكون سندا لها ولإخواتها الصغار، وقد فقدت أسرتها؟

الإجابة مؤلمة، وتأتي من الجدة، التي شهدت نزوات جدته أيام الفرنسيين، وكيف كانت تتعرى، باحثة عن صيد جارح، وأنها نصحتها مرارا، واختلفت معها، وهددتها، خاصة إن عرفنا أن الجدة نفسها كانت مشاركة في المقاومة ضد المستعمر، وفجّرت ذات يوم نقطة أمنية، فيها جنود فرنسيون.

عالجت الرواية عبر شخصية الراوية وعبر التسكع المرير في لندن، مشاكل المهاجرين العرب، الذين يأتون من بلدان مضطربة بسبب الحروب أو الفساد أو عبث الديكتاتوريات.

النص يمتد ويحتشد بالوقائع المنطقية، وسننتقل بسلاسة شديدة، وبخطوات متمهلة إلى لندن، ذلك أن البطلة وبقلبها المجروح، النازف حزنا على تقي الدين، لا تستطيع مواصلة الحياة في قسنطينة، هي تتطلع للسفر لتتنفس هواء آخر، ربما تعود بعده بايا القديمة التي ستضطلع بمسؤولية أخواتها، وهنا تمد مدام كريونا، الإنكليزية الأم المتعجرفة، يد العون حين تسهل لها السفر إلى لندن، لقضاء إجازة عند أختها هناك، تدعمها بأوراق السفر ومصاريفه أيضا، وبالتالي يصبح ذهن القارئ مشغولا بتخيل ما هو مقبل، خاصة إن طالع لوحة الغلاف، وتذكر أن الرواية اسمها «غرنفيل تاور»، وذلك البرج، حدثت فيه مأساة كبيرة، لا بد يعرفها الجميع.

لندن ليست مدينة سهلة تمنح معطياتها للقادمين إليها بكل أريحية، إنها مدينة جامدة، قاسية المشاعر، وربما يضيع فيها الفرد بدون حتى أن يفطن جاره إلى ضياعه.

بايا في سكة الضياع، وتنجو من محاولات استغلالها بما ورثته من صلابة، وتتحرك بمعاونة من عرفتهم ووثقت فيهم إلى حد ما، نحو الإقامة في البرج الذي سيحترق ذات يوم. وهنا النزوح المنطقي لما أرادت أن تخبرنا به مريم مشتاوي.

الرواية كتبت بلغة آسرة فعلا، هي لغة الشعراء التي أشرت إليها من قبل، وقلت إن الشعراء الذين يعالجون الرواية، يملكون بهارات أكثر مما لو كانوا روائيين فقط، وتلك البهارات، تمنح الطبخة المبدعة نكهة مميزة. الوصف مدهش خاصة وصف المباني والشوارع والأشياء المتناثرة في الحياة، التي قد لا تثير الاهتمام في العادة، والشخصيات كانت كما ينبغي أن تكون، من شخصية الجدة المناضلة، صاحبة الكلمة الأولى في مجتمع أسرة بايا، إلى شخصية مدام كريونا، وأختها المتعجرفة جدا، والعم إدريس الذي كان يقيم في البناية المحترقة، والسوري الذي أصبح حبيبا في الغربة لبطلة القصة، وآخرين كان وجودهم حيويا.

وقدعالجت الرواية عبر شخصية الراوية وعبر التسكع المرير في لندن، إحدى المدن المرغوبة بشدة حين النزوح للغرب، مشاكل المهاجرين العرب، الذين يأتون من بلدان مضطربة بسبب الحروب أو الفساد أو عبث الديكتاتوريات، ليعملوا في كل المهن الهامشية، أو يظلوا متشردين، تطرقت إلى تكدسهم، وأحلامهم، وفراغات أيامهم وسط الحنين، كما تعرضت للحب، ذلك الموضوع الأزلي الذي يعالج في كل يوم بشكل مختلف. لقد جاءت بايا إلى لندن لتبتعد عن مأساة حبها قليلا وتعود، لكنها

تبقى تحت ضغط الوهم بما قد ينتظرها من أسى إن عادت، ولا تعلم أن الأسى هنا حيث معظم الآمال والأحلام بلا سند يحولها إلى واقع.

رواية صغيرة لكنها ممتلئة بالحكايات، وإضافة جديدة للأديبة مريم مشتاوي التي قدمت لنا من قبل، رواية «تريزا أكاديا»، ذلك النص الغرائبي الذي يفيض سحرا.

لا شك أن كتابة الرواية تطورت بشدة منذ عهد الروايات الأولى التي كُتبت في القرن العشرين، وبداية الألفية الجديدة، وظهرت تجارب لا تتبع النهج الكلاسيكي المعروف، وإنما هي تجارب شُيِّدت بمعمار خاص، وطرحت نفسها للتذوّق.

وفي وقتنا الذي نعيشه، نجد كتابات روائية بأعداد كبيرة، لكن دائمًا ما نُشير إلى أن النجاح، وسط هذا الكم الهائل من الكتابات، يحتاج إلى صوت خاص للكاتب.

وفي زياراتي الدائمة للمكتبات التي ما زالت تهتم بكتب الإبداع مثل مكتبة جرير، وتضع لها قسمًا ضخمًا، أعثر دائمًا على كتب مُذيلة بأسماء لم أسمع بها، ينتابني الفضول، وأقلّب الكتب، أحيانًا تلفتني وأشتري الكتاب لأكتشف وراءه كاتبًا موهوبًا، لكن كثرة ما يُعرَض، يُلهي المتسوّق، ولا يُتيح له أن يتعرف إليه.

أيضًا أعثر على تجارب فيها مُحاكاة، وأعني هنا العناوين، التي يتوهَّم الكاتب أنها ستلفت النظر لأنها صيغت على وزن عناوين مشهورة. أحسها شيئًا مُتكلفًا ومقصودًا، أن تُسمّي عملك مثلًا: موسم الهجرة إلى الجنوب، أو اللص والثعالب، أو في بيتنا طفل، من دون أن تُجيد رسم عالم يخصّك، ويمثّلك. والقارئ الجيد في رأيي لا يبحث عن عناوين تُذكِّره بعناوين قرأها مرارًا، لكن عن عناوين حديثة وجذّابة، وتُقدِّم محتوًى دسمًا ومُشبِعًا.

telegram @soramnqraa

9 789776 765368

مكتبتك بمسافة الهاتف
alrabiepublications.com

منشورات الربيع